AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01030 8827

دراسة تحليلية لأهم مركز من مراكز الثقافة العربية

العراق

وما تولى عليه من حضارات

تأليف

الدكتور حسين عون

الاستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الطبعة الثانية

مطبعة رويال خلف محكمة اسكندرية الشرعية

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

DS
69.5
A85
1952

دراسة تحليلية لأهم مركز من مراكز الثقافة العربية

العـــــراق

وما توالى عليه من حضارات

تأليـــف

الدكتور حسن عون

الاستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الطبعة الثانيـــة

مطبعة رويال خلف محكمة اسكندرية الشرعية

04-B5222
pd 9-12-04
OCLC
23481743
B1319446x
15032954

مقدمـه الطبعة الثانيـة

بسم الله الرحمن الرحيم

يرى القارىء فى مقدمة الطبعة الأولى أن هذا المؤلف لم يكن سوى محاولات لكشف بعض الغموض عن بيئة العراق التى تدين لها الثقافة الإسلامية بكثير ؛ وإن هذه المحاولات قد طبعت تحت الحاح طلاب معهد الدراسات العليا ، مع الوعد بطبعها مرة ثانية لكى تخرج من دائرة المعارف المسرودة سرداً ومن ميدان الدراسات السريعة إلى دائرة العرض العلمى والتحليل المنطق مع ذكر السند كلما أتيحت الفرصه وتسجيل المراجع كلما دعت الضرورة .

وفى الحق إن الفكرة عن هذا الموضوع الحيوى لم يكن ينقصها نضوج ، والرغبة فى العرض والاستقصاء لم يكن يعوزها تحمس ، ولكن الذى كان ينقصنا فى الواقع إنما هوالوقت فلقد كنا مضطرين إلى أن نساير منهج الدرس فى المعهد مسايرة سريعة وكنا ملزمين إلى أن نقدم لطلاب المعهد فى كل أسبوع جديداً ، وكانت تلك هى أول سنة نقوم فيها بهذا العبء الذى لايخلو من ثقل ومن جسامة ومن لذة أيضاً .

والآن بعد عام آخر من البحث والاطلاع ومن الدرس والمناقشة يتسع أمامنا الوقت ، وتزدحم علينا المعارف ، ويتيسر لنا أن نقرأ مالم نكن قد قرأناه عن هذا الموضوع ونطلع على ما لم نكن قد اطلعنا عليه من كشف وآثار فى بيئة العراق ، تلك البيئة التى لا تزال تستلفت نظر الغربيين وتغرى علماءهم ومستكشفيهم إلى الحضور سعياً وراء الكشف عن الآثار القديمة ورغبة فى الأهمية أو إلى ما يكتنف هذه المنطقة من الأرض من سر وغموض .

كل هذا جعلنا نتقدم ، ونحن مطمئنون إلى الطبعة الثانية لكى نفى بما أخذناه على أنفسنا من وعد كنا نشعر بثقله ونحقق فكرة خامرتنا طويلا وكنا منها فى تردد وحذر ، ونقدم للقراء هذا البحث — فى ثوب آخر — عن بيئة العراق التى ساهمت بأكبر خط فى الثقافة الاسلامية وأنتجت أهم الآثار فى تلك الثقافة ، وأمدتها بكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة ، ومع هذا فلا يزال كثير منا يجهل تاريخ الحضارات العراقية ولا يهتم بدراستها ومعرفة مدى تأثيرها فى العقلية الإسلامية بقدر ما يهتم بدراسة علمائها وأدبائها وفلاسفتها الذين كانت لهم اليد الطولى فى تأسيس تلك الثقافة الاسلامية وفى المضى بها قدما حتى استطاعت أن تقف على قدميها وتنافس أعرق الثقافات القديمة من يونانية وفارسية ورومانية . ونعتقد أنه لم يعد هناك مجال لجهل هذه الحضارات ، وللانصراف عن دراسة الصلة بينها وبين ما انتجته من من آثار ، ومن قدمته من علماء ، فقد أصبح من الضرورى فى الدراسارات الحديثة أن تدرس البيئة بنفس العناية التى يدرس بها الأشخاص وأن تحلل آثارها بنفس العمق الذى يحلل به العلماء ؛ وكثيراً ما كان فى هذا النوع من الدرس عون على كشف ما غمض من الأسرار ، وتصحيح لما كان مستقراً فى الأذهان من أخطاء . على هذا الأساس وبهدى هذا المنهج نشرع فى طبع هذا الكتاب للمرة الثانية وكلنا أمل أن يحقق ما نهدف اليه من غرض وما تتطلبه طبيعة البيئة العراقية من درس وعناية واهتمام .

وسيرى القارىء للطبعة الثانية أننا لم نحاول تغيير منهج الطبعة الأولى إلا بقدر ما تستلزمه ضرورة تسجيل كل ما لدينا من معارف ، فالمنهج الأساسى لن يمس بقدر ما تمس التفصيلات ، والخطوات الرئيسية الكبرى لن تبدل بقدر ما تبدل النظريات الجزئية والمسائل الفرعية . وسيلمح القارىء

كذلك فى هذه الطبعة أننا نطوف به خلال بيئة العراق منذ أقدم عصورها فى التاريخ ونستمر فى التنقل به من عصر إلى عصر ومن حضارة الى حضارة حتى نصل الى الفتح العربى الاسلامى وهنا نلقى عصا السير ونقف به لحظة نتأمل فيها الماضى البعيد ، ونتدبر ما صنعته حضارات الأجيال القديمة فى هذه البيئة على مر الأزمان . ونحن إذ نقف بالقارىء عند الفتح العربى إنما نكتفى بالقاء الضوء على ظلام الماضى ، ونقتصر على كشف معالمه ، وإظهار حقائقه ؛ وبذلك نكون قد مهدنا السبيل لكتاب آخر يتناول نفس البيئة بعد الفتح العربى الإسلامى وما كان لماضيها البعيد وثقافاتها العديدة من أثر فى فروع الثقافة الاسلامية .

وبالله نستعين ومنه نستلهم التوفيق ؟

حسن عوده

الاسكندرية فى ٢٤ / ٦ / ١٩٥٢

تمهيد

ليس من أغراضنا الأساسية فى هذا البحث أن نتعرض للعراق كبيئة جغرافية فندرس طبيعة أرضه ومناخه وسكانه ولا أن نتناوله من الناحية التاريخية فنذكر عصوره السياسية وما توالى عليه من دول وأسر وملوك ؛ فذلك جانب من الدرس لا يهمنا وهو متروك للجغرافيين والمؤرخين وكل ما يعنينا هو بيان نشأة الحضارة الانسانية فى هذه المنطقة من الأرض ثم بيان مظاهر هذه الحضارة وتطورها على مر العصور وأخيراً مبلغ أثر هذه الحضارة على من وفد إلى بيئة العراق يستوطنها ومبلغ أثر هذه العقلية الجديدة الوافدة من الخارج على تلك الحضارة . ونحن اذ نتعرض إلى ما يمس الجغرافيا أو التاريخ ويتصل بنظرياتهما انما يكون ذلك بقدر ما تستلزمه الضرورة فقط لاجلاء بعض الحقائق الخاصة بالحضارة وتاريخها فى أرض العراق . ولعل أول سؤال يخطر ببال القارىء ويجد نفسه فى حيرة منه هو :

١ - لماذا نجد أنفسنا فى حاجة إلى هذا النوع من الدرس ؟

من المسلم به أن بيئة العراق أو « ميزوپوتاميا *Mésopotamia* » كما يسميها الأجانب كانت أولى البيئات العربية الإسلامية التى بدأت تدون العلوم العربية وتنشر الثقافه العربية فى مختلف فروع المعارف الأنسانية . وقد استمرت زمناً طويلا تكاد تحمل هذا العبء وحدها حتى نهضت عواصم أخرى للممالك الإسلامية فى أجزاء مختلفة من الأرض تتحمل شطراً من هذه الرسالة العظيمة ، وتساهم بجزء كبير فى رقيها ونشرها بفضل ما تنتجه فيها وما تضيفه إليها من فكر ، وعلم ، وأدب ، وفن .

ولقد كانت هذه البيئة التى نحن بصدد الحديث عنها بمثابة المركز

الأول للحضارة الإسلامية الواسعة ، والبيئة الخصبة لنموها وازدهارها ، وقد تركزت فيها منذ العهود الأولى للإسلام حركة علمية قوية فيها من آثار العقلية الإسلامية وفيها آثار جديدة أخرى لم تكن معروفة قبل عند العرب فكان من هذا الخليط فى العقلية وفى التفكير وفى المعارف انتاج واسع المدى عظيم الأثر عجيب التكوين ؛ لم يقف أمره على ايام الفتح العربى الإسلامى بل بقى يساير الزمن فى تقدمه ويتغلب على كل الصعوبات التى تعترضه ; وقد استمرت هذه الحركة تنمو وتنشط بسرعة مع الزمن لاتقف ولا تتعثر حتى وصلت أوج عظمتها فى عهد الخلفاء العباسيين الذين انتحوا بالدولة الإسلامية نحواً جديداً لا يتسم بطابع العصبية للعرب ورسموا لها منهجاً واضحاً يقوم على التأليف بين العناصر المختلفه ، والعقليات المتباينه ، والمعارف العديدة .

ولم يقف الأمر فى هذه البيئه عند حد التدوين والتأليف ، ولكنها نشطت كذلك فى ناحية الترجمه فنقلت إلى العربية أهم الآثار العلميه والادبية عند الأمم القديمة الراقية كالهند ، والفرس ، والسريانيين ، والعبرانيين ، واليونانيين ، والرومانيين . وهكذا أصبحت المعارف الإسلامية زاخرة بمعارف تلك الأمم وعلومها ، وهكذا ترجم الى العربيه مئات من عيون الكتب فى الطب ، والرياضيات ، والفلك والتاريخ ، والأدب ، والفلسفه ، والطبيعيات وحسبنا أن نتصفح كتاب الفهرست لابن النديم لنرى مبلغ الآثار الاجنبية التى نقلت الى العربية ولنقف على عدد أولئك العلماء الأجانب عن العرب الذين كرسوا جهدهم وسخروا عقلهم لخدمة الثقافة الإسلاميه حتى وصلت الى ددجة من التقدم يصعب على العقل أن يتصورها فى مثل هذه المدة القصيرة من الزمن .

لم تكن هذه النهضة القوية فى البيئة العراقية ، ولا تلك الحركة العلميه

الواسعة التى صورنا باختصار جانباً منها ، وليدة الصدفة ، ولكنها من غير شك نتيجة لعوامل متعددة ، منها الزمنى والمكانى والاجتماعى ؛ وقد تآلفت هذه العوامل وتعاونت على خلق تلك النهضة الجديدة التى عرفها الاسلام فى أرض العراق ، ومن هناك امتدت إلى عواصم الدول الإسلامية الأخرى . فكانت بيئة العراق بمثابة من يحمل مشعل الحضارة وينشر أضواء المعرفة على سائر البيئات الاسلامية الأخرى ولن نستطيع أن نجد لغير هذه البيئة مثل ذلك الأثر فى العهود الإسلامية الاولى . ولكى نفهم عوامل تلك الحركة العلمية أو أسبابها لا بد من دراسة البيئة العراقية دراسة تفصيلية تبين لنا كيف كانت هذه البيئة قبل الدولة الإسلامية ؟ ومتى عرفها التاريخ وبدأ يسجل أحداثها السياسية وآثارها العلمية ؟ وإلى أى مدى قد وصل فيها تقدم الحضارة حتى صارت تقارن بأعرق الحضارات الإنسانية القديمة ؟ وما هى الادوار التى تقلبت فيها تلك الحضارة فكانت سبباً لانتشارها طوراً ولانكماشها طورا آخر ؟ ثم ما هو مبلغ صلاتها بالحضارات الاجنبية القديمه وتأثرها بها ؟

وإذا فهمنا ذلك بوضوح أمكننا أن ندرك لماذا أصبحت هذه البيئة بمثابة المنارة الأولى لنشر المعارف الإسلاميه والتربة الخصبه الصالحه لبذور تلك المعارف الواسعة ، وكيف اختصت هى وحدها بذلك دون غيرها من الحواضر الأولى فى الدولة الإسلاميه كالمدينه ، ومكة ، ودمشق ، وذلك بالرغم من أسبقية هذه الحواضر بالنسبة لتاريخ الإسلام ، فمكة والمدينة كانتا مهبط الوحى ومركز الرسالة ومجمع الصحابة وأوائل الخلفاء ، وبيئة الشام كانت مقر السلطان ومصدر السياسه الإسلاميه أيام الدولة الأموية كلها ، ومع هذا فلم تحظ الثقافه العربيه الاسلاميه من تلك الحواضر بمثل ما كانت تحظى به فى بيئة العراق من أبحاث علمية ومذاهب فلسفيه وآراء سياسية واجتماعيه ، كل هذا كان لنا بمثابة الحافز القوى لدراسه بيئة

العراق ومعرفة ما كانت تشغله من مكان ثقافى ممتاز أمـــلا فى ربط القديم بالحديث ، وشرح ذلك الحديث على ضوء معرفتنا بالقديم .

وذلك جانب هـــام من البحث ينبغى أن يكون من هدفنا دائماً فى كل مرة نتعرض فيها إلى دراسة مادة من مواد المعارف الاسلامية كالبلاغة والنحو ، والتفسير ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والرياضة إذ أننا فى الشرق ، وفى كثير من الأحيان ، قد ألفنا دراسة هذه المواد مجردة فى مناهجها ومبادئها ، وقواعدها ، دون أن نعير أى اهتمام إلى البيئة التى نشأت فيها ولا إلى تاريخ نشأتها ، ولا إلى دراسة أولئك الذين أسسوها ونهضوا بها ؛ ومن هنا كانت دراستنا لهذه المواد ناقصه ، ومعرفتنا بها فى الغالب غـــير مثمرة ؛ ومن هنا أيضاً عز علينا تحليلها ونقدها ، وتعودنا قبولها كما وصلت الينا دون مناقشة ، وعطلنا ملكة التفكير الناقدة فينا ، وألفنا التـــواكل ، والاستسلام لكل ما رآه الأقدمون ، ونظرنا نظرة استصواب وقداسة لكل ما ورثناه عن أساتذتنا وعلمائنا السابقين . وهذه ، من غير شك ، محنـــة ابتليت بها أغلبيه الدراسات فى الشرق منذ زمن قديم ، ولم يحاول رجال العلم والبحث المحدثون محاولة جدية لعلاجها وشفاء عقلية المتعلمين والدارسين من شوائبها وأمراضها ، وليس لذلك من علاج ، فيما نعتقد ، سوى أن ندرس تاريخ العلم وبيئته بجانب دراستنا لمنهجه وقواعده ، ونظرياته ؛ ثم ندرس صلته بغـــيره من العلوم ، وما يمكن أن يكون هناك من أثر متبادل بينه وبين هذه العلوم .

البيئة العراقية فى أول عهودها التاريخية

ليس من شك فى أن العوامل الطبيعية فى البيئة العراقيه توحى لأول وهلة

لمن ينظر اليها نظرة جغرافيه عابرة بأنها بيئة صالحة للأقامة الطويلة وللحياة الرغدة ، وكذلك كان شأنها منذ أقدم العصور التاريخيه فقد وجد فيها الإنسان مأوى يركن اليه من قسوة الطبيعه وجفافها ، وأرضاً ممهدة يعتمد عليها فى ممارسة تفكيره وعمله وإنتاجه ، ووادياً خصباً يجد فيه الكثير من الخيرات ولا يحس فى استغلاله بكبير عناء وهذه البيئه تشبه إلى حد بعيد بيئة وادى النيل والنتيجة الطبيعيه للحياة فى مثل هذه البيئات هو نشأة الحضارات ونموها على مدى الزمن ؛ وذلك هو ما كشف عنه التاريخ بالنسبة للشعوب التى وجدت منذ القدم وعاشت فى وديان الأنهار وخصوصاً عند مصابها . وذلك ما أمكن ملاحظته بالنسبه لوديان الأنهار فى بلاد الصين والهند والعراق فى آسيا ، وبالنسبة لوادى النيل فى أفريقيا ، ووادى التيبر فى أوروبا . ولهذا فقد كان الشبه عظيما جداً ومن جهات متعددة بين سكان وادى النيل وحضارتهم وسكان وادى الرافدين وحضارتهم . وأول شعب عرفه التاريخ من شعوب هذه البيئة العراقيه هو شعب السومريين ، نسبة الى المنطقه الجنوبيه التى كانت تعرف باسم سومر *Sumer* بالقرب من المصب القديم لنهرى دجله والفرات إذ أن هذا المصب بدأ يتقدم نحو الجنوب نتيجة لانحسار ماء البحر وتحول البحيرات الواسعة الى سهول بالنسبه للطمى الذى ينقله ماء النهرين من الشمال كما يتبين ذلك من الخريطه المرسومه فى كتب التاريخ لهذا الأقليم . ولم يكن لفظ السومريين يطلق على سكان هذه المنطقه يوم ظهروا فيها بل استمرت مدة من الزمن لا يعرف مداها موطناً لقبائل تفد اليها مرة من الشرق وأخرى من الغرب والجنوب . والغريب فى شأن هذا الشعب السومرى أنه لم يعرف له أصل بالتحديد ، ولا من أى جهة وصل الى هذه البيئه : فهو لم يكن من الشعوب الآرية التى كانت تسكن بجانبه من الشرق ومن الشمال،

ولم يكن كذلك من الشعوب الساميه التى كانت تسكن بجانبه من الغرب ومن الجنوب . وقد استمرت آراء علماء الاجناس والتاريخ متضاربة فى أصل الشعب السومرى ؛ ولعل أوضح الآراء وأقربها الى المنطق السليم هو أنه مكون من خليط من الجنسين ، فبعض القبائل قد وفد من بلاد ايران وبعضها جاء من شبه الجزيرة العربيه ومن امتدادها فى الشمال وعلى ممر الزمن قد اندمجت هذه القبائل فى بعضها وتم فيما بينها من التآلف والتشابك ماجعل منها شعباً موحداً له نظامه الخاص وحياته الاجتماعيه الخاصه ؛ وذلك بحكم طبيعة البيئه وما تقدمه من أغراء فى الاقامه ووسائل للحياة [1] . ولنترك الآن جانباً الكلام عن أصل هذا الشعب السومرى ولنتحدث عنه منذ عرفه التاريخ فذلك هو الذى يعنينا بالذات .

عرف التاريخ هذا الشعب منذ القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد ، وعرف له كذلك حضارة عظيمة ذات طابع خاص ، ومظاهر متعددة : كان هناك كثير من العلماء ، والادباء ، والصناع ، ورجال الدين . وكل هؤلاء وأولئك على اختلاف عقلياتهم ودرجاتهم فى التفكير ومبادئهم فى البحث والانتاج قد اضطرتهم لوازم حياتهم وطبيعة بيئتهم إلى أعمال الفكر بجانب أعمال الجسم والى استخدام كل ملكاتهم حتى يستغلوا خيرات بلادهم ويبتكروا لكل نوع من ضروريات الحياة ما يسد الحاجة . كل هؤلاء وأولئك قد تكاتفوا على تأسيس هذه الحضارة العظيمة التى عرفت فيما بعد باسم الحضارة السومرية . وبالرغم من أن أهم مظاهر الحضارة السومرية كان وليد الحياة

---

[1] وادى الرافدين مهد الحضارة لمؤلفه السير ليونارد وولى ص ١٥ تعريب احمد عبد الباقى

المستقرة فى هذه البيئة الخصبة فإن الانسان ليدهش حقاً حينما يرى بعض آثار هذه الحضارة وما كانت عليه من تقدم وأتقان فى عصور تسبق ميلاد المسيح بآلاف السنين ؛ هذا وقد حاول بعض الاركيولوجيين والمؤرخين أن يضعوا حضارة السومريين فى صف حضارة الفراعنة من حيث قدم العهد والعظمة والخلود . بل ويذهب بعضهم الى أنها قد وصلت الى درجة من الرقى قبل أن تتكون للفراعنة حضارة فى وادى النيل [1] . وقد يتلمس المنصف بعض العذر لهؤلاء المؤرخين ؛ ولكن يصعب عليه أن يجاريهم فى هذه المغالاة ؛ إذ أن النظرة المنصفه الدقيقة ، والتحليل الواسع العميق لما اكتشف من آثار الحضارة الفرعونية يقودانا إلى الاعتراف بأن حضارة السومريين ممثلة فى هذه الآثار الفجة البسيطة المتشابهة لا تكاد تقف على قدميها إذا ما قورنت بحضارة الفراعنة الواسعة الآفاق المتعددة المظاهر المبدعة فى صنعها النفاذة فى تحليلها الرائعة فى عظمتها المتحدية للزمن فى خلودها المحيرة لعلماء العصر فى بنائها وأسرارها ، حتى ولو لم يكشف لنا الاركيولوجيين عن أوليات الحضارة الفرعونية ، ولا عن تاريخ مبدئها الحقيق .

ونعود الآن إلى الحضارة السومرية فنقول لعل أهم علم عندهم هو علم الهندسة المعمارية التى ظهرت آثارها بوضوح فى بناء المدن ، والحصون ، والقلاع وهم لذلك أول الشعوب الذين استعملوا العقد ، والقباب فى المبانى وكان ذلك تطوراً طبيعياً للنظام البدائى البسيط فى اقامة الأكواخ من أعواد القصب وحزم الغاب الذى لا نزال نجد صورة منه فى بناء الاخصاص والعشش فى ريف مصر وقراها . ويغلب على الظن أن ما نراه الآن من نظام هندسى معمارى فى اقامة القباب المستعملة فى بناء الكنائس والمعابد

---

[1] وادى الرافدين للسير ليونارد وولى ص ٢٥

والمساجد إن هو الا أثر من آثار فن الهندسة المعمارية عند السومريين .

وأهم مظهر لنشاطهم العقلى هو الكتابة ، وهى تعتبر من أقدم الرسوم الكتابية فى العالم ، وتسمى بالخط المسمارى عند العرب ، وبالرسم ذى الزوايا عند الأوروبيين ، وبرسم الأوتاد عند العبرانيين . ومصدر الخلاف فى هذه التسمية هو ما يوجد من شبه بين الكتابه السومرية وهذه المسميات . [1]

ولغة السومريين تشبه الى حد ما لغة الفراعنة فى مصر أو اللغة الهيروغليفية اذ أن كل واحدة منهما تعتبر رسما للمعانى لا للاصوات : كان السومريون يرمزون بصورة النجم مثلا الى الكلمة الدالة على السماء وهى « أنا - *ana* » أو على الإله وهى « دينجير - *denjir* » . وكذلك كان شأن الهيروغليفية فى رسمها تقريباً ، اذ أنهم كانوا يرمزون برسم دائرة فى وسطها نقطة لتدل على الشمس ، ثم على اليوم : وللدلالة على البقرة كانوا يرسمون صورتها ، وكذلك كانت صورة الصقر تدل عليه .

غير أن لغة الفراعنة قد خطت فى سبيل التقدم خطوة لم تستطع أن تخطوها لغة السومريين اذ أنهم بعد مضى زمن طويل قد اهتموا برسم النطق والاصوات بدلا من رسم المعانى مجردة ، وأصبح الفم يرسم كدائرة مفرطحة « ⊂ » وينطق « را *Ra* » والماء بخط معرج « ≈ » وينطق « نى - *ni* » والقفل كمسمارين متلاقيين عند رأسيهما « ⋈ » وينطق « سى - *si* » ، ثم ان الفراعنة بعد هذه الخطوة أيضاً توصلوا الى رسم بعض الاصوات مجردة عن المعنى وكان ذلك بمثابة خطوة هامة فى تاريخ الكتابة ؛ اذ أنها انتقلت بذلك

---

[1] فقه اللغه للدكتور على عبد الواحد وافى ص ٢٥ الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠

من طورها البـــدائى الساذج إلى طور تجريدى جديد ، وقد أخذ الفينيقيون رسم بعض هذه الأصوات مجردة وأتموها وكونوا الحروف الهجائية فى وضعها النهائى فنسب هذا الاختراع اليهم ثم أخذها عنهم كل شعوب العالم . فأخذها عنهم العبرانيون واستخدموها فى الرسم العبرى الحديث ، ثم التدمريون ، والنبطيون ، ثم الآراميون الذين نقلوه بدورهم إلى الهنود ، ثم اليمنيون وعنهم وصل الى الاحباش ، ثم الاغريقيون وعنهم أخذ اللاتينيون ؛ وأخيراً عن الرسم الأغريقى واللاتينى تفرعت كل أنواع الرسم المستعملة الآن فى اللغات الأوربية الحديثة [1]

وإذا كان تطور الكتابة الهيروغليفية كما بينا انتقالا من رسم المعنى الى رسم الصوت فإن الكتابة السومرية قد تطورت بدورها ولكنه تطور من نوع آخر ؛ إذ انتقلت من حالة تصويرها للمعنى إلى حالة رموز ترسم لنفس المعنى لا لرسم الأصوات وكان ذلك نتيجة لنوع القلم الذى كانت تكتب به هذه الرسوم ، فبدل أن كنا نقرأ فى الخط المسمارى صور الأشياء أصبحنا نجد فيه مجموعات من الخطوط كل مجموعة منها ترمز إلى صورة من صور الأشياء ؛ ومن هنا يظهر فى جلاء الفرق بين تطور الهيروغليفية ، وتطور المسماريه فالأول تطور لغوى فلسفى ، والثانى تطور شكلى ظاهرى [2] .

---

[1] انظر كتاب - وادى الرافدين مهـــد الحضاره - لمؤلفه السير ليونارد وولى وتعريب أحمد عبد الباقى ص ٣٢ حيث توجد لوحة تبين تطور الكتابة المسمارية من حالة التصوير الخالص للأشياء الى حالة الرمز الى تلك الصور . وقد عرف هذا التطور بفضل اللوحات الطينية التى عثر عليها فى مدينة اوروك ، ثم فى مدينة كيش ، وأخيراً فى مدينة جمدت نصر .

[2] انظر فقه اللغه للدكتور على عبد الواحد وافى - الطبعة الثالثة ١٩٥٠م ص٣٦-٣٧

أما مظاهر حضارتهم من الناحية الدينية فقد تجلت فى بعض مفرداتهم اللغوية التى ورثها عنهم بعض الشعوب السامية التى نزحت إلى هذه البيئة وأقامت ممالك سامية على أنقاض مملكتهم . وكذلك فيما اكتشف لهم من معابد كانت تحتوى على كثير من التماثيل المتقنة الصنع ، والنقوش المتعددة الأشكال مثل معبد تل العبيد ، وفيما عرف لهم من مراسيم دينية كانت تقام فى المواسم والأعياد ، وفيما أثر عنهم من دعوات وأغانى كانت ترتل تقربا إلى الآلهة وتخلصاً من أدران الدنيا وملاذ الحياة .

ثم ان بعض الباحثين قد أثبت وجود صلة قوية بين الحضارة عند العبريين وحضارة السومريين من الناحية العلمية ، وقد اعتمدوا فى ذلك على ماجاء فى مزامير داود خاصاً بتلك الإشارات العلمية ولعلنا نستطيع أن ندلل كذلك على حضارتهم بوجه عام ، وذلك بواسطة ما وجد لهم من نقوش وصور ، ثم من تحف وتماثيل قد لا تقل فى اتقانها وروعتها عن غيرها من الآثار التى وجدت عند الأمم الأخرى . فما عثر عليه تمثال صغير من النحاس على شكل ثور ، ثم إن المنقبين قد عثروا فى مدينة أور على رأس بقرة مصنوع من الفضة وذلك فى مقبرة الملكة شب ـ آد ، ويعتبر هذا التمثال آية فنية رائعة ، أما الصور والنقوش فقد وجد منها عدد كبير فى آثارهم بعضها عن طريق الرسم والبعض الآخر عن طريق الحفر . وإذن فقد استطاع السومريون بفضل ما نعموا به من حياة الاستقرار وخصوبة الأرض ووفرة الخيرات أن ينشئوا لهم حضارة متعددة المظاهر تتناول نواحى الحياة من سياسة واقتصاد ودين .

وقد بقيت هذه الحضارة فى ازدهارها وتطورها نحواً من عشرين قرناً من الزمن ؛ فكانت بمثابة اللبنة الأولى فى بناء الحضارة البابلية الواسعة وفيما

جاء بعدها من حضارات ؛ ومن هنا نتبين فضل السومريين على الشعوب الذين ورثوهم ، وأسسوا دولهم على انقاض دولتهم .

الأكاديون

فى نفس الوقت الذى كان يعيش فيه شعب السومريين فى الجزء الجنوبى من أرض الجزيرة ، كان يقيم فى الجزء الشمالى من هذه الجزيرة ، شعب آخر يعرف بالشعب الأكادى نسبة إلى بلاد أكاد *Akkad* كما كان يسميها السومريون أو أقليم « كلده » كما كان يسميه الساميون .

لم يعرف كذلك أصل هذا الشعب لا من الناحية الجنسية ولا من الناحية التاريخية ولعله تكون من خليط من الأجناس وفدت من الشرق ومن الغرب بنفس الطريقة التى تكون بها شعب السومريين الذين احتلوا المنطقة الجنوبية من وادى الرافدين ؛ ولكنه لا يقل فى معارفه ، وفى حضارته عن شعب السومريين فى الجنوب ؛ بل أننا نستطيع أن نقول أن الأكاديين والسومريين قد تعاونوا معاً على اظهار حضارة موحدة ، ذات مظاهر متعددة . ولقد كانت هذه الحضارة بمثابة الأساس الاول لكل ما عرف فى هذه البيئة من حضارات واليكم ماكتبه الاستاذ ول ديورانت فى الجزء الثانى من كتابه « قصة الحضارة » . [1]

« ويمكن أن نلخص الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً فى هذا التناقض بين خزفها الفج الساذج وحليها التى أوفت على الغاية فى الجمال والإتقان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة واتقان بارع فى

---

[1] انظر الجزء الثانى ـ الشرق الادنى ص ٤٠ ، ترجمة الاستاذ محمد بدران .

بعض الأحيان . وفى تلك البلاد — على قدر ما وصل اليه علمنا فى الوقت الحاضر — نجد أولى ما أسسه الإنسان من دول وامبراطوريات ، وأول نظم الرى ، وأول استخدام للذهب والفضة فى تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب للقوانين ، وأول استخدام للكتابة فى نطاق واسع ، وأولى قصص الخلق والطوفان ، وأولى المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأولى أصباغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن فى الترصيع والتزيين . وهنا نجد فى البناء أول العقود والأقواس وأولى القباب ؛ وهنا كذلك تظهر لأول مرة فى التاريخ المعروف بعض مساوىء الحضارة فى نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة فى تلك البلاد متنوعة مهذبة موفورة النعم متعددة . وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس . وفى تلك البلاد كانت بداية ما نشأ فى تاريخ العالم من اختلافات يخطئها الحصر » . ومن هذه الصفحة المجيدة التى سطرها هذا الكاتب الغربى مستوحياً فى ذلك ما اكتشف من آثار تاريخية وعلمية فى هذه البيئة نستطيع أن نرسم لأنفسنا صورة واضحة عن حضارة هذين الشعبين ونستطيع كذلك أن نتصور الأثر العميق الذى تركته هذه الحضارة فى الشعوب السامية التى وفدت إلى هذه البيئة فيما بعد وأقامت ممالكها على أنقاض دولة الأكاديين والسومريين .

استمر وادى دجلة والفرات آهلا بالسومريين جنوبا والأكاديين شمالا وخاضعاً لنفوذهم حتى حوالى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، أى أنهم

استمروا يحكمون هذه المنطقه مدة عشرين قرنا تقريباً . ومنذ هذا التاريخ يظهر على مسرح هذه البيئة شعوب سامية دخيلة تنتفع بحضارة السكان الاصليين وتضيف إليها ما يجعلها فى صف أرقى الحضارات القديمة عند الشعوب الأخرى .

البابليون — الاشوريون

يطلق هذا الاسم على الأمم السامية التى نزحت من شبه الجزيرة العربية واستقرت فى وادى دجلة والفرات شمالا وجنوبا . وهؤلاء البابليون — الأشوريون يكونون شعبة مستقلة متميزة عن باقى الشعب السامية الأخرى التى تعرف كالآتى : الكنعانيون فى بلاد سوريا وفلسطين ، والأراميون فى الاراضى المحصورة بين الأشوريين — البابليين شرقا والكنعانيين غربا ، واليمنيون فى الجزء الجنوبى من شبه جزيرة العرب ، والحبشيون فى بلاد الحبشه ، والعرب فى بلاد الحجاز . وليس لنا هنا أن نعرض بالتفصيل للخلاف الناشىء بين العلماء خاصا بالموطن الأول لهذه الشعوب الساميه ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى الرأى الذى استقر عليه أكثر العلماء فقد رجح أكثرهم أن يكون الموطن الأول لهذه الشعوب هو شبه الجزيرة العربية ، ولأسباب طبيعية واجتماعية اضطر الساميون أن يهجروا هذا الموطن الأول ، ويستقروا فى مواطن أخرى . ونحن لو تصورنا الحياة فى شبه الجزيرة العربية وما تختص به من قسوة ، وفقر ، وجفاف ، وخشونة ، ولو تصورنا كذلك مايبدو كظاهرة طبيعية عند الشعوب السامية من كثرة النسل لأمكننا أن نفهم فى سهولة تعليل تلك الهجرات الكثيرة المتوالية التى كونت ولا تزال إلى حد ما تكون جزءاً من حياة الامم السامية ولنفس هذه الأسباب قد وجدت

عند العرب فى الجاهلية تلك العادة التى نهى الإسلام عنها وأشار اليها القرآن فى غير موضع ، وهى قتل الاولاد خشية الاملاق . وأظننا جميعاً نذكر تلك القصة التى يرويها مؤرخوا العرب [1] من أن أسد بن هاشم بن عبد مناف كان له وهو فى حداثة سنه صديق من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه ؛ فجاءه هذا الصديق فى يوم من الايام وشكا له مجاعة أصابت أسرته وخشى أن يكون مآل أسرته الهلاك كما كانت عادة قريش إذ ذاك حين تصيب واحداً منهم مخمصه فيخرج هو وأسرته ويضرب على الكل خباء يبقون فيه حتى يموتوا جميعاً . ولما سمع أسد هذه الشكاية من صديقه دخل باكيا على أمه وقص عليها ما سمعه فأرسلت إلى أسرة صديق ولدها بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياما ؛ ثم لم تجد الأسرة المخزومية ما تسد به رمقها بعد أن نفذ الدقيق والشحم فجاء صديق أسد مرة أخرى شاكياً مستعطفاً متوسلا ، فقام هاشم فى قريش خطيباً ودعاهم جميعاً إلى الاشتراك فى أعمال التجارة وتقسيم الربح على كل الأفراد حتى يمكن معالجة هذه العادة العربية الجاهلية ؛ فكان هذا من هاشم بمثابة العلاج الموقوت ؛ ولكن الإسلام قد حسم الأمر فيها فاقتلعها من النفوس اقتلاعا وحرمها تحريماً قاطعاً .

إن أول هجرة عرفها التاريخ لهذه القبائل السامية ، التى كونت فيما بعد شعبة البابليين — الأشوريين ، كانت حوالى القرن السادس والثلاثين قبل الميلاد . نزحت هذه القبائل من قلب شبه الجزيرة العربية نحو الشمال ،

---

[1] ينسب مؤرخو العرب هذه الرواية إلى ابن عباس مستدلا بها على أن قريشاً بدأت رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن بسبب هذه الحادثة — انظر « أسواق العرب » للأفغانى ص ١٢٤ - ١٢٥

واستمرت فى سيرها شمالا متتبعة آثار المرعى والكلأ ، وباحثة عن مكان يصلح للإقامة الدائمة . وفى شمال شبه الجزيره العربيـــة اتجهت نحو الشرق حتى وصلت حدود مملكة السومريين التى تقدم الكلام عليها . ولعلها أقامت فى ضواحى هذه المملكة القوية مدة طويلة من الزمن لا تستطيع أن تهاجمها ولا تتعمق فى بلادها وحينما كثر عددها ، وازداد نفوذها ، وأحست من نفسها القوة بدأت تشن غاراتها على السومريين والاكاديين وتنتزع السلطان من يدهم شيئاً فشيئاً حتى قضت على سلطانهم السياسى نهائياً حوالى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد .

وأول جزء استولت عليه القبائل السامية من هؤلاء السكان الاصليين هو بلاد أكاد ، ثم بعد ذلك زحفت إلى الجنوب وضمت كذلك منطقة سومر وبذا أصبحت بلاد سومر وأكاد تكون مملكة سامية واحدة ؛ اتخـــذ الساميون عاصمتهم الاولى فى منطقة أكاد . ثم انتقلت العاصمة إلى سومر ؛ وأخيراً عادت إلى الشمال حيث استقرت فى مدينة بابيلونيا ، ومن هنا جاءت تسمية الساميين المقيمين فى هذه البيئة باسم البابليين .

لم تقف هجرة الامم السامية النازحة من شبه الجزيرة العربيـة عنـد هذه القبـائل التى استقرت فى بلاد الاكاديين والسـومريين ، ولكنها استمرت تتلاحق مع الزمن ؛ إذ أن العوامل الطبيعية والاجتماعيـة التى دفعت القبائل السامية الاخرى إلى ترك موطنها الاول ، استمرت كما هى فى حرب مستمرة مع سكان الجزيرة العربيـة تقسو عليهم فينـدفعوا أمامها تاركين بواديهم القاحلة ، وباحثين عن موطن جديد تتوفر فيه شروط الحياة وتكثر فيـه موارد الرزق . وأهم هجرة لتلك القبائل الاخرى حـــدثت فى حوالى القرن الخامس والعشرين قبل الميـلاد . إذ سارت فى نفس الاتجاه الذى سلكته

القبائل الأولى .

تجاوزت هذه القبائل فى سيرها شمالا موطن الساميين الذين وفدوا قبلها واتجهت إلى الجزء الشمالى من بلاد العراق حيث الحوض الأعلى لنهر دجلة . وهناك تغلبوا على السكان الأصليين ، وأقاموا لهم مملكة عاصمتها مدينة أشور - *Assur* ؛ ثم نقلوا هذه العاصمة فيما بعد إلى مدينة نينوى - *Nenive* وهنا نجد وادى دجلة والفرات من الشمال إلى أقصى الجنوب خاضعاً لسلطان الساميين ومكونا مملكة سامية مترامية الأطراف .

بدأ النزاع السياسى فى وادى دجلة والفرات يأخذ صورة جديدة ، فبدل أن كان النزاع قائماً بين الساميين من ناحية وسكان البلاد الأصليين من ناحية أخرى ، أصبح نزاعا بين الساميين أنفسهم من أهل الشمال وأهل الجنوب ، فطوراً يتغلب أهل الجنوب وتسمى المملكة كلها مملكة بابل ، وطوراً ينغلب أهل الشمال وتسمى المملكة السامية كلها مملكة أشور ، وهكذا استمر هذا النزاع قرونا عديدة من الزمن .

ليس يعنينا هنا أن ندخل فى تفصيل هذا الصراع السياسى بين بابل وأشور فتلك هى مهمة المؤرخ السياسى ، ولكن الذى يهمنا قبل كل شىء هو بيان ما كانت عليه الأمم السامية فى هاتين المملكتين من حضارة ورقى علمى وأدبى .

ورث الساميون فى أرض الجزيرة العراقية حضارة قديمة ومدنية واسعة راقية . وهناك ظاهرة اجتماعية ينبغى ألا تغيب عنا بالنسبة للشعوب السامية : ذلك أن الإنسان السامى من طبعه أن يقبل الجديد ولكنه مع ذلك لابد وأن يتفهمه ، ويهضمه ، ثم يشكله بعد ذلك بأسلوبه الخاص ، ولايتنازل

هو عن شخصيته أبداً ، وهذا عين ما حدث فى بيئة العراق أو فى غيرها من البيئات الأخرى التى احتلها الساميون ، فقد رأيناهم قديماً فى وادى دجلة والفرات وفى بيئة الشام ، ثم فى بلاد الحبشة ، ولكنهم ظلوا مع ذلك ساميين فى كثير من أخلاقهم وعاداتهم ، ومتشابهين فى كثير من خواطرهم وأفكارهم وبقيت لغاتهم كذلك متقاربة ، بالرغم من الخلافات الظاهرة العديدة . فى كثير من مفرداتها وصيغها ، وتراكيبها ، ورسومها الكتابية .

ورأيناهم كذلك حديثاً فى بيئات نائية مختلفة كأواسط أفريقيا ، وشمالها وبلاد الأندلس ، وأمريكا الجنوبية ، وجزر المحيط الهندى ، ولكن عوامل الشبه العديدة لا تزال تجمعهم وتربط فيما بينهم . أصطبغت إذن حضارة السومريين بالعقلية السامية ، واتسعت دائرتها وتعددت مظاهرها حتى استطاعت أن تنافس أرقى الحضارات فى العالم القديم . إذ أن الحضارة البابلية كادت تكون على قدم المساواة مع الحضارة المصرية القديمه ، مع ما نعرفه لهذه الحضارة من عظمة ، وعمق ، واتساع . ولم يعد هناك مجال للشك فى أن المصريين والبابليين قد تعاصروا ، واتصلوا ، وتبادلوا كثيراً من الأفكار ، والعلوم والمعارف . غير أننا ينبغى ألا نبالغ فى أثر تلك الصلات وألا نذهب مذهب القائلين بأن قسما كبيراً من الحضارة البابلية مأخوذ عن المصريين ؛ إذ أن الواقع أن الفروق متباعدة جداً بين الحضارتين والأسس التى بنيت عليها كل من الحضارتين متغايرة تماماً ؛ وها هى ذى بقايا الحضارتين من ناحية المبانى ونظمها ، والعقيدة ومراسمها ، والادب ومعالمه تشهد بوجود تلك الفروق ، وهذه الخلافات . لقد كانت هذه الصلة بين شعبين متحضرين منظمين لكل منها مجتمعه ، وسياسته ، ومعارفه ، وأهدافه ولم تكن بين شعبين أحدهما منظم متحضر والآخر همجى بدائى ؛ وعلى

هذا فمن السهل أن نتصور مبلغ ما يكون من أثر حضارة أحد الشعبين على حضارة الشعب الآخر .

ولو تصورنا الحالة التى كانت عليها دولة الاشوريين - البابلين من نظم سياسية ، وعقائد دينية ، وقوانين اجتماعية لاستطعنا أن نفهم الدرجة التى كانت عليها حضارة الساميين فى هذه البيئة ، وسنرى عما قريب كيف كانت هذه الحضارة أساساً لكثير من الحضارات الاخرى ، شرقية وغربية ؛ وذلك بفضل تلك الابحاث العديدة التى قامت على أساس المكتشفات الحديثة لما بقى من آثار البابليين خاصا بالعلوم والادب والعقيدة والقانون .

قد اندثر كثير من معالم هذه الحضارة ، ولم يبق لنا من آثارها إلا القليل ، ولكن هذا القليل يستطيع مع ذلك أن يرسم لنا صورة كفيلة بتبينها وترسم معالمها حتى النواحى التى لم تكتشف ، بعد ، آثارها .

ولنحاول الآن ، قبل كلامنا عن مظاهر الحضارة البابلية ، أن نبين باختصار ماذا وجده البابليون فى بيئة السومريين من نظم ومعارف حتى استطاعوا على أساسه أن يقيموا تلك الحضارة الواسعة ، والدولة الادارية المنظمة :

ورث البابليون من السومريين والاكاديين دولة واسعة على جانب عظيم من النظام السياسى والاجتماعى ، وعلى درجة كبيرة من الثقافة والحضارة ، فلم يجدوا عناء كبيراً فى الرقى بدولتهم الخاصة إلى مكانة تجعلها فى صف أرقى الامم القديمه ، ولا فى التنوع والاكثار من مظاهر حضارتهم حتى تغدو سيدة الحضارات، فى كل البيئات الواقعة فى غرب آسيا ، وأساساً هاماً للحضارات الغربية كاليونانية واللاتينية . وجد البابليون أمامهم تربة خصبة فى

سهول ممتدة واسعة ، وسائل الرى فيها ممهده ، وأنواع النبات والثمار فيها عديدة مختلفة . وجدوا أمامهم نظاماً هندسياً متبعاً فى البناء فطبقوه بسهولة على مبانيهم وأقاموا على أساسه قصورهم ومعابدهم وحصونهم وقلاعهم ؛ وجدوا نظاما من الكتابه موضوعا ومدروساً ومتقناً فاستغلوه مباشرة فى تدوين أفكارهم ومعارفهم وعلومهم وقوانينهم ؛ وجدوا نظاما من النحت والنقش والزخرفة فاستعملوه فى إقامة تماثيلهم ، وتصوير آلهتهم وتزيين قصورهم وهياكلهم ؛ وجدوا طرق المواصلات مرسومة بين القرى والمدن فاستطاعوا بواسطتها أن يوسعوا تجارتهم وينموا ثروتهم ويبسطوا سلطانهم ويحكموا إدارتهم ، على كل البيئة العراقية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ؛ وجدوا عقيدة منظمة إلى حد ما ، لها مبادئها ومراسمها ، وأهدافها فوضعوا على أسسها ديانتهم وتمكنوا بعد ذلك من أن ينفذوا إلى الناحية الفلسفية من تلك المبادىء الدينية ؛ وجدوا مبادىء الطب والفلك والرياضة فذهبوا فى دراسة هذه المبادىء وتوسعوا فى تحليلها وتنظيمها وتطبيقها حتى أصبحت علوما متينة الاساس واضحة المعالم ، محددة الاهداف ؛ وجدوا آثاراً أدبية تقوم على الخرافات والاساطير وتتناول الشعر والغناء فى حالتها الاولى ؛ فنسجوا على منوالها وأقاموا على أساسها القصص التاريخى ، والشعر القصصى ، والادب الدينى وهكذا فى وقت من الزمن قصير استطاع البابليون أن يكونوا لانفسهم حضارة متعددة الآفاق ، مترامية الأطراف ، محكمة الصنع لا تكاد تدانيها فى وقتها حضارة أخرى فيما اكتشف ، إذا استثنينا من ذلك حضارة قدماء المصريين . ولولا هذه الأسس الممهدة لما استطاع البابليون أن يصلوا إلى هذه الدرجة العظيمه من الحضارة فى خلال نحو أربعة قرون فقط ؛ إذ أن مبدأ قيام الدولة البابلية كان فى حوالى القرن الخامس والعشرين وتاريخ وصولنا إلى أوج العظمة العلمية والسياسية والاجتماعية ، والقانونية كان فى

فى أيام حكم حمورابى ، أى حوالى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ؛ وذلك قليل جداً فى تاريخ تكوين الحضارات .

من هذا العرض السريع نلمس تعدد مظاهر الحضارة البابلية ؛ وليس من السهل أن نتناول كل مظهر من تلك المظاهر بالتفصيل ؛ ولكننا نخص من ذلك مظهرين اثنين لأنهما عنوان رقى عقلى واجتماعى لا يكاد يقل عن رقى الأمم المتحضرة الحديثة ، ثم نجمل الكلام على بعض المظاهر الأخرى .

قد اهتدى المنقبون حديثا الى كشف أثرين عظيمين من آثار تلك الحضارة ، وكلاهما يدل على نشاط علمى ، ورقى فكرى لا يكادان يقلان عن نشاط ورقى أى أمة من الأمم القديمة الراقية .

أما الأثر الأول فيدل على ما كان لدى الساميين فى هذه البيئة من حركة علمية واسعه ، وحرص ، ودأب متواصلين فى سبيل الحصول على الكتب فى مختلف المعارف الإنسانية . هذا الأثر هو ما كشف من بقايا مكتبة قديمة أنشأها أحد ملوكهم فى مدينة كانت تقع فى المنطقة السومرية ، وبذل لها من الجهد ووجه لها من عنايته ما جعلها تضارع أكبر المكتبات فى العالم الحديث من حيث الأسس والمبادىء والمناهج وإن كانت تقل عن هذه المكتبات من حيث ما صنف لها وجمع فيها من كتب .

والآن نترك الاستاذ جورجى زيدان يقص علينا ما كتبه فى الجزء الأول من كتاب « تاريخ أداب اللغة العربية » تحت عنوان أقدم مكتبة فى العالم [1]

« عثر النقابون على قرميدة بابلية عليها كتابة مسمارية فيها قائمة بأسماء

---

[1] انظر ص ١٢ من الكتاب - الجزء الأول - الطبعه الثالثة سنة ١٩٣٦ م

ملوك بابل منذ أكثر من ستين قرنا : ويدل ذلك على قدم التمدن فى ذلك البلد المبارك ، وفى جملة أولئك الملوك ملك اسمه « شرجينا » كان محباً للعلم والعلماء ، راغباً فى العمارة ، أنشأ مكتبة فى « وركاء » من أعمال العراق سماها مدينة الكتب ، وعهد إلى رجال من خاصته فى جمع الكتب قديمها وحديثها وأن يفسروا بعضها بالترجمة أو التعليق ، واستعان بالعلماء من سائر الأقطار لينقلوا علوم الآخرين إلى لسانهم وتدوين علومهم . واشتغل آخرون بالشرح والتعليق - كما فعل بطليموس فيلاديلفوس بالاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وكسرى أنو شروان فى جنديسابور فى القرن الخامس للميلاد ، وكما فعل الرشيد والمأمون فى بغداد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة . وقد دون شرجينا هذه العلوم بالحرف المسمارى نقشا على الطين وهى القراميد الأشوريه المعروفة .

فكانت مكتبة وركاء هذه مملوءة بالكتب اللغوية والفلكية والشرعية والأدبية وغيرها . ثم نسخت بعد إنشائها بخمسة عشر قرناً بأمر من أمير أشورى وحفظت فى دار خاصة بها كما تحفظ المكاتب اليوم . وعثر النقابون بالأمس على بقايا هذه المكتبه بين النهرين ونقلوها إلى المتحف البريطانى فى لندن فهى هناك إلى هذه الغاية . »

من ذلك نرى أن البابليين ومن بعدهم، الأشوريين قد ضربوا المثل الأول لغيرهم من الملوك فى العناية بجمع الكتب ، والاهتمام بالانتاج العقلى وإنشاء المكتبات . ثم إن ما صنعوه كذلك من ترجمة وشرح وتعليق ليدل على مبلغ الرغبة فى التوسع العلمى والاستزادة من المعارف الأجنبية ؛ وما عهدنا وجود مثل تلك الرغبة فى دولة لم تكن على درجة كبيرة من النظام والاستقرار والثقافة ؛ والذى صنعته الدولة البابلية فى هذا السبيل يترجم

عن رغبة الطبقة الارستقراطية على الاقل ، وذوق الخواص فى جمع الكتب والعناية بها ؛ إذ أن ذوق الدولة صورة من ذوق الافراد ؛ وإذن فمن المرجح أنه بجانب هـذه المكتبه الملكية كان يوجد عدد غير قليل من المكتبات الخاصة .

أما الاثر الثانى فيدل بلا شك على مبلغ ما كان عند البابليين من ثقافة واسعة وعقلية منظمة ، هـذا الاثر هو قانون حمـورابى ، وهو فى الواقع صورة ناطقة عن الحياة العقلية فى بابل ، بل هو أجل أثر تهديه حضارة تلك الامة السامية إلى حضارات العـالم قديمها وحديثها على السواء . وإن الباحث ليدهش حقاً حينما يطالع مافى هذا القانون من النظرة الشاملة فى أمور هذا المجتمع ومن الفلسفة العميقة فى وضع كثير من أحكامه وتخير صور العقاب الرادعة لكى تستأصل شأفة الفساد من النفوس ؛ وإن تلك الدهشة لتزداد عند الباحث حينما يقارن هذا القانون فى وضعه وتقسيمه ، وتنسيق أحكامه بما جاء فى قانون الاثنى عشر لوحا عند الرومانيين وبين وضع القانونين نحو من ثمانية عشر قرنا من الزمان ؛ إذ أن الاول وضع فى حوالى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، والثانى وضع حوالى القرن الثالث قبل الميلاد .

وهذا القانون الرومانى مع ضيقه ، وبساطة مواده ، وسذاجته ، وركة عبارته قد شاد به سيسرون ، خطيب الرومان ، وغالى فى قيمته ، ودقته مغالاة جعلته ينادى بهذه العبارة المأثورة : إن ما تحويه مادة واحدة من مواد هذا القانون من فلسفة تساوى فلسفة الدنيا بأجمعها !!

اكتشف هذا القانون منقوشاً على مسلة حجرية عظيمة بالخط المسمارى فى مدينة السوس وهى أهم مركز فى إقليم يقع فى الشرق من بابل وكان

يسميه اليهود قديما بلاد عيلام . وهؤلاء العيلاميون يكونون شعبا من الشعوب الهندو - أوروبية ، وكان لا يفتأ يشن غاراته المتتابعة على مملكة بابل . وفى إحدى غاراته نقل فيما نقل من أسلاب ، هذه المسلة حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد — بقيت هذه المسلة بما عليها من نقوش فى طى الكتمان حتى جاء المنقبون من علماء الآثار واكتشفوها حديثا فى بقايا مدينة السوس القديمة سنة ١٩٠٢ م ، ولا تزال هذه المسلة محفوظة حتى الآن فى متحف اللوفر بباريس وقد اعتبر هذا الكشف بحق فاتحة عهد جديد ، اذ انه ألقى ضوءاً عاما على حضارة البابليين وأوضح الى حد بعيد كيف كانت تلك الحضارة القديمة مصدراً لكثير من الحضارات التى نشأت فيما بعد ومنذ هذا الكشف قد وجدت فى مختلف البلاد الاوربية دراسات عدة حول الحضارة البابلية : من هذه الدراسات ما هو خاص باللغة ، ومنها ما هو خاص بالعلوم ، ومنها ما هو خاص بالقانون ، وهكذا فى فترة وجيزة من الزمن رأينا كتبا قد ألفت ، ورسائل قد قدمت ، وعلماء قد تخصصوا لدراسة هذه الحضارة العريقة ، وتصدوا للمقارنه بينها وبين سائر الحضارات القديمة كالسومرية والمصرية واليونانيه . [1]

وقانون حمورابى مكون من مجموعة من المواد تصل الى ٢٨٥ مادة : قد قسمت ونظمت باعتبار الموضوع لا باعتبار العقوبه ، والترتيب الذى دونت به تلك اللوائح يعتبر ترتيبا علميا دقيقا فهو لا يكاد يقل عن ترتيب أى قانون فى أرقى الدول الحديثه فضلا عما عرف من قوانين الدول القديمة : فهناك قسم خاص بالاملاك المنقولة ، وقسم آخر يختص بالاملاك العقاريه ، وقسم

---

[1] من هؤلاء العلماء الاستاذ *jacque pirenne* فى كتابه *civilisations antiques*

ثالث يتناول التجارة والصناعة ، ورابع يختص بشئون الاسرة وما يتفرع عنها كالزواج ، والتبنى ، والارث : وهناك قسم خامس يختص بالاضرار الجسمية . وأخيراً القسم الذى يدور حول العمل وما يترتب عليه من صلة بين المالك والاجير . وإذا كنا نسمع الآن بأن أعرق الامم حضارة فى العصر الحديث قد بدأ ينادى بمبدأ التأميم فى الصناعات وفى المهن الحرة ، فأننا نستطيع أن نجد صدى هذا المبدأ يتردد فى قانون حمورابى ؛ إذ أن الدولة كانت تفرض على الاطباء معالجة بعض المرضى بأجور لا تكاد تذكر [1] .

من ذلك نرى أن شئون المجتمع كله لم تغب عن نظر المشرع لهذا القانون فهو من ناحية يدل على عقلية مثقفة منظمة ، ومن ناحية أخرى يدل على مجتمع ذى حضارة واسعة ، وإدارة قوية ، ورعاية شاملة ، وسلطان مستتب ونفوذ كامل .

ولو نظرنا إلى هذا القانون نظرة تحليلية لامكننا أن نلمس فيه تطوراً فى العقلية البابلية وفى المجتمع البابلى على السواء : فبينا نجد قسما كبيراً منه يعتمد على الدين الخالص وتحكيم الآلهة بين المتخاصمين شأن الشعوب البدائية التى لا تستطيع أن تفكر فى وضع حدود بينة منظمة لحسم النزاع فى الاسرة أو فى المجتمع ، إذا بنا نرى قسما آخر من القانون يعتبر بحق من أرقى التشريعات الإنسانية وأعظمها استنارة واستيعابا . وهذا بلا شك قد جعل قانون حمورابى مزيجا من إجراءات قضائية محكمة ومن أفظع العقوبات وأشدها وحشية . ولعل من أهم المبادىء فى قانون حمورابى هو مبدأ « النفس بالنفس » وقد جاء هذا المبدأ مفصلا فى التوراة ، وتناولته كذلك الآية القرآنية

---

[1] قصة الحضارة ـ الجزء الثانى ـ الشرق الادنى ـ الباب التاسع صـ ٢٥٢

الكريمة ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ... الخ ، ومن أمثلة التحكيم الآلهى هو أن يلقى بالمتهم فى الماء أو فى النار ويوكل أمره الى الآلهة فإن كان بريئاً أعانته الآلهه على النجاة ، وإن كان مذنباً تخلت عنه فهلك غرقاً أو حرقاً . ولعل من آثار ذلك ما تشير إليه قصة ابراهيم فى القرآن الكريم حينما حطم أصنام قومه فاتهموه بذلك وألقوا به فيها ولكنها كانت عليه برداً وسلاما .

ولعلنا لا نتجاوز موضوع درسنا كثيراً حينما نذكر أثر هذا القانون على التشريعات الاخرى قديمها وحديثها ، فذلك يدل على قوته واحكامه ، ويشير الى مبلغ صلاحيته لمختلف الشعوب والبيئات ؛ ولكن ينبغى ألا نبالغ فى هذا الاثر ، بل ندرسه ونتفهمه فى شىء من الحيطة والحذر ، فنحن لا نذهب إلى القول بأن هذا القانون قد نسخ كله أو بعضه ونقل من بابل الى البيئات الاخرى كبيئة العرب ، أو بيئة الكنعانيين ؛ أو بيئة اليونان ؛ أو بيئة الروم . ولكن مما لا شك فيه أن هذا القانون قد عرف فى كثير من هذه البيئات ؛ وسمع الناس عن بعض مواده ومبادئه ؛ وفهمت روحه ومراميه فأصبح بمثابة المصدر الذى يلهم المشرعين ورجال القانون ؛ وفى هذه الدائرة فقط نتناول أثر قانون حمورابى فيما عرف من تشريعات فى البيئات الاخرى .

عرف قانون حمورابى فى بيئة الحجاز ؛ ثم بيئة اليمن ؛ وقد كان ذلك عن طريقين : أولا عن طريق الصلات المتبادلة دائما بين عرب شبه الجزيرة العربية وأخوانهم الساميين فى وادى دجلة والفرات . ثانيا عن طريق البابليين أنفسهم الذين نزحوا من بابل حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ؛ على أثر سقوط دولة حمورابى ؛ وتعرضها للكثير من عسف المغيرين وتخريبهم لمظاهر

الحضارة فى طول البلاد وعرضها .

والذى يحدث فى مثل هذه الهجرات السياسية أن يكون أغلب المهاجرين من الطبقة المثقفة سواء أكان ذلك من ناحية العلم أم من ناحية الادب أم من ناحية الدين ، ولا تزال الأحداث السياسية التى تنتاب الأمم فى هذه العصور ترينا صورة مما كان يحدث فى الماضى حينما تغزو أمة مملكة أمة أخرى . فعلماء الألمان الذين تركوا بلادهم أثناء الحروب ، ووجدوا فى الولايات المتحدة وفى روسيا حماية ومقرا قد استطاعوا أن ينهضوا بكثير من العبء فى حضارة ورقى هاتين البيئتين من الناحية العلمية ، والأدبية ، بل ومن الناحية الصناعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والعمرانية . ولقد رأينا فى أثناء هذه الحرب العالمية الأخيرة كيف كانت الدول تتسابق وتتنافس فى البحث عن هؤلاء العلماء وفى الترحيب بهم والعناية بشأنهم حتى يتسنى لهم البحث ، والانتاج ، والابتكار .

وقد عرفنا كذلك قديما كيف كانت روما تفتح أبوابها للمهاجرين من علماء اليونانيين وأدبائهم وفلاسفتهم ، وكيف كان هؤلاء جميعا النواة الأولى للثقافة اللاتينية والحضارة الرومانية الواسعة العظيمة التى تأسست فى روما ثم استطاعت فيما بعد أن تنشر ألويتها على كل حوض البحر الأبيض المتوسط وفى كل البلاد المعروفة فى العالم القديم . من هذا نستطيع أن ندرك فى سهولة مكانة أولئك المهاجرين البابليين فى المجتمع من الناحية الثقافية ، ولا نجد كذلك صعوبة فى إدراك ما يمكن أن يكون لهم من أثر فى البيئات الجديدة التى يتخذونها موطنا ومقرا .

عمـــالقة العـــراق

مبدأ التحكيم الالهى :-

إذن فقد نزح فريق من البابليين إلى الجنوب طلبا للحياة الهادئة أو فرارا من قسوة المغيرين التى كثيرا ما كانت تأخذ شكلا وحشيا عند الفاتحين فى العصور القديمة . استقر فريق من هؤلاء البابليين فى بلاد الحجاز ، واستمر فريق آخر يوالى السير حتى وصل إلى بلاد اليمن , وفى كلتا البيئتين قد تكونت جالية عظيمة من هؤلاء المهاجرين الذين أطلق عليهم فى بعض الأحيان « عمالقة العراق » . ونحن لا نستطيع أن نتصور هجرة من هذا النوع ، يقوم بها أناس تلك مكانتهم من الثقافة والمعرفة ، ثم يستقرون مدة طويلة فى بيئة أخرى أقل ثقافة وعلما دون أن يتركوا فيها طابعا قويا وأثرا عميقاً ، فقد عرف عند العرب قديما قانون « النفس بالنفس » ، وكذلك عرف عنهم فى كثير من الأحيان مبدا التحكيم الإلهى وقد أشار إليه القرآن الكريم كما تقدم الكلام على ذلك ، ولا نزال نرى آثار هذا المبدأ فى طبائع البدو المنعزلين الذين يعيشون عيشة لا تكاد تختلف فى شىء عن حياة البادية فى عهودها الأولى . وإن العقل ليدهش أمام بعض النتائج التى تبدو للعيان من وراء هذا المبدأ ، ومن جراء ذلك التحكيم ، وإن العلم ليقف حائرا فى تعليل هذه النتائج التى لا تمهد لها المقدمات . [1]

---

[1] من ذلك ما يعرف « بالبشعه » وهى طريقة متبعة عند بعض البدو لمعرفة حقيقة المتهم ان كان بريئا أو مذنبا وقد سمعنا من ثقات مرارا أن هذه التجربه قد أثبتت براءة بعض المتهمين بعد أن أقدموا على عملية من أقسى العمليات وأخوفها =

أما معرفة العبرانيين بقانون حمورابى فقد كان عن طريق جالية بابلية أخرى قد استقرت فى منطقة مدين الواقعة فى الشرق من بلاد الشام ، ويقال إن هذه الجالية قد جاءت من عمالقة العراق فى اليمن عن طريق التجار اليمنيين الذين ينقلون تجارتهم الى بلاد الشام ، واستقرت فى هذه البيئة بعد أن وجدت فيها الشروط المواتية للحياة وللعمل والاستقرار .

الكاهن (يثرو رعوئيل)

وعرف من بين هؤلاء البابليين فيما بعد كاهن اشتهر باسم « يثرو رعوئيل » استمر هذا الكاهن يمثل بقية من حضارة البابليين فى هذه المنطقة الصحراوية التى كانت فى شبه عزلة اجتماعية حتى وفد اليه موسى من مصر .

وهنا يحدثنا القرآن الكريم عن نشأة موسى فى مصر ، وما كان بينه وبين المصريين من خصومة دفعته الى أن ينتصر لواحد من شيعته ويقضى على خصمه المصرى . ولم ير موسى بدآ بعد الذى صنع من أن يفر من مصر

وهكذا يستمر فى سيره حتى يصل إلى منطقة مدين ؛ وهناك يجد بنات « يثرو رعوئيل » يقمن برعاية غنم الحرم فيظهر من القوة والمروءة والامانة مايحبب فيه الكاهن وبناته ، ثم ينتهى الامر بأن يتزوج صغرى بنات هذا الشيخ الكبير وكانت تسمى (صبوره) .

= ذلك انهم لعقوا مراراً قطعة من المعدن حميت بالنار حتى صارت كالجمر حرارة ووهجا ؛ ومع ذلك لم يصابوا بأذى .

تعاليم موسى وشريعته

ومن تلك اللحظة ينشأ موسى نشأة خاصة فى احضان تلك البيئة المقدسة وفى رعاية ذلك الكاهن الذى كان يقيم شعائر دينه على نظام البابليين . ولقد كان لهذه النشأة بلا شك اثرها فيما عرف من تعاليم موسى ، كقصة الخلق الاولى ، قصة الطوفان ، وما جاء فى مزامير التوراة من حكم ، ومعارف ، واناشيد ، ثم ما جاء فى احكامه من قانون النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والسن بالسن [1]

ولقد تصدى لتحليل تلك التعاليم ومبلغ اثر القوانين البابلية فيها كثير من علماء الغرب ؛ ولم يجدوا كبير عناء فى إبراز ذلك الاثر بعد ان اكتشف قانون حمورابى فى اوائل القرن العشرين الميلادى ؛ وعقدت الصلة بين حضارة الدولة البابلية وتاريخ موسى من حيث النشأة ؛ والتربية ؛ والتعاليم .

انتشرت شريعة موسى وتعاليمه بسرعة فى كل البيئة الكنعانية التى كانت تشتمل إذ ذاك على سوريا ؛ وفينيقيا ؛ وفلسطين وما جاور ذلك شرقا وجنوبا من البيئات الآهلة بالسكان فى وسط الصحراء الممتدة فى تلك الجهات .

---

[1] لتفصيل ذلك انظر العدد الخامس من مجلة الهلال فى سنتها الثالثة عشرة ؛ ثم انظر الجزء الاول من كتاب - تاريخ آداب اللغة العربية للاستاذ جورجى زيدان ص ٢٣ ٢٤ ؛ ٢٥ الطبعة الثالثة ؛ حيث يلخص فيه فصلا طويلا كتبه فى هذا الموضوع الباحث نيلسن - فى كتابه الالمانى - *die altarabische mondreligion* عبادة القمر عند العرب وشريعة موسى ؛ ثم انظر اخيراً - العرب قبل الاسلام ص ١١١ ؛ للأستاذ جورجى زيدان .

انتقال اثر قانون حمورابى إلى اليونان

وإذا كان من المسلم به ان اليونان كانوا فى تلك الاثناء على صلة مستمرة ببلاد الكنعانيين ؛ سواء بواسطة الفينيقيين الذين يجوبون موانىء البحر الابيض المتوسط من اقصاه الى اقصاه ناقلين بضاعتهم ؛ ومستبدلين بها بعض المواد الاولية من اوروبا وافريقيا ؛ او بواسطة التجار اليونانيين انفسهم الذين كانوا يجيئون الى بلاد الكنعانيين يوزعون فى اسواقهم ما يحملونه معهم من مواد اولية ؛ ثم يتزودون بما كان فى تلك الاسواق من مصنوعات ومنتجات ؛ نقول اذا كان هذا من المسلم به فلا غرابة اذن ان تصل تعاليم موسى الى بيئة اليونان عن طريق اولئك التجار ؛ الذين كانوا ينقلون ضمن ماينقلون من بضائع كثيراً من المعارف ؛ والاساطير وكثيراً من الاخلاق والعادات ؛ وكثيراً من الديانات والمعتقدات .

وها نحن اولاء حتى الآن لا نزال نرى ان التبادل التجارى يصحبه دائماً تبادل فى المعارف والافكار ؛ ثم فى الانظمة والقوانين . حتى ان كثيراً من الباحثين ليذهب الى القول بأن التبادل التجارى اهم وسيلة للتبادل الثقافى قديماً ؛ إذ به يتم الاتصال المباشر ، والاقامة الطويلة ؛ والاختلاط الكامل .

ويمكننا على ضوء التاريخ وما أثبته الكشف الحديث فى الشرق الادنى أن نؤكد أن اليونان عن طريق صلتهم بالفينيقيين والعبرانيين قد اعتمدوا إلى حد بعيد على تعاليم الشرق ، وقوانين الشرق فى تأسيس حضارتهم الأولى إذ لم يكن عن طريق المصادفة أن تنشأ الحضارة اليونانية أول ما تنشأ فى خلال القرن الحادى عشر والقرن العاشر قبل الميلاد ، وذلك بعد أن تأسست شريعة موسى وتكونت حضارة العبرانيين بنحو ثلاثة قرون ، حينما

كانت صلة اليونان بالفينيقيين والعبرانيين على أشدها . وينبغى ألا يغيب عنا أيضاً أن العناصر اليونانية الأولى ، التى مهدت لتلك الحضارة اليونانية الواسعة كانت أما عناصر يونانية قد هجرت شبه الجزيرة الإغريقية وأقامت فى آسيا وإما عناصر قد اتصلت على الأقل بتلك البيئات الاسيوية التى كانت مهدا للمعارف والثقافات الشرقية . وسنرى بعد قليل مدى أثر تلك المعارف الشرقية عند أوائل العلماء ، والادباء ، والشعراء والمشرعين من رجال اليونان وذلك بفضل الدراسات التاريخية والمقارنة التى تناولت هذه الحضارات القديمة فى نشأتها ، وفى تطورها ، وفى مظاهرها .

ليس من هدفنا الآن أن نتناول كل مظاهر حضارة الشرق من دينية ، وفلسفية وتشريعية ، وطبية ، وفلكية فنبين كيف انتقلت أولا من بابل إلى البيئة الكنعانية ثم من هذه البيئة إلى بلاد اليونان ، فذلك له موضع آخر ، ولكننا بصدد مظهر واحد من مظاهر تلك الحضارة البابلية ؛ ذلك المظهر هو قانون حمورابى . لقد اعترف كثير من المشرعين وعلماء القانون فى الغرب بما لشريعة موسى من أثر واضح فى قوانين سولون - *solon* ، أكبر مشرع عند اليونان قديماً ؛ لقد كانت قوانينه بمثابة أساس للقانون الرومانى فى بعض اتجاهاته [1] . وعلى القانونين اليونانى والرومانى نشأت القوانين الحديثة فى العالم الغربى ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما ثبت لدى الباحثين حديثاً من أثر قانون حمورابى فى شريعة موسى وتعاليمه القانونية فإنه يظهر لنا فى جلاء كيف انتقل قانون حمورابى عن طريق غير مباشر أولا إلى القانون اليونانى ثم إلى القانون الرومانى . وهنا يجب ألا نبالغ أيضاً فى هذا الأثر

---

[1] انظر : *page 13-histoire de la litterature latine par j.humbert*

فننسى أثر كل بيئة طبيعياً واجتماعيا فيما نشأ فيها من قوانين ، إذ أن كثيراً منها كان يستلهم البيئة نفسها فيستمد بعض مواده مما فيها من أخلاق ، وعادات ، وطباع ؛ ولقد شوهد ذلك واضحا فى دراسة القوانين القديمه ؛ وحتى فى التشريعات الدينية لم يلاحظ على القوانين أنها تجردت تماماً عن طبيعة البيئة التى نزلت فيها بل اعتمدت عليها واستمدت منها ما يصلح لبناء المجتمع الجديد ثم أضافت اليه ما يقوم ذلك المجتمع .

واذا كنا فيما مضى قد أجملنا الكلام عن حضارة بابل فى الحديث عن أثرين اثنين من آثارها ، هما مكتبة (وركاء) وقانون (حمورابى) فان ذلك ينبغى ألا يصرفنا عن الاشارة الى بعض العناصر الأساسيـــة فى تلك الحضارة لكى تكون الصورة التى نأخذها عنها واضحة المعالم ؛ بينة السمات منسجمة الألوان ؛ ولكى نستطيع كذلك أن نتبين من خلال تلك العناصر أثر مجهود البابليين أنفسهم فيما ورثوه عن أسلافهم السومريين ؛ وفيما أضافوه الى ذلك التراث من دين أو أدب ، وعلم ، وفن . وبهذه الطريقة يسهل على الباحث أن يلاحظ ظاهرة النمو والتطور فى عناصر الحضارة ، ويلاحظ كذلك مدى أثر القديم فيما يحدث ويستجد ، ثم يستطيع أخيراً أن يدرك مصدراً من أهم المصادر التى استقى العرب قديمـــاً منها معارفهم ؛ وأن يعلل فى يسر ما أشرنا اليه فى مقدمة هذا البحث : لماذ نجد أنفسنا فى حاجة إلى دراسة الحضارات المتعاقبة فى بيئة العراق .

بعض العناصر الأساسية فى تلك الحضارة

١ ـ من الناحية الدينية :

ورث البابليون عن السومريين ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، ديانة لها تقاليدها ومراسمها ، وأنظمتها ومعابدها ، ولكنهم لم يقنعوا بما كان فى ذلك التراث الدينى من بساطة ، وسطحية فأخذ رجال الدين منهم يتأملون فيما لديهم من معتقدات ويحاولون الملاءمة بينها وبين مصالح الشعب حتى استطاعوا أن يجعلوا من تلك العقيدة رقيباً على الأفراد فى معاملتهم لأنفسهم ولذويهم وللناس . الآخرين على السواء ، وبهذا قد تمكن الكهنة من بسط النفوذ الدينى والسيطرة الكاملة على النفوس بفضل ما كانوا يؤكدونه من رغبة ورهبة : رغبة فى حسن جزاء الآلهة لمن يخلص فى عمله ويدين بالطاعة للرؤساء ؛ ورهبة من هول العقاب لمن يتهاون أو يتمرد أو يحاول العبث بحقوق الآلهة أو واجبات الدولة والأفراد ، على هذا الأساس تطورت العقيدة وعمت تعاليمها وكثرت الآلهة ؛ وعلى هذا الأساس أيضا توحد المجتمع ، وتحددت أهدافه ، وساد فيه النظام ، وعلى هذا الأساس أخيراً كان سلطان الدين والكهنة أقوى وأعظم من سلطان الملك والدولة فكان الملك لا يعترف به إلا إذا خلع عليه الكهنة ولاية الملك وكان ينظر اليه كوكيل ينفذ إرادة الآلهة وكان للكهنة نفوذ عظيم فى تصريف أمور الدولة وفى فض النزاع بين المتخاصمين فوجد فيهم القضاة ، والأدباء ، والعلماء ، ورجال القانون . ونظرة فاحصة فى ديانة البابليين ترينا عقيدة قوية مهذبة منظمة ، ولقد كانت هذه العقيدة فى آلهتها ؛ وفى نظمها ، وفى أساطيرها مصدر الكثير من العقائد الوثنية فى الأمم القديمة وعلى الخصوص الأمة العربية ، وكثيراً ما امتدحها

اليونانيون واللاتنيون وشادوا بها فى سبيل المقارنة بينها وبين ديانة المصريين الذين كانوا على حد تعبيرهم يعبدون أنواعاً مختلفة من الحيوان ؛ والطير ، والنبات . وأشهر الأساطير الدينية عند البابليين هى قصة الطوفان ؛ ثم قصة الخلق الأولى للعالم وما فى ذلك من تاريخ الانسان منذ عهوده الأولى .

٢ - من الناحية الأدبية :

ثم أننا لو تجاوزنا الناحية الدينية وذهبنا إلى الناحية الأدبية بمعناها الضيق لوجدنا لديهم كثيراً من الشعر الدينى لا يكاد يقل فى موضوعه ، لا فى كميته ، عن الشعر الدينى عند اليونان أو الروم ، وكذلك نجد لديهم كثيراً من القصص المنظومة على ألسنة الحيوانات تكاد تشبه ما نراه منثوراً فى كتاب كليلة ودمنة ، وهنا ينبغى أن ندخل فى حسابنا على الاقل حينما ندرس أصل هذا النوع الادبى - نقد المجتمع على ألسنة الطيور والحيوانات نقول ، ينبغى أن ندخل فى حسابنا الحضارة البابلية ؛ إذ أن كثيراً من الباحثين فى العصر الحديث قد اتجه فى درسه لهذا النوع الأدبى إلى افتراض أن البيئة الأولى لهذا الأدب إنما هى الهند وقد ذهب الفرس إلى الهنود لترجمة هذا الأدب من الهندية إلى الفارسية ومن ذلك إلى العربية [1]

ولم نجد ، فيما قرأنا ، واحداً من الأدباء أو النقاد قد حاول أن يتلمس أصل هذا الأدب فى بيئة بابل . وإذا كان الأمر كذلك فأننا نرجح أن أصل هذا الأدب انما هى الآداب البابلية فالقرب بين البيئتين (بابل وفارس) واضح ، والتشابه بين الظاهرتين الأدبيتين ملموس ، وعلى هذا فانتاج الفرس

---

[1] انظر مقدمة الدكتور عبد الوهاب عزام على كتاب كليلة ودمنة .

فى هذا الأدب إن هو الا امتداد لانتاج البابليين ؛ ثم عن الفرس انتقل هذا النوع الأدبى الى اليونانيين بفضل إيزوب - *esope* ، الذى كان أسيراً من الأسرى الشرقيين الذين عاشوا فى بيئة اليونان ؛ وعن اليونانيين انتقل هذا الأدب الى الرومانيين بفضل الاديب فيدر - *fedre* ، الذى كان تلميذاً لليونانيين ومن أصل يونانى ثم عاش فى روما وألف مجموعة أساطيره المنظومة على السنة الطيور والحيوانات ؛ وعن هذين المصدرين - إيزوب عند اليونانيين وفيدر عند الرومانيين - استقى الاديب الفرنسى لافونتين *la fontaine* قصصه الادبية المجموعة تحت هذا العنوان : *fables de la fontaine*

وهذا موضوع للبحث طويل ، نكتفى منه بهذه الاشارات العابرة والنقط الاساسية ، ونترك التفصيل فيه لباحث مستقل ، أو لأديب ناقد أو لطالب يتخذه موضوعا لرسالة يبين فيها متى ، وكيف ، وأين نشأ هذا النوع الادبى ؛ ثم يتتبعه فى البيئات الاخرى متناولا مظاهر التطور وعوامل ذلك التطور فيه .

ولقد عرف عند البابليين كذلك بعض المسرحيات التى كانت تمثل فى بعض الطقوس الدينية ؛ إما لاحياء ذكرى الآلهة ، واستحضارهم فى صور واقعية ملموسة ؛ واما لتصوير الرحمة والجبروت عندهم فيتم لهم من وراء ذلك الدعوة إلى الرغبة فيهم والرهبة منهم .

وهذه المسرحيات تشبه إلى حد كبير مسرحيات اليونان فى نشأتها الأولى يوم كانت تقوم حول المعتقدات الدينية لخدمة الآلهة أو لتصوير أحداثهم ومآثرهم [1]

---

[1] - نشأت المسرحيات بأنواعها : الدرامه ، والتراجيدى ، والكوميدى حول =

ولعل أهم أثر أدبى عند البابليين هو تلك الملحمة التى ذاع صيتها وتحدث عنها كثير من الأدباء والباحثين وعرفت باسم ملحمة (جلجميش)

هذه الملحمة ، بالرغم مما يبدو من اضطراب فى تأليف أجزائها ، تعتبر بداية طيبة لما ظهر عند اليونان من شعر قصصى عظيم ، إذ أنها تحتوى على العناصر الهامة التى تميز الملاحم عن غيرها من الأنواع الأدبية كالخيال الواسع ، والحوادث الخارقة للطبيعة ، وإشراك الآلهة مع الانسان فى التكوين أو فى الصراع ، أو فى الأخلاق ، أو فى الطباع ، أو فى الغرائز الجنسية ، أو فى غير هذا وذاك مما ألفنا وجوده فى الياذة هوميروس أو فى ملحمته الأخرى المعروفة بالأوديسا ، أو فى اينياده فيرجيل عند اللاتينيين ؛ إذ أن هندسة التأليف أو بناء الملحمة فى كل ذلك يكاد يكون واحداً وإن اختلف الموضوع ، وتباينت فى الظاهر الأهداف . ولنجمل الآن الكلام عن ملحمة جلجميش فيما يأتى تاركين التفصيل للترجمة الكاملة لما عثر عليه منها فى قصة الحضارة ، الجزء الثانى ، الفصل الخاص ببابل ، ترجمة الأستاذ بدران : تنسب هذه الملحمة الى جلجميش ، حاكم مدينة أروك ، وهو من نسل الآله شمش - نيشتين الذى قد نجا من الطوفان فى نظر الأساطير القديمة ؛ وتصف الملحمة هذه الشخصية وصفاً خارقا لطبائع الناس

= الفكرة الدينية والعقيدة الخاصة بالاله ديونيزوس - sosyuoip ، إله الخمر عند اليونانيين ؛ وكان نشأة ذلك فى خلال القرن السابع والسادس قبل الميلاد ولو أردنا أن نبحث عن ذكر أسماء بعض المسرحيات فى ذلك الزمن فأننا نجد منها : *les prêtres, les jeux funébres de pelias, les jeunes gens* ، وقد كانت هذه المسرحيات عبارة عن تمثيليات ساذجة تبين روح التهكم والسخرية ، اوشعور الحزن والأسى ، أوأحساس الفرح والطرب ؛ وأول من نهض بهذا الفن الشعرى هو *thespis* وقد عاش فى القرن السادس ق.م

من حيث جمال الخلقة ، وعظم الجسم ، ونفاذ البصيرة ، وإدراك الأسرار. ثم يستبد هذا الحاكم بأفراد مملكته استبدادا عظيما إذ يسخر الرجال فى بناء الأسوار ، ويغدر بالزوجات والفتيات فيشكوه الشعب إلى الآلهة إشتار فتدخل هذه الآلهة فى مساعدة الشعب ضد هذا الحاكم الظالم وتستعين بكثير من الوسائل كى تتغلب عليه فتذهب إلى أرورو ، وهى عرابة جلجميش ثم ترجوها فى خلق ولد آخر يشغل جلجميش ، فتصور العرابة انجيدو من الطين . ينشأ انجيدو هذا نشأة غريبة إذ يعتزل الأنسان ويعاشر الحيوان وكأنه واحد من الحيوانات ؛ فيحتال صائد على صيده حتى يمكن لسكان المدينه أن يتغلبوا بواسطته على جلجميش ولكن الصياد لا يفلح فيتوسل إلى جلجميش كى يعيره كاهنة تستطيع بجمالها واغرائها أن تصطاد انجيدو . تنجح الكاهنة فى اغرائها فتوقع أنجيدو فى شرك حبها ويستمر معها سبعة أيام معتزلا كل أنواع الحيوانات وبعد أن يفيق من سكر اللذة مع الكاهنة يأخذ فى الندم على مفارقة أصدقائه الحيوانات ولكن الكاهنة له بالمرصاد فتزجره على هذه الحياة فى وسط الوحوش وتغريه بالذهاب إلى أروك ومخالطة جلجميش حاكم المدينة فيخضع انجيدو لمشيئتها ويعود معها إلى المدينة وهنا تسر الآلهة وأفراد الشعب بما صنعته الكاهنه ويقدم انجيدو مؤملين أن يتغلب على الحاكم المستبد جلجميش ؛ ولكن هذا الاخير ينتصر بقوته على انجيدو ثم يتخذه صديقاً له . وهنا نجد الآلهه إشتار تظهر مرة أخرى على مسرح الملحمه فتقع فى حب جلجميش الذى عجز انجيدو عن هزيمته ؛ ولكن جلجميش يرفض حبها وإغراءها فتتوعده وتنذره بعد أن تعده وتمنيه ولكنه يقابل كل ذلك بالرفض ؛ فتذهب إشتار وهى محنقة الى الاله الاعظم - أنو - وتتوسل اليه بأن يخلق وحشاً قوياً يصرع جلجميش يرفض الاله طلبها ويؤنبها عليه ولكنها تصر على ذلك وتتوعد الاله - أنو -

إن هو لم يخضع لارادتها . وأخيراً يجيب الاله طلبها ويخلق الوحش ولكن جلجميش يتغلب على ذلك الوحش بمعاونة أنجيدو .

يغيظ ذلك إشتار وتدرك السبب فى هزيمة الوحش وهى قوة أنجيدو فتنقلب بجبروتها ضد أنجيدو وتسلط عليه مرضاً يصرعه . وهنا يحزن جلجميش ويبلغ منه الحزن كل مبلغ فيأخذ فى التفكير فى سر الخلود ؛ولا يجد وسيلة لأدراك سر الخلود الا بواسطة الاله شمش - ينشتيم فيأخذ الطريق اليه ويصارع الطبيعه والمردة أياماً ،وليالى حتى يصل الى ذلك الاله ويطلب منه سر الخلود فيعطيه نبتـه ثمرها يجدد الشباب . يسر جلجميش بتلك النبتـه ويأخذ طريق العودة الى أروك وبينما هو يستحم أثناء العودة اذ جاءت أفعى وسرقت النبته .

يعود جلجميش اذن الى أروك حزيناً يائساً ولكنه يلجأ الى الآلهه مرة أخرى فيطوف بالهياكل ويقيم الصلوات متوسلا الى الآلهه ان يعيدوا الحياة الى انجيدو لكى يستطيع ان يتحدث اليه ولو بكلمه واحدة . تقبل الآلهه دعواته وتبعث الحياة فى انجيدو فيتوجه اليـــه جلجميش بالسؤال عن حال الموتى . يرفض انجيدو اول الامر الاجابة عن هذا السؤال رحمة بجلجميش وخوفا عليه مما يصيبه من الفزع والرعب ولكن جلجميش يصر على هذا ولو كان فى ذلك حتفه فيأخذ انجيدو فى وصف الجحيم وما تشتمل عليه من اهوال .

وهنا بهذا الوصف الرهيب يقف سير الملحمه .

٣ من الناحية العلمية

أما من الناحية العلمية فقد ظهرت عندهم مبادىء قوية لكثير من العلوم التى نعرفها اليوم فقد عرف لديهم التاريخ ووجد كثير من الألواح البابلية التى تقص أحداث العالم ، والمدن والملوك ، ويشبه هذا ما نجده من قصص

تاريخى فى الكتب المقدسة عند اليهود والمسيحيين ؛ وإن الحيرة لتملك على المطلع نفسه حينما يقرأ ما جاء فى تلك الألواح وما دون فى هذه الكتب المقدسة ولكنه ينتهى إلى أحد أمرين : إما أن تكون هذه الكتب قد استقت معارفها من تلك الألواح ، وإما أن يكون الكل قد استقى معارفه من مصدر واحد ، وفيما عدا التاريخ قد وجد لديهم كذلك ما يعرف بالعلوم اللسانية التى تهتم باللغة ، وتحاول أن ترسم لها حدوداً وتصنع لها ضوابط وتنظم فيها وسائل التعبير الشعرى والأدبى إذ أنه قد عرف لديهم من ذلك علم اللغة ، والنحو ؛ والصرف وقد اضطرتهم ظروف المجتمع وطبيعة اللغة نفسها إلى التفكير والتدوين فى هذه العلوم الثلاثة . إذ أنها كانت الوسيلة الوحيدة لمعرفة اللغة الفصحى التى تدون بها كل الآثار العلمية ، وتقام بها الطقوس الدينية ، وتنظم بها الأشعار ؛ وتسجل بها القوانين ، وتكتب بها الرسائل ، وتقيد بها الأفكار الأدبية .

علم الطب

ولقد كان ضمن ما عرف عندهم كذلك علم الطب الذى كان فى أول عهدهم به بسيطاً ، سطحياً محدوداً ساذجاً يعتمد على التمائم والرقى ويكاد يكون من عمل الكهنة وحدهم ، ولكنه بمضى الزمن قد استطاع هذا العلم أن يخرج من حظيرة المعابد والهياكل ومن سلطان الكهنة ورجال الدين ثم يأخذ له ميداناً مستقلا فتنشأ مهنة الطب يشرف عليها أطباء قد تخصصوا فى معرفة هذا العلم وعاشوا من ممارستهم له ويتضح ذلك مما وجد فى قانون حمورابى من لوائح تنظم صلة المريض بالطبيب وتفرض أجراً خاصا على كل نوع من العلاج أو على كل عملية من العمليات الجراحية ، كما نجد شبيها لذلك عند الامم المتحضرة المعاصرة . وإذا كان فهمهم لمصدر الداء هو اختلاط أجسام روحانية شريرة بأجسام البشر ، وعدم

الملاءمة بين هذين النوعين ، الا أن تفكيرهم فى العلاج وفى تركيب الدواء لا يكاد يختلف عن مبادىء حكماء اليونانيين وأطبائهم ؛ الذين نادوا بهذا القول : كل داء يعالج بنبات أرضه . وما نادى به اليونانيون لا نزال نراه مطبقا الى حد ما حتى الآن . وهكذا كان أطباء البابليين يبحثون عن الدواء فى أعشاب أرضهم ، وحيواناتهم ؛ فهم وان أخطؤا التقدير فى مصدر الداء فقد أصابوا فى اتجاههم نحو تركيب الدواء .

علم الفلك

ولعل أهم العلوم البابلية على الاطلاق هو علم الفلك فقد بلغ عندهم درجة لا تقل عن درجة هذا العلم فى مصر الفرعونية ؛ وها هو ذا العالم الحديث لا يزال يدين للبابليين بكثير من الأسس والقواعد التى وصلوا هم اليها . ولقد علل اليونانيون واللاتينيون تقدم هذا العلم عند البابليين بطبيعة البيئة والمناخ فى تلك المنطقة، ولكن مهما يكن من شىء فأن ذلك لا يقلل من مجهود البابليين وفضلهم فى الوصول الى معرفة كثير من النظريات الفلكية التى لا تزال صحيحة ثابته حتى الوقت الحاضر .

ولقد استعانوا على ذلك بواسطة مبادىء بسيطة ورثوها عن السومريين ولكنهم ساروا فى هذا الطريق سيراً حثيثاً ومبكراً فى وقت واحد فاستطاعوا أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة الى الشمس وذلك حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ؛ ثم أنهم درسوا النجوم الثابتة والمتحركة ، ورسموا لها خرائط تبين أماكنها ؛ وطرق سيرها فأمكنهم بذلك تحديد مواقع كثير من الكواكب ؛ ولعلهم قد سبقوا المصريين فى رسم السماء وقد بين عليها كل الابراج الاثنى عشر .

وكان من نتيجة ابحاثهم الفلكية الواسعة أن توصلوا إلى توقيت الزمن فقسموا السنة القمرية إلى اثنى عشر شهراً قمرياً ثم أنهم قد أدركوا الفرق

بين السنة القمرية وبين الدورة الحقيقية لمدار الشمس التى تنتج عنها الفصول الأربعة ، إذ أنهم كانوا يقدرون ستة أشهر من السنة القمرية يتكون كل منها من ٣٠ يوماً ؛ والستة الأخرى يتكون كل منها من ٢٩ يوماً .

نقول حينما أدركوا هذا الفرق اصطلحوا على اضافة شهر لكل مجموعة من السنين حتى يحصل تعادل بين السنة القمرية ودورة الفصول الحقيقية . ولعل ما كان عند العرب قبل الاسلام من طريقة فى التوقيت يرجع فى أصله إلى القاعدة البابلية ، التى نرجح أنها وصلتهم عن طريق البابليين إما بواسطة صلاتهم بهم فى بابل وإما بعد هجرة البابليين أنفسهم واستقرارهم فى شبه الجزيرة العربية .

وإلى هذا تشير الآية الكريمة « انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً » .

أليس ذلك أيضاً صورة لما جرى عليه المصريون قديماً من اضافة أيام الى سنتهم كى يوازنوا بين توقيتهم ودورة الفلك الحقيقية ؟

ثم ما أدخله الرومانون من تعديل أيضاً على السنه الشمسية التى أخذوها عن المصريين حينما أضافوا يوماً الى كل أربع سنوات : أليست هذه المحاولة شبيهة بما تنبه له البابليون منذ آلاف السنين ؟

ولقد كان من نتيجة أبحاثهم الفلكية أيضاً وملاحظتهم لأوجه القمر الأربعة أن قسموا الشهر الى أربعة أسابيع ، وقسموا اليوم إلى اثنتى عشرة ساعة ، والساعة الى ثلاثين دقيقة ، ولقد اضطرهم هذا الى التفكير فى آلات يقيسون بها الزمن وفق هذا الحساب فاخترعوا لذلك المزولة والساعة المائية .

كل هذا يلقى ضوءاً على تقدم هذا العلم واتساعه عند البابليين ، ويرينا

الى أى حد يجد العالم الحديث نفسه عالة على القدماء فيما فكروا فيه ، وفيما أوجدوه . ثم ان الباحث فى علم الفلك عند البابليين لا يستطيع أن يمضى فى بحثه دون أن يعرج على معارف القدماء من العرب بالنسبة للزمن ، والسماء والنجوم ، والكواكب لكى يقارن بين معارف الشعبين ويدرك الأثر المتبادل بين بيئة البابليين وبيئة العرب .

وهنا يجد الباحث صدى معارف البابليين الفلكية ، التى اندثرت ضمن ما اندثر ، ممثلة عند العرب تمثيلا واضحاً ، لا فى القواعد والمبادىء فحسب ، ولكن فى الأسماء والمصطلحات أيضاً ، فمعرفتهم بالنجوم وسيرها وبالقمر وأوجهه ؛ وبالشمس ومدارها ، وبالبروج الاثنى عشر واسمائها ، وبالسنة القمرية وحسابها ، وبدورة الشمس وعدد أيامها ، وبالفرق بين دورة الشمس والقمر والتوفيق بينها ، كل ذلك يعتبر صورة لما لاحظه البابليون ودروسوه ، واذن فمن العسير أن نلتمس له عند العرب مصدرا آخر غير معارف أقربائهم من الساميين الذين استقروا فى بيئة العراق واستمروا على صلة بهم وقرب منهم ، كما أنه من العسير أيضاً أن نقبل الرأى القائل بنشأة هذا العلم فى البيئة العربية وبأصالته عند العرب أنفسهم ، اذ مهما كان صفاء الجو فى شبه الجزيرة العربية ، ومهما كانت حاجة العرب فى حلهم وترحالهم الى معرفة حالة السماء والمناخ وتغير الأجواء ؛ نقول مهما كانت الضرورة التى تدفع بالعربى لمعرفة ذلك فإن كل ما يمكن تصوره فى مثل هذه البيئة لا يتجاوز بعض المعارف الأولية البسيطة المحدودة التى تلائم حياة العربى ؛ ومعارفه الضئيلة الطبيعية ، وظروفه الاجتماعية ، أما الدراسة الطويلة المتسلسلة المتشعبة التى لا تكتفى بالظواهر تصفها ، وانما تنفذ الى الجوهر تحلله ، وتعلل أعراضه ؛ وتبين أوجه الصلة بين الجوهر والعرض

ثم الاثر المترتب على تلك الصلة بالنسبة لظروف المجتمع وحياة الافراد ، نقول ان الدراسة التى هى من هذا النوع لا يلائمها غير بيئة متحضرة فيها حياة مستقرة ؛ وفيها معاهد للدرس والبحث والتجارب ؛ وفيها وحدة اجتماعية منظمة السياسة محددة الاهداف ؛ وما عهدنا مثل ذلك فى حياة العرب قبل الاسلام ؛ ولكننا عرفناه ممثلا واضحاً فى بيئة السومريين ؛ ثم مهذباً ناضجاً فى بيئة البابليين .

ولعل من أوضح الامثلة التى تدل على تأثر العرب بالبابليين فى علم النجوم هو ما نجده من تشابه بين الشعبين فى الاسماء والمصطلحات والقواعد الخاصة بذلك العلم ؛ من ذلك لفظ - المريخ - فأنه يقابل عند البابليين فى اللفظ وفى المعنى كلمة - مرداخ - ؛ وكذلك كلمة - زحل - عند العرب ، اذ أنها تقابل عند البابليين كلمة - كاون - ، وهى وان اختلفت عنها فى اللفظ الا أن المعنى واحد عند الشعبين ، اذ أن معناه فى اللغتين هو الارتفاع والعلو .

ثم اننا نجد كذلك تشابهاً عظيما فى أسماء الابراج السماوية عند العرب والبابليين على السواء ، وقد ذكر الأستاذ جورجى زيدان قائمة هذه الابراج وما يقابلها عند البابليين أو الكلدانيين [1] فليرجع اليها القارىء وليلاحظ بنفسه مبلغ التشابه بينها ، فى اللفظ وفى المعنى .

---

[1] - تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الاول ص١٦٩ الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٦ ينبغى أن يلاحظ القارىء هنا التسمية التى درج عليها كثير من العلماء والباحثين وهى الكلدانيين - ونظن أن هذه التسمية عند العرب ومؤلفيهم يقصد منها سكان بيئة العراق قديما من سومريين وأكاديين ، وبابليين ، وأشوريين ، إذ أننا لا نجد ما يوافق هذه التسمية تاريخيا ولا علميا . وهناك رأى يثبت أصل الكلدانيين إلى الآراميين =

ولنعد الآن قليلا إلى بابل لنرى ماذا آلت اليه حالها ، وبواسطة أى الهزات العنيفة قد تأثرت حضارتها بعد أن غزت وادى دجلة والفرات ، واستطاعت فيما بعد أن تغزو الجزيرة العربية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ثم تمتد فيما وراء ذلك حتى تستقر فى شواطىء البحر الابيض المتوسط ، بل تتجاوزه إلى الغرب ، ويصل صداها إلى بيئة اليونانيين .

لم يمض على موت حمورابى غير بضع سنين حتى تصدعت مملكة بابل تحت ضغط الكاشيين الذين جاءوا من الشرق يخربون ما يجدونه أمامهم ، ويسلبون ما تقع عليه أيديهم ؛ وكان هؤلاء الكاشيون يعيشون فى منطقة جبلية فى الشرق من بابل ، ويكونون حلقة ضمن سلسلة الشعوب الهندو-أوربية - *indo europeens* ؛ وكان صنيع هذه القبائل شبيها إلى حدما بصنيع الساميين مع السومريين غير أن الساميين كانوا يضعون نصب أعينهم تأسيس مملكة جديدة على أنقاض مملكة قديمة فاحتفظوا بآثار حضارة أسلافهم وأضافوا اليها كثيراً من مجهودهم السياسى والأدبى والفنى ؛ أما الكاشيون فقد كانوا يضعون نصب أعينهم بيئتهم الفارسيه الأولى فحاولوا أن يهدموا تلك المملكة البابلية وينقلوا ما يستطيعون نقله من آثار الحضارة البابلية الى بلادهم وهذا يذكرنا بما كانت تصنعه روما فيما تغزوه من البيئات المثقفه المتحضرة وهكذا نجد مرة أخرى كيف تتشابه أو تتكرر الظواهر الاجتماعيه فى العصور المختلفة وفى البيئات المتباعدة .

= الذين وفدوا إلى جنوب العراق وأسسوا لهم مدينة تسمى كلده فى جنوب مدينة بابل (انظر تاريخ الأدب السريانى من نشأته إلى الفتح الاسلامى للدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدى البكرى - الصفحات الأولى من المقدمة) .

استمر هذا الشعب يعيث فساداً فى مملكة بابل على حساب حضارتها مدة ستة قرون مثل ما صنع الهكسوس فى مصر تماما ؛ ولقد كان من نتيجة هذا الاضطراب أن اندثر كثير من معالم تلك الحضارة ، ووقفت حركة نموها وتقدمها ، ولكن بيئات أخرى قد استطاعت أن تجنى من ثمارها بواسطة العناصر المثقفه التى هجرت بابل وبحثت عن مواطن أخرى يتوفر فيها الهدوء والاستقرار مثل أشور شمالا وبيئة الحجاز واليمن جنوبا . ويدلنا على مبلغ الاضطراب السياسى والاجتماعى فى بابل بعد سقوطها مجموعة من الرسائل وفدت الى مصر حيث يستنجد أهل البلاد الأصليون بمعونة المصريين لكى يتخلصوا من ظلم أولئك الغاصبين .

وقد عثرت فلاحة مصرية على هذه الرسائل فى (تل العمارنة) فألقت بذلك ضوءاً على ما آلت اليه حالة البلاد من الفوضى والاضطراب .

أثر الاشوريين الخاص

ذكرنا فيما مضى أن البابليين والأشوريين يكونون شعباً واحداً من حيث الأصل ، وحضارة واحدة من حيث المبدأ ، واتجاها واحداً من حيث السياسه وأهدافها .

وذلك حق الى حد بعيد ، اذ أنهم ينتمون الى الأصل السامى ، وأنهم نزحوا من موطن واحد ، ثم انهم كذلك استقوا حضارتهم عن مصدر واحد ذلك المصدر هو حضارة السومريين والاكاديين ، فحضارة البابليين والأشوريين لا تعدو أن تكون امتداداً لحضارة السومريين التى نشأت فى جزء كبير من وادى دجلة والفرات ، مع ملاحظة التقدم العظيم الذى نالته على أيدى البابليين والأشوريين ؛ ونستطيع بوجه عام أن نقول أن الأشوريين

AUC - LIBRARY

ساروا فى علومهم ومعارفهم على النهج الذى وضعه البابليون من ناحية السياسة ، والمعتقدات ، والعلوم ، والآداب ، والقوانين ، وترجمة الكتب ، ونسخها ، والمحافظه عليها منظمة مرتبة فى دار خاصة .

ولكننا مع ذلك نستطيع أن نلمس أثراً خاصا للآشوريين أضافوه من عندهم وبمجهودهم الى تلك الحضارة ، ذلك هو تفكيرهم فى أنواع النباتات المختلفه ، وفى انساب الآلهة العديدة ، وذلك يعتبر جديداً على الحضارة البابلية

النبـــاتات

أما النباتات فكان تفكيرهم فى شأنها وليد رغبة أكيدة لاستخدامها فى الطب كوسيلة لعلاج المرضى . ولقد دعاهم ذلك الى معرفتها كلها ، وعمل قوائم بأسمائها ثم اجراء تجارب على كثير منها حتى يمكن الوصول الى مدى الانتفاع بها . ولقد كان ذلك بداية طيبه للتاريخ الطبيعى الذى استغله اليونانيون والرومانيون فيما بعد الى حد كبير ، فاتخذوه موضوعا لأبحاثهم ، وميدانا لتجاربهم ، ومخلفاتهم ، وسنرى بعد ذلك كيف استطاعوا أن يجعلوا منه علما مستقلا منظما ، وكيف استطاعوا أن يوسعوا دائرة معارفهم فى ذلك العلم فلم يقف عند حدود نباتات بيئه بعينها وانما امتدت آفاقه حتى شمل كثيراً من نباتات البيئات الأجنبيه كشمال أفريقيا ومصـــر وآسيا ولعل أهم مثل يضرب لذلك هو ذلك المؤلف الضخم الذى كتبه بلين القديم *pline l'ancien* [1]

---

[1] عاش بلين القديم فى القرن الأول الميلادى (من سنة ٢٣ الى سنة ٧٩ م) وكان له انتاج واسع لم يبق منه الا هذا التاريخ الطبيعى .

وسماه - التاريخ الطبيعى *histoiri a naturalis* ؛ فهو ذائرة معارف لكل النباتات المعروفة قديماً .

أنساب الآلهه

أما أنساب الآلهة والتفكير فى ترتيبها ووضع تاريخ لها فقد دعاهم الى ذلك كثرتها الى درجه يتعذر على الإنسان ادراكها وعلى الذاكرة احصاؤها وهم وإن كانوا قد ورثوا عن البابليين عدداً كبيراً من الآلهة إلا أنهم قد أضافوا اليه كثيرا من آلهتهم الخاصة ، ولكى ندرك السبب فى هذه الكثرة من الآلهة يجب أن نعرف فكرة القدماء عن معنى الألوهية ، فقد كانوا يتصورون ألها أعظم هو سيد الآلهة جميعاً ، ثم إن هذا الإله يوزع السلطان على آلهة أخرى أقل درجة منه ، ثم ان هؤلاء يدخل تحت إشرافهم أنواع أخرى من الآلهة ، وهكذا دواليك حتى يتكون من مجموع الآلهة عالم آخر أقرب شبها إلى العالم الدنيوى المحسوس . ثم إن الأمر فى شأن الآلهة لم يقف عند هذا الحد ، بل كل مدينة كانت تتخذ لها جمعاً من الآلهة يشبه فى نظامه وترتيب مهامه ما يجرى فى المدن الاخرى ، ولذا فقد كانت الآلهة عند القدماء تعد بالآلاف . ولقد أحصى عددهم رسمياً فى القرن التاسع قبل الميلاد فبلغوا فى الدولة البابلية حوالى ٦٥,٠٠٠ [1]

وجد الأشوريون إذن ألا وسيلة لمعرفة هذه الآلهة وتمييزها إلا بتاريخها ودراسة أنسابها ، وكان الآلهة عندهم كانوا يتناسلون كما يتناسل البشر

---

[1] قصة الحضارة ص ٢١٣

ويكونون مجتمعا له نظامه ، ونفوذه ، وسياسته كما كان فى المجتمع الإنسانى وهذه الفكرة فى جوهرها عن العقيدة ، والآلهة بما فى ذلك الصلة بين هذه الآلهة وأفراد المجتمع الإنسانى قد انتقلت إلى اليونانيين ، وعنهم إلى اللاتنيين .

وإن من يدرس تاريخ الديانة اليونانية والرومانية ليدهش مما يراه من تشابه عظيم بين ديانة هذين الشعبين والديانة البابلية ـ الأشورية . وسنرى بعد قليل كيف استأنس اليونانيون بتاريخ أنساب الآلهة عند الأشوريين فكانت لإحدى بواكير حضارتهم ديوانا شعرياً ضخما يحوى أنساب الآلهة للشاعر اليونانى هيزيود *hesiode* ، واسم الديوان هو ـ تيوجونى ـ *la théogonie* [1]

وفيما عدا هذين الأثرين الجديدين نجد أن حضارة الأشوريين فى شمال وادى دجلة والفرات هى عبارة عن امتداد لحضارة البابلين فى الجنوب من دين ، وهندسة ، وطب ، وفلك ، وقانون ، ثم إن نشاطهم فى جمع الكتب ونسخها ، وتأليفها ، والحرص عليها ، والبحث عنها فى مظان وجودها ، ثم فى إنشاء المكتبات ، ووضع نظام لها ، وإدارتها ، وتيسير سبل المعرفة أمام أفراد الشعب وتنمية الذوق فى البحث والاطلاع . وتشجيع العلماء ورجال

---

[1] قد عاش هذا الشاعر فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وهو من يونانيي آسيا ويرجح أنه كان تلميذا للقصاصين فى آسيا ، ويشتمل هذا الديوان على أكثر من ١٠٠٠ بيت من الشعر قدمه بقصة الخلق الأولى ثم تناول تناسل الآلهة ـ انظر ص ٨٧ ـ ١١٨ من كتاب : *litteratur greeque par alfred croiset et maurice croiset*

الفن لا يقل عن نشاط البابليين فى كل ذلك ، فهى سلسلة متصلة الحلقات ورغبة متنقلة من شعب الى آخر فى المحافظة على التراث القديم والعمل ما أمكن على تهذيبه وتنميته ورقيه .

أشور بانيبال

ولعل أشهر ملوكهم فى هذه الناحية هو (أشور بانيبال) الذى كان يستدعى المهندسين والمفتنين من جميع أنحاء مملكته الواسعة ليستعين بهم فى بناء المعابد ، والحصون ، وتخطيط الطرق وإقامة التماثيل ، ثم فى تحسين المدن وإنشاء القصور وتزيينها بالرسوم والنقوش ، وهو فى هذه الدولة يشبه إلى حد بعيد حمورابى فى الدولة البابلية حينما وجه عنايته الخاصه إلى المحافظة على تراث الحضارة السومرية وبذل الجهد فى اعلاء شأن دولته ثقافياً كما أعلاه حربياً وسياسياً .

وتكاد هذه الحركة وذلك النشاط يذكرنا بما كان يصنعه القياصرة فى روما إذ أنهم كانوا ينقلون العلماء والأدباء والصناع والمفتنين ، مختارين كانوا أم مكرهين ، وما كانوا يدخرون فى سبيل ذلك وسعاً ، حتى لقد بلغ بهم الأمر فى فتوحهم وحروبهم أن يعتبروا هذه الفئة المستنيرة فى الممالك التى يغزونها بمثابة أسلاب تنقل مع غنائم الحرب ، كى ينتفع بها فى تأسيس عظمة روما ومجدها العلمى والأدبى والفنى ، وهكذا غدت روما فى آثارها ، وفى حضارتها العلمية ، والأدبية مدينة الى حد بعيد الأجانب ما بين يونانيين وفينيقيين ، ومصريين ، وهكذا تنتقل الحضارة من بيئة الى أخرى ، وتتبادل المعارف من شعب الى آخر ، وهكذا أخيراً يعيد التاريخ نفسه كما يقولون .

والفكرة الأساسية التى نستطيع أن نستخلصها من كل ذلك هو أن الحضارة إذا نبتت وأينعت فى بيئة من البيئات ليس من السهل أن يقضى عليها فى يوم وليلة كما يقضى على السياسة أو نظام الحكم بل تبقى ممتزجة بدم الشعب ، ومكونة جزءاً هاماً من كيانه وحياته وأن تلك الحضارة لا تستقر فى محيط مغلق ووقفا على شعب دون آخر بل تنتقل الى البيئات الأخرى بحكم الجوار ، والصلة والاختلاط كما تنتقل عروض التجارة . وهذه الفكرة تمهد أمامنا سبيل الدراسة لتاريخ الحضارات فنفهم الأصيل منها والدخيل ، ونميز الظواهر الاجتماعية لكى نرجع كل ظاهرة إلى أصلها ؛ وفى هذا تتحقق الغاية التى أشرنا اليها فى أول هذا البحث ، ويتضح الهدف الذى وقفنا أنفسنا من أجله ، ذلك هو درس الحضارة الإسلامية درساً تاريخياً عميقاً ، وتحليلها تحليلا علمياً شاملا .

وإذا كنا فيما مضى قريباً قد تحدثنا عن أثر الأشوريين الخاص فى الحضارة البابلية ، ثم أجملنا الكلام عن أثرهم العام فى نهضة تلك الحضارة ورقيها فاننا لانحب أن نترك هذا الفصل دون أن نبين فى شىء من التفصيل مبلغ حرصهم العلمى ومحافظتهم على التراث القديم .

أثر الاشوريين العلمى

وأعظم أثر لنشاط الأشوريين العلمى هو ما قام به أشور بانيبال نفسه من إرساله عدداً كبيراً من الكتبة والنساخ إلى جهات عديدة كى ينقلوا ماتركه السومريون والبابليون من علم وفن وأدب ثم إنه وضع كل تلك الآثار العلمية والأدبية فى مكتبة عظيمة أنشأها لذلك الغرض خاصة فى مدينة نينوى .

ومن هنا ندرك كيف كانت الحضارة الأشورية امتداداً للحضارة البابلية حتى فى وسائل جمع العلوم والمحافظة عليها .

وقد اكتشفت هذه المكتبة حديثاً ، ووجد أنها تكاد تكون كاملة لم تمس بالرغم من مضى خمسة وعشرين قرنا من الزمان . وها نحن أولاء ننقل ماكتبه صاحب « قصة الحضارة [1] خاصاً بتلك المكتبة كى نرى صورة لما رأيناه فى بابل . « أهم ما يخلد ذكر أشور فى تاريخ الحضارة هو مكتباتها فقد كانت مكتبة أشور بانيبال تحتوى ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة ، وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه .

وكان على كثير منها تلك العبارة التى كانت من شارات الملك الخاصة : فليحل غضب أشور وبليت ... على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه . . وليمحوا اسمه واسم أبنائه من على ظهر الأرض » .

وكثير من هذه الألواح منسوخة من أخرى أقدم منها لم يبين تاريخها ، تكشف أعمال الحفر عنها فى كل يوم

وقد أعلن أشور بانيبال أنه أنشأ مكتبة ليمنع الآداب البابلية أن يجر عليها النسيان ذيله . ولكن الألواح التى يصح أن تسمى الآن أدبا لاتتجاوز عدداً قليلا منها ، أما معظمها فسجلات رسمية وأرصاد يقصد بها التنجيم والفأل والطيرة والتنبؤ بالمستقبل ، ووصفات طبية ، وتقارير ورقى سحرية ، وترانيم وصلوات وأنساب للملوك والآلهة . وأقل هذه الألواح مدعاة إلى الملل لوحان يعترف فيها أشور بانيبال بحب الكتب والمعرفة ، وهو اعتراف يزرى به فى أعين مواطنيه ، والغريب أن يكرر فيها هذا الاعتراف ويصر عليه إصراراً .

---

[1] قصة الحضاره - الجزء الثانى ص ٢٨٤

« أنا ، أشور بانيبال ، فهمت حكمة نابو ، ووصلت إلى فهم جميع فنون كتابة الألواح .

وعرفت كيف أضرب القوس وأركب الخيل والعربات ، وأمسك أعنتها . .

وحبانى مردك ، حكيم الالهة ، بالعلم والفهم هدية منه .

ووهب لى إتورت وشرجال الرجولة والقوة ، والبأس الذى لا نظير له . وعرفت صنعة أدابا الحكيم ، وما فى فن المكتبة كله من أسرار خفية ، وقرأت فى بناء الأرض والسموات وتدبرته ، وشهدت اجتماعات الكتبة وراقبت البشائر والنذر ، وشرحت السموات مع الكهنة العلماء ، وسمعت عمليات الضرب والقسمه المعقدة التى لا تتضح لأول وهلة .

وكان من أسباب سرورى أن أكرر الكتابات الجميلة الغامضة المدونة باللغة السومريه ، والكتابات الأكدية التى تصعب قراءتها . .

وأمتطيت الامهار ، ركبتها بحكمه حتى لا تجمح ، وشددت القوس ، وأطلقت السهم ، وتلك سمة المحارب ، ورميت الحراب المرتجفة كأنها رماح قصيرة . . . وأمسكت بالاعنة كسائق المركبات . . .

ووجهت ناسجى دروع الغاب ومجناته كما يفعل الرائد ، وعرفت العلوم التى يعرفها الكتبة على اختلاف أصنافهم حينما يحين وقت نضجهم ، وتعلمت فى الوقت نفسه ما يتفق مع السيطرة والسيادة ، وسرت فى طرائق الملكية »

هذا جانب واحد من جوانب نشاطهم قد قام به ملك واحد من ملوكهم وعلينا بعد ذلك أن نتمثل الجوانب الاخرى التى ينبغى أن تكون متمشية إلى حد كبير مع هذا النشاط العلمى ، وأن نتمثل كذلك ما يمكن أن يكون الملوك الآخرون قد ساهموا به فى ميدان الحضارة الواسع ، ولقد آثرنا

الاكتفاء بهذا الجانب ، والاشارة إلى بعض الجوانب الاخرى حتى لانطيل على القارىء ولا نتعرض لترديد ما ذكره المؤرخون والمنقبون بشأن الحضارة الاشورية ؛ ومن يرغب من القراء فى الاستزادة من ذلك فليرجع إلى الفصول الرائعة التى كتبها صاحب ـ قصة الحضاره ـ عن آشور ، وتاريخها ومعارفها ، وفنونها ليرى بنفسه فى أى مكان يستطيع أن يضع تلك الحضارة بالنسبة للحضارات القديمة الاخرى ؛ وليذهب إلى لندن وباريس لينظر بنفسه ماذا خلفته تلك الحضارة من زخارف ونقوش وتماثيل ، ثم ليرجع بخياله إلى الوراء البعيد يستعرض فى سلسلة من الصور السريعة حياة هؤلاء الاشوريين ، ونشاطهم العقلى والادبى والفنى ، ويقارنهم بغيرهم من الشعوب المعاصرة التى كانت تعيش عيشة بدائية ساذجة تقسو عليهم الطبيعة وتحاربهم بتقلباتها فلا يجدون من نشاطهم العقلى ، ولا من انتاجهم العلمى مايحميهم ويرد عنهم ذلك العدوان . وهنا فقط يستطيع أن يتصور قيمة الحضارة الاشورية وفضل الحضارات السابقة عليها .

والآن يحق لنا أن نتساءل عن مصير تلك الحضارة العظيمة التى بقيت فى تقدم مستمر خلال مئات السنين ، بالرغم من تلك الاحداث السياسية الخطيرة التى هزت أركان السلطان المتبادل بين بابل وأشور هزات عنيفة متتابعة . ذلك هو موضوع حديثنا فى الفصل الآتى :

وادى دجلة والفرات بعد البابليين والأشوريين

ليس من شأننا أن نتحدث عن السياسة فى هذا الجزء من الارض ، فذلك ميدان التاريخ السياسى ومن مهمة المؤرخ السياسى الذى يتخذ من التغير السياسى ميدانا لبحثه ، ومن الاحداث السياسية موضوعا لاحكامه ،

ومقدمة لما يريد أن يسجله من نتائج .

ولقد التزمنا فيما مضى أن ندع السياسة جانبا حتى لا تشغلنا بأحداثها وتقلباتها عما وقفنا أنفسنا من أجل درسه . وهو موضوع الحضارة فى تلك البيئة بالرغم من الصلات الوثيقه بين السياسة والحضارة .

ومع اعترافنا بأن الحضارة تسير فى ركاب السياسة إلى حد بعيد فإننا نكتفى هنا كصنيعنا من ذى قبل ، بمجرد الإشارة إلى أهم الاحداث السياسية التى كان لها أثر بالغ فى مجرى سير الحضارة ، وما انتابها من اشراق وأفول .

رأينا أن السلطان السياسى كان أولا فى يد السومريين والاكاديين واستمر ملوك هذين الشعبين يقبضون على زمام الامور من القرن الخامس والاربعين حتى القرن الخامس والعشرين تقريبا قبل الميلاد .

ومنذ ذلك التاريخ ينتقل الامر إلى يد البابليين ، ويستمر حكمهم فى تلك البلاد حتى تسقط دولة حمورابى فى القرن الحادى والعشرين بواسطة الكاشيين ويبقى هؤلاء فى البلاد حتى ينهض البابليون من جديد ويخرجوهم فى حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وهنا تعود السلطة الى البابليين ولكنهم يحكمون حكما مضطربا تسوده الفوضى حتى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، فتأتى أشور لتخرب بابل وتضمها الى مملكتها . ومنذ ذلك الوقت يبدأ نوع من الصراع السياسى بين بابل وأشور تكون الغلبة فيه دائماً لاشور .

وعلى حساب هذا النزاع يتكون شعب الميديين فى الشرق من وادى دجلة والفرات ، ويظهر كقوة سياسية ينبغى أن يحسب لها حساب . وأخيراً لا يجد البابليون وسيلة للتخلص من حكم الاشوريين سوى استعانتهم بهذا

الشعب الفتى فيتمكنون بذلك من القضاء على أشور وإنشاء دولة بابل الثانية فى القرن السابع قبل الميلاد .

ويبقى سلطان البلاد فى يد بابل حتى يأتى قورش ملك الفرس فى حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ويقضى على سلطان الساميين نهائيا فى وادى دجلة والفرات . وإذا كانت هذه البيئة قد تواردت عليها كما رأينا تلك الدول العديدة ، ومرت بها تلك الحكومات المتباينة فإنها قد بقيت مع ذلك موطنا لثقافات متشابهة إن لم يكن هذا التشابه فى مداها فهو على الاقل فى أصولها وفى العناصر الهامة التى يعتمد عليها :

إذ أن الثقافة الدينية ظلت نحواً من اربعين قرنا وهى تستمد اصولها من دين السومريين وكذلك مبادىء الطب والفلك والرياضة او لعل اهم من ذلك كله هو ان الوسيلة الوحيدة التى كانت تدون بها كل تلك العلوم والمعارف ظلت الكتابة المسمارية لم تتغير حتى أزال الفرس نهائيا سلطان الساميين من وادى دجلة والفرات ، ثم من مستعراتهم فى آسيا الصغرى ، وفى بلاد الشام ، بل ان الفرس انفسهم ظلوا يستخدمون هذا الخط المسمارى حينا من الزمن .

ومن هنا نستطيع ان نقرر مطمئنين ان سلسلة الحضارة القديمة فى هذه البيئة بقيت متصله الحلقات بالرغم مما اصابها من تصدع اثناء الهزات السياسية العنيفة .

ثم ماذا اصابها بعد فتح الفرس ؟

لقد كان من حسن الحظ بالنسبة لهذه الحضارة ان كان الفرس الفاتحون اقل من اصحابها ثقافة وعلما ، وان كانوا كذلك يتسمون فى اغلب احيانهم

بسمات التسامح فأبقوا على حضارة البلاد التى ادخلوها تحت سلطانهم ، واخذوا منها ما استطاعوا بواسطته تقويم حضارتهم ، والرقى بها إلى درجة تجعلها تعد فى صف الحضارات القديمة الراقية .

مما حدث فى وادى دجلة والفرات يظهر الفرق بين من يؤرخ للحضارة ومن يؤرخ للسياسة فالمؤرخ السياسى يستطيع أن يقول وهو صادق فى قوله :

إن الدولة البابلية قد سقطت على يد قورش عام ٥٣٨ قبل الميلاد ، ولكنه لا يستطيع أن يقول قد زالت الحضارة البابلية بزوال دولتها فى نفس التاريخ ، إذ أن قيام الدولة أو سقوطها قد يكون وليد يوم وليلة ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لحضارتها التى هى وليدة أجيال وقرون ، والتى امتزجت بدماء الشعب فأضحت تكون عنصراً من كيانه ، ولذا فقد تزول الدولة سياسياً ولكن حضارتها تبقى ماثلة حية لاتتأثر بالأحداث السياسية المفاجئة إلا قليلا ، بل ربما تؤثر حضارة الشعب المغلوب على أمره فى الشعب الغالب تأثيراً بعيد المدى مثل ما حدث فى وادى دجلة والفرات ، وما حدث بين الروم واليونان ، إذ أن روما بعد أن استولت على بلاد اليونان وأخضعتها لسلطانها ، استمرت حضارة اليونان تسير فى الطريق الذى رسمته لنفسها ، لا فى بلاد اليونان فقط ، بل فى جزر البحر الأبيض المتوسط وفى شمال أفريقيا ، وفى سوريا وما جاورها شرقا وشمالا وكل هذا كان من مستعمرات الروم .

بل لقد وجدت لها فى عاصمة الروم انفسم اشياعا ومؤيدين ، فانتشرت فى روما ، وأخذت تغزو معارف الروم الضئيلة وافكارهم المحدودة . ولهذا فقد ردد كثير من الكتاب اللاتينيين هذه العبارة ، وما كانوا يجدون حرجا فى ترديدها ، ولا ضيقاً فى الاعتراف بها :

« إن اليونان المنهزمة قد عزت غازيها العنيد وادخلت الفنون فى بيئة لاسيوم المتوحشة [1] . والذى صنعه الروم فى بلاد اليونان هو نفس ماصنعوه فى ممتلكاتهم كسوريا ، وفلسطين ، ومصر . وكذلك حين غزا القوط روما واسقطوها فى اوائل القرن الخامس بعد الميلاد [2] فأن الحضارة اللاتينية لم تنته بانتهاء الحكم الرومانى ، بل استمرت تؤدى رسالتها مدة طويلة من الزمن حتى لقد تبناها الغزاة انفسهم ، فأخذوا عنها ، وتأثروا بها ، وكان فى مسلكهم إزاءها اعتراف منهم بما لها من سبق على معارفهم الضئيلة ، وبما يؤمل منها من خير بالنسبة لرقيهم ، وللسير قدماً بدولتهم ؛ فكانت نظرتهم الى حضارة روما بما فيها من علم وفن وادب ، بل وبما كانت تسجل به من لغة ؛ نظرة احترام وتقدير بالرغم مما اعملوه فى العاصمة نفسها من تخريب وتدمير ؛ ولهذا فأنهم سرعان ما وقعوا على تلك الحضارة يبحثون عن آثارها ؛ ويديئون بمبادئها ويدرسون لغتها ؛ ولا يألون جهداً فى رعاية تراثها ، إذ أنهم ما كاد يستتب لهم الأمر ، وتهدأ الاضطرابات حتى بدأوا يكلفون كثيرا من العلماء والأدباء بأن يؤلفوا وينتجوا باللغة اللاتينية . والذى صنعه الفرس بالنسبة للحضارة البابلية ـ الأشورية ، وصنعه الروم بالنسبة للحضارة اليونانية ، وصنعه القوط بالنسبة للحضارة اللاتينية هو صورة لما صنعه العرب فى بيئة العراق بعد فتحهم لها ، وخصوصا بالنسبة

---

[1] هذه العبارة هى ترجمة البيت ١٥٧ فى القصيدة الثانية من الجزء الأول من الديوان المعروف باسم ـ القصائد الهجائيه ـ *epitres* وهو للشاعر اللاتينى المشهور هوراسيوس ـ *horatius*

[2] تاريخ سقوط روما هو سنة ٤١٠ بعد الميلاد وكان سقوطها على يد ألاريك

لعلماء السريان ومعارفهم [1]

لم يقض الفرس إذن على الحضارة (البابلية ـ الأشورية) كما قضوا على سلطان الساميين ، بل إن هناك من الأدلة ما يثبت أنهم أبقـــوا عليها ؛ واستغلوا مظاهرها ، وأنتفعوا بما وجدوه منها إلى حد بعيد . إذ أنهم ألقوا بكثير من زمام أمورهم إلى بقايا الساميين الذين لم يتمكنوا من الهجرة ، أوالذين فضلوا البقاء فى بلادهم بالرغم من احتلال الفرس لها . فكانوا يستعينون بعلمائهم ومشرعيهم ؛ ثم بصناعهم وفنانيهم ، فاستمر النشاط العقلى كما كان بفضل ما وجدوه من استتباب فى الأمن بعد الفتح . وما رأوه من تسامح وتشجيع من جانب الفاتحين .

وكثير مـن قصورهم ومدنهم . وطـــرق مواصلاتهم لم يتم إلا بواسطة مهندسين وفنانين من بابل وأشور . وكثير من أفكارهم ومعارفهم . على قلتها . مستمد من أفكار ومعارف بابلية وأشورية . وهكذا استمرت سلسلة الحضارات القديمة متصلة فى بيئة العراق بالرغم مـــن فترات الحروب والاضطرابات . وهكذا أصبح الفرس ورثة لتلك الحضارات . لا مهملين لها . ولا جناة عليها .

وإذا كان لنا أن نبحث عن الأثر الذى تركه الفرس فى الحضارة البابلية ـ الأشورية مثل صنيعنا عند الكلام على كل دولة حكمت العراق سياسياً فإن ذلك يبدو واضحا فى ناحيتين : الناحية الدينيه ، والناحيه اللغويه .

أما بحثنا فى الأثر الدينى فيلزمنا بأن نعود إلى الوراء قليلا كى نعرف

---

[1] ليس أدل على ذلك مما ذكره ابن النديم فى كتابه ـ الفهرست ـ من أسماء علماء السريان ، وفلاسفتهم ، ومترجميهم ، وما تركوه من تراجم ومؤلفات .

شيئا عن الدين الفارسى كيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟ ثم ماذا كان أثره فى وادى دجلة والفرات بعد أن خضع هذا الوادى لسلطان الفرس وأصبح جزءا من مملكتهم المترامية الأطراف ؟

إن الباحث فى هذه المسألة يجد أنه لا يكاد يختلف الدين الفارسى القديم عن سائر الأديان الأخرى التى كانت تعاصره والتى وجدت من قبله : عدد من الآلهه يتزعمهم رئيس أعلى ، وقد تمثل هذه الآلهه فى أشكال تماثيل أو فى كائنات حيوانيه ، ثم مزيج من العبادات والطقوس الدينيه . وأغلب الظن أن هذا الدين الفارسى قد تأثر فى أول عهده بالديانه البابلية . وكانت الفلسفة الدينية إذ ذاك متمشيه فى بساطتها مع الدين نفسه . ولكن هذا الدين قد خطا خطوة واسعه نحو النضوج والكمال وذلك أثر وجود رسول ذى رسالة دينية خاصة ، كما يزعم الفرس أنفسهم حينما يتحدثون عن دينهم ، وعن المراحل التى مر بها .

وهذا الرسول هو زرتشترا صاحب الديانة الزردشتية . وليس لنا أن نتعرض لطبيعة هذا الرسول ولا لعقائد الفرس فيه من حيث نشأته وهبوط الوحى عليه ، وتسجيل المبادىء الدينيه فى كتاب مقدس ، فأن ذلك قد يثير خلافا طويلا لا جدوى منه ولا طائل تحته ، إذ أن حياة هذا الرسول الفارسى كما يصورها الفرس أنفسهم تكاد تكون صورة من حياة الرسل الساميين أصحاب الكتب المقدسة ، والديانات السماوية ، والمبادىء الآلهية .

وحسبنا من كل ذلك أن نعرف فقط أن (زرتشترا) بدأ دعوته الدينيه بأعلان حرب لا هوادة فيها ضد أصحاب الديانه الفارسيه القديمه : واستمر ينشر دعوته ويبطل ديانة المجوس حتى دانت بلاد الفرس لرسالته ، وانزوت الديانة القديمه فى بعض الجهات النائيه . شأن كل ديانة جديده

تدخل فى صراع مع الديانات القديمة . ولعل من أثر هذا الاضطهاد الدينى أن هاجر كثير من الكهنة المجوس واستقروا فى وادى دجلة والفرات يمارسون تعاليمهم الدينيه حتى جاء الإسلام فوجد كثيرا من آثارها فى هذه البيئه ، وقد نقلت لنا كتب التفسير ، والتاريخ ، والأدب صورة واضحة عن تلك الديانة وعن تعاليمها ، وما كانت تتطلبه من أتباعها من نظام ، وتقديس ، وعبادات .

وأهم ما نلاحظه فى الديانة الزردشتيه هو ما يختص بفكرة التوحيد . وهذا يدل بوضوح على درجة نضوج العقل والتفكير : إذ أن العقل الذى بدأ يتصور الوحدة فى الألوهية ، ثم يجرد هذه الوحدة عن عالم المحسوسات ذوات القوة الظاهرة والأثر الفعال فى نظام الكون ، هو بلا ريب عقل متحرر كبير ممتاز . ولقد نشأت بعد فكرة الوحدة فى الألوهية عند الفرس فكرة الثنائية التى تدين بقوتين خطيرتين فى العالم : هما قوة الخير وقوة الشر: يرمز إليهما بإلهين : إله الخير هو أهورا - مزدا ، وإله الشر هو أهرمان ومع ذلك فلا نزال نلاحظ كذلك مع التثنية فكرة التجريدمن عالم المحسوسات وبمضى الزمن قد تعددت قوى الشر بتعدد صوره وما كان يصاحب ذلك من دوافع وإغراءات ، وقد أدخل أتباع هذا الرسول كثيراً من التعديل على هذه الديانة ولكنها مع ذلك استمرت تستمد عناصرها الأساسية من الفكرة الأولى - فكرة التجريد - وتستلهم تعاليمها من مبادىء المؤسس الأول لها - زرتشترا - .

ومهما يكن من شىء فأن الفرق يبدو واضحاً بين الأسس الأولى لهذا الدين الجديد والعقائد القديمة لدى البابليين والأشوريين : فبينما نجد هنا فكرة التوحيد أو الثنائية المجردة ، إذ بنا نجد عدد الآلهة المجسمة فى كثير

من الأحيان عند البابليين يصل إلى ٦٥٫٠٠٠ إله حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد . وفكرة التجسيم فى الآلهة فكرة ساذجة فى حد ذاتها ؛ ولكن من الغريب أنها استطاعت أن تسيطر على كثير من العقول الكبيرة الواسعة فى أزمان طويلة .

وهكذا استطاعت الديانة الفارسيه أن تثبت شخصيتها فى العقائد ، والطقوس والعبادات ، واستطاعت كذلك أن تبرز للناس فى ثوب جديد له رواؤه بالرغم مما نراه فى ثناياها من آثار للديانة البابلية والأشورية ، وعلى الأخص فيما هو من قبيل الأساطير كقصة الطوفان ، وقصة الخلق الأولى .

من ذلك نرى أن وادى دجلة والفرات قد تعرض لغزو دينى جاءه من الشرق أولا بواسطة المجوس ، أصحاب الديانة الفارسية القديمة الذين اضطهدوا فى بلاد فارس حينما اعترفت الدولة بالدين الزردشتى الجديد ، وثانياً بواسطة أتباع زرثسترا ، الذين جاءوا معترفا بهم وبتعاليمهم من الحكومة المسيطرة على تلك الجهات . وفى هذا يتمثل الصراع الدينى بين اتباع كل عقيدة فى وادى دجله والفرات ويستطيع القارىء بعد ذلك أن يتصور الآثار البعيدة المدى التى يمكن أن تخلفها هذه الخلافات الدينية فى العقلية وما تنتجه من علوم ومعارف ، وأن يعلل وجود هذه العقائد التى تجاوبت أصداؤها فى الأدب العربى أيام العصر العباسى .

هذا هو أثر الفرس الدينى فى الحضارة البابلية - الاشورية أو بالأحرى بيئة بابل وأشور .

أما الأثر الهام الثانى للفرس فيتمثل فى الكتابه التى اتخذوها وسيلة لتدوين أفكارهم وآدابهم وعلومهم . نحن نعلم أنه قبل الفتح الفارسى لمملكتى

بابل وأشور كانت النقوش المسمارية هى لغة الكتابه فى وادى دجلة والفرات منذ القرن الخامس والاربعين تقريباً حتى القرن السادس قبل الميلاد. ولكن حينما جاء الفرس ورأوا هذا الخط المسمارى سائراً فى كل تلك البلاد لم يجدوا بدأ من استخدامه أو الأمر: ثم لم يلبثوا أن استخدموا الحروف الهجائية الآرامية، وهى الحروف المأخوذة عن الفينيقيين.

غير أن ذلك لم يكفهم فبدءوا يتصرفون فى الخط المسمارى ويدخلون عليه من التعديل ما جعله يأخذ طابعاً جديداً فى شكله ومؤداه: إذ أنهم اقتصروا منه على ستة وثلاثين رسماً بدلا من ثلاثمائة علامة ثم إنهم بعد ذلك حاولوا محاولة أخرى فاستعاضوا عن هذه الرسوم، التى تدل على المعانى كما رأينا ذلك فى اللغة الهيروغليفية بحروف هجائية مسماريه تدل على أصوات. ولعل الجهد الذى بذله الفرس فى تحويل هذه الرسوم المعنويه إلى رسوم صوتية لا يقل عن الجهد الذى بذله الفينيقيون من قبل فى اختراع الحروف الهجائية، فكل من الشعبين قد استعان بمجهود شعب آخر: الفينيقيون بالمصريين والفرس بالسومريين؛ وكل من الشعبين كان له مجهوده الخاص فى التهذيب وفى الوضع.

هذان الأثران، الدين والكتابه، يعتبران النواة الأولى لصبغ الحضارة البابلية - الاشوريه بصبغة جديدة. وفيما عدا هذين الأثرين بقيت الحضارة القديمة ممثلة فى مظاهرها ومؤثرة فى كيان الدولة ونظام المجتمع حتى بدأت شخصية الفرس تحتل أهم الميادين فى إدارة الشعب، ومعارفهم تتبلور وتتسرب إلى سائر الاوساط؛ وهكذا أخذ أثر الفرس يتسع، وقد استمر أثرهم يطغى شيئاً فشيئاً على هذه الحضارة القديمة حتى استقل بكل مظاهرها: فعرف الدين الفارسى وانتشرت الكتابه الفارسية، وظهرت هندسة معماريه جديده تتجلى

فى حفر القنوات ، ومد الطرق ، وإنشاء المؤسسات ذوات الاعمدة بدلا من ذوات القباب . ومع هذا فمن الخطأ أن نتصور محو الحضارات القديمة من بيئة العراق محواً كاملا ؛ فانها كانت بمثابة الاساس الذى بنى عليه الفرس حضارتهم ؛ ونستطيع أن نشبهها بجذع شجرة ضخمه قد طعم بأغصان أشجار أخرى ؛ وقد بقى ذلك الجذع يغذى تلك الاغصان ولكنها انتجت أزهاراً غير الأزهار الاولى ، وثماراً تخالف الثمر الاول .

ولقد تعرض وادى دجلة والفرات فى الفترة ما بين فتح الفرس أثناء القرن السادس قبل الميلاد ، وفتح العرب بعد ألف عام تقريباً إلى ألوان وتأثيرات من حضارات أخرى وردت اليه من أمم أجنبية ، هى أمة الآراميين وأمة اليونان ، وأمة الروم . ولقد تركت هذه الحضارات الاجنبية بلا شك ، فى بيئة العراق كثيراً من معارفها العلمية والادبية ، والدينية ، والفلسفية ، والفنية ، وسنرى بعد فتح العرب للعراق كيف كان هذا الخليط من الثقافات ، وكيف ظهرت آثار ذلك واضحة فى الحضارة الإسلامية ، وفى انتظار هذا سنحاول أن نمضى سريعاً فى بيان مدى هذه التأثيرات وكيف وصلت إلى هذه البيئة ، وما هو مبلغ الانفعال الذى تم بينها وبين العناصر الاصيلة من حضارات العراق السابقة .

ولكن قبل أن نتكلم عن ذلك نحب أن نبين مسألة هامة قد استمرت مجهولة مدة طويلة من الزمن ، ثم تردد الكلام فيها أخيراً بعد أن اكتشفت بعض آثار الحضارة البابلية ـ الاشوريه . تلك هى حضارة الغرب القديمة وصلتها بالشرق ، وهذه المسألة فى نظرنا جديرة ببحث طويل وفصول عدة تتناول عناصر الحضارات الشرقية القديمة وتحللها ثم تذكر صلات الغرب بالشرق علمياً ، وأدبيا ، وماديا ؛ وعلى ضوء ذلك كله يستطيع القارىء أن

يلمس كيف كان الغرب يستقى معارفه ، ثم إلى أى حد كان يطبعها بطابعه الخاص ؛ ولكننا لن نستطيع فى بحثنا هذا أن نتناول ذلك بالتفصيل بل سنعرضها عرضاً موجزاً ونفرغ لها من وقتنا ما يكفى لترسم معالمها وتبين خطوطها الرئيسية .

هناك كثير من الناس يعتقدون أن الغرب قد أثر فى الشرق بما أنتجه فى ميدان الحضارة من علم وأدب وفن . وهذا حق لا مراء فيه ، ولكنهم لا يعرفون كيف نشأت حضارة الغرب ، ولايزالون يجهلون على أى الاسس العلمية والروحية قد قامت هذه الحضارة الغربية . ولو أنهم تحملوا قليلا من العناء فى درس تاريخ حضارة الغرب ، وبذلوا شيئاً من الجهد فى تحليل عناصرها وارجاعها إلى أصولها الأولى لما وجدوا صعوبة ليدركوا أن الشرق هو الذى ألهم الغرب وأوحى اليه بكثير من المعارف الدينية والإنسانية ، فاستطاع الغرب بهذا المدد الواسع أن يؤسس علمه ، ويوسع معارفه ، ويكون حضارته . ومع هذا ينبغى ألا نبالغ فى تصوير المسألة فنجازف بالقول بأنه لولا الشرق لما كانت للغرب حضارة ، إذ أنه من الثابت قديماً أن بعض البيئات يصلح لأن يكون مهدا للحضارة بواسطة ما أتيحت له من ظروف طبيعية غير أن الآثار الأجنبية على تلك البيئات تظهر فى تكوين الحضارة بسرعة أو صبغها بصبغة خاصة .

وما دام ثابتاً أن صلة الشعوب بعضها ببعض كان ولا يزال ينظر اليه كأهم وسيلة فى نقل الحضارة من بيئة إلى بيئة أخرى فما الذى يحول بيننا وبين الاعتراف بأثر الحضارة البابلية والأشورية فى بلاد اليونان حيث إن هذه الصلة بين البيئتين قد وجدت قديماً واستمرت كذلك خلال قرون عديدة ؟ ثم ألا يكون عجيباً أن يتصور وجود الحضارة اليونانية دون استعانة

بالشرق مع أن اليونان أنفسهم قد اتصلوا بشعوب الشرق ورأوا نظمه ووقفوا على حضاراته قبل أن يتكون لهم فى بلادهم شعب موحد منظم ، وقبل أن يعرف لهم علم أو يؤثر عنهم أدب وفن ؟

لقد رأينا فى وادى دجلة والفرات منذ القرن الخامس والأربعين تقريباً قبل الميلاد شعوبا موحدة ، وحكومات منظمة ، وحضارات واسعة متعددة المظاهر : كتابة لتقييد الأفكار ، وتسجيل المعارف ؛ وهندسة معمارية لتأسيس المدن ، وشق الطرق وأقامة المعابد والقصور ، وبناء الحصون والقلاع ، وعقيده تسيطر على الناس بطريق الرغبة أو الرهبة ، وتفرض صلة ما بين المرء وبين القوى المؤثرة فى الكون كما كانوا يتصورونها إذ ذاك ؛ وقانون منظم يوضح الصله بين الحاكم والمحكوم والمؤجر والأجير ثم بين المرء وأفراد أسرته ، وبينه وبين سائر أفراد المجتمع ؛ وفنون عديدة للنحت والنقش والزخرفة وصنع أنواع الزينة من حلى وملبس ؛ وعلوم ليست بالقليلة لدراسة السماء وما فيها من كواكب ، ودراسة الأرض وما تنبته من شجر وأعشاب ، ودراسة التاريخ وما يحتوى عليه من حقائق وأساطير .

ولقد رأينا كذلك أن آثار تلك الحضارات قد بقيت ممثلة فى كثير من أنواع النشاط الحيوى عدة أجيال طويلة حتى ظهور الفرس فى تلك الجهات ولقد كانت معارف تلك الحضارات تنتقل فى شكل موجات متتابعة من وادى دجلة والفرات إلى كل آسيا الغربية حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، أى الجزء الممتد من البحر الأسود شمالا حتى صحراء سينا جنوباً .

كان يحدث أن تختفى آثار تلك الحضارات فى بعض الأحيان ولكن ذلك لا يلبث طويلا حتى تفد موجة أخرى من المعارف إثر غزوة من الغزوات أو أخماد ثورة قام بها شعب من الشعوب فتحيى تلك الموجة بعض

ما اندثر ، وتضفى على ما بقى لونا جديداً آخر . وهـكذا كان ما يحدث فى بيئة العراق يتردد صداه فى تلك المساحات الواسعة من الأرض ، ثم لايلبث أن يستقر وتظهر آثاره ممثلة فى معارف أولئك السكان وفنونهم .

وهكذا وجد الباحثون كثيراً من آثار الفكر البابلى والعلوم البابلية فى الولايات التى نشأت فى آسيا الصغرى كالحيثيين ، والفريجيين ، أو فى بلاد الشام كالعبرانيين والفينيقيين . ولقد كان من الصعب قديماً أن توضع الحدود السياسية والحواجز الجغرافية بين تلك الولايات التى تعيش فى غرب آسيا كما نرى ونسمع الآن .

ان ما كان يظهر فى بابل وأشور كان يردد صداه بسرعة فى تلك الولايات وذلك بفضل التبادل للتجارى بين وادى دجلة والفرات وغيره من الولايات المنتشرة فى آسيا الصغرى ، وكذلك بفضل الحملات العسكرية التى تقوم بها الامبراطوريات من وقت إلى آخر سواء أكان ذلك لاتساع رقعة الملك ، أو لتثبيت سلطانه ، واخماد روح الثورة التى تبدو فى فترات ليست بالنادرة ؛ وقد لعبت هذه الحملات العسكرية فى العالم القديم دوراً هاما فى نقل الحضارة من بيئة إلى بيئة أخرى ؛ وليس تصور ذلك بصعب على من يرجع بخياله إلى الوراء ليرى كيف كانت تقاد الجيوش ، وتقام المعارك ، ويتم الاستعمار كما حدث بين اليونان والشرق ، وكما حدث بعد ذلك بين الروم واليونان من ناحية ، وبينهم وبين الشرقيين من ناحية أخرى .

ولم يكن أمر تلك الحملات العسكرية قاصراً على بابل وأشور ، بل وجد هناك أيضا من الامبراطوريات عدد استطاع أن ينهض بهذا العبء ويلعب فى السياسة الاستعمارية دوراً لا يكاد يقل عن دور البابليين والاشوريين فى الاستيلاء على الولايات وفرض السلطان على سكانها ، والعمل على استتباب

الأمن ودوام الخضوع أطول مدة ممكنة من الزمن ، ثم القيام بدور الوسيط فى نقل الحضارة وتبادل العلوم والمعارف ، وليس لنا أن ندخل فى التفصيل السياسى لهذه الامبراطوريات من حيث التكوين ، والأنظمة ، والغزوات ، والاستعمار .

ولكن حسبنا أن نعرف أن شعب الحيثيين من بين هذه الشعوب قد تمكن من التغلب سياسيا على كل الولايات الصغيرة المنتشرة فيما بين الدردنيل وبحر إيجه غربا إلى أعالى نهر دجلة شرقا . وهكذا استطاع هذا الشعب أن يجمع بين أطراف تلك المساحات المترامية ، وأن يؤلف بين تلك الدويلات المتعددة ، فيجعل من كل ذلك حكومة واحدة ، ويعمل جاهداً لا على مجاراة الأشوريين والبابليين فى الإدارة والسلطان فحسب ، بل على مجاراتهم فى بعض العلوم والمعارف أيضاً .

وقد استمر هذا الشعب يتحكم فى تلك المنطقة الواسعة من الأرض ، ويفرض سلطانه على ذلك الخليط العجيب من الشعوب حوالى عشرة قرون من الزمن ، أى من القرن الثامن عشر حتى القرن الثامن تقريبا قبل الميلاد وفى خلال تلك المدة قد استطاع الظهور بمظهر القوة التى يخشى بأسها ، وأن يلعب فى سياسة الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط دوراً هاما ؛ ولم يكتف بوقف غزوات البابليين والأشوريين ، بل إنه دخل فى صراع مع المصريين كذلك .

وبجانب هذا ينبغى أن نعلم فوق ذلك أن شعب الحيثيين هذا كان يدين بكثير من تمدنه ، وقوته ، وحضارته للبابليين ، فليس من شك فى أنه استعمل الخط المسمارى لتدوين آثاره العلمية ، والعقلية وكذلك أخذ كثيراً من شرائع حمورابى وعمل بها فى تنفيذ أحكامه ، وزيادة على ذلك فقد نقل

استعمال الألواح الطينية المعروفة عند البابليين لتسجيل العلوم والمعارف إلى جزيرة كريت التى كانت تعتبر جزءاً لا ينفصل من بلاد اليونان ؛ بل إنها كانت بمثابة المعبر الأول للآثار العقلية فى الشرق إلى الشعوب الاغريقية ؛ ولهذه الجزيرة وما كان فيها من معارف الشرق أثرها البعيد فيما نتحدث عنه بعد قليل .

وبعد أن انقرض شعب الحيثيين نجد شعبا آخر ، هو شعب الفريجيين ، يقوم على أنقاضه ويرث حضارته ، وذلك حوالى القرن الثامن قبل الميلاد . ويستمر هذا الشعب الجديد قرنين من الزمن يسير فيها على نهج الحيثيين من الناحية السياسية والعمرانية ، ويحافظ فيها على ذلك التراث العقلى ؛ ولكنه يوجه أنظاره إلى الغرب أكثر من سابقيه ، فيتصل اتصالا مباشرا بالاغريق بل ويعمل على إيواء الكثيرين منهم فى أرضه وتحت سلطانه .

ومن هذا نعلم كم كانت آسيا الصغرى تعد بحق موطنا آخر للثقافة البابلية ـ الأشورية من ناحية ، وقنطرة بين الشرق والغرب من ناحية أخرى !!

وبعد سقوط دولة الفريجيين فى القرن السادس قبل الميلاد نشأت هناك دولة أخرى هى دولة الليديين ، واستمرت تنتفع بالحضارة السابقة وتكثر من صلاتها ببلاد اليونان حتى اعتبرها المؤرخون معبراً هاما يتلاقى فيه الاسيويون باليونانيين . ولعل القارىء يلاحظ شيئا من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسى فى ذلك العرض السريع الذى تناولنا فيه تاريخ هذه الشعوب المتعاقبة دون أن يكون هناك عصور طويلة تسمح باستتباب الامور وتتيح الفرص للانشاء والتعمير ؛ وهذا صحيح إلى حد ما ؛ غير أن الحضارة البابلية ـ الاشورية التى استقرت فى هذه البيئة المضطربة سياسيا لم تتأثر كثيراً بسقوط تلك الدول ، بل بقيت محتفظة بكيانها وبكثير من مظاهرها

رغم ما أصابها فى بعض الاحيان من تعويق . ويهمنا من كل هذا أن نلاحظ تاريخ نهضة هذه الشعوب الاسيويه ، فإن لذلك أثره البعيد حين نتحدث عن نشأة الحضارة ورقيها عند اليونان . ولو رجعنا قليلا إلى الوراء للاحظنا أن الحيثيين سادوا من القرن الثامن عشر حتى القرن الثامن ، وأن الفريجيين سادوا من القرن الثامن حتى القرن السادس ، وأن الليديين قد ورثوا هؤلاء جميعا واستمروا حتى وصلت الحضارة الاغريقية إلى درجة عظيمة من الرقى ، وصار لها فى كل الميادين أبحاث وإنتاج ، وهذا بلا شك يمهد السبيل أمام الباحث ليدرك مدى تأثر الاغريق فى حضارتهم بالشرق .

والآن بعد أن عرفنا شيئا من التفضيل عن حضارة بابل وأشور ، وأدركنا زمن ومدى انتشارها فى آسيا الصغرى يحق لنا أن نتساءل .

أولا : كيف وصلت حضارة الشرق الادنى إلى اليونانيين ؟

ثانيا : ما هو مدى تأثر اليونان بهذه الحضارة الشرقية ؟

أما الجواب عن السؤال الاول فيمكننا تلخيصه فيما يلى : قد يبدو للناظر أول وهلة أن المسافة بعيدة بين الشرق والغرب ، وأن الصلة بين هذين العالمين تكاد تكون متعذرة إذا ما قورنت وسائل النقل القديمة بوسائل النقل الحديثة . ولكن هذا الزعم لا يلبث أن يتلاشى إذا ما درست صلات الشرق بالغرب قديما .

وفى الحق لم يكن البحر الابيض ، كما يتبادر إلى الذهن حاجزاً منيعا بين اليونان والشرق الأدنى ، بل كانت هناك صلات تجاريه كثيرة متبادلة منذ أقدم العصور فكان الفينيقيون يجوبون بمصنوعاتهم وسلعهم التجارية جزر اليونان كقبرص ورودس ، وكريت ، وكذلك شواطىء بلاد اليونان الممتدة

فى شكل ثنايا داخل البحر الابيض المتوسط ؛ بل إن نشاط الفينيقيين لم يقف عند هذا الحد ، وإنما تجاوزه إلى درجة بعيدة ، فوصلوا إلى المحيط الأطلنطى ، واتجهوا شمالا حتى بحر الشمال ، وكونوا لهم مراكز ومستعمرات تجارية أهمها قرطاجنة فى بلاد تونس الحالية .

وكذلك كان اليونانيون أنفسهم ، وقد اشتهروا بالملاحة منذ القدم يفدون إلى بلاد آسيا يتزودون من منتجاتها ويعودون إلى بلادهم ، وقد يتركون وراءهم أسرا بأكملها إما لكسب العيش والاقامة المستمرة ، وإما ليكونوا بمثابة جاليات تعمل على نمو الحركة التجارية ، وتنشيط الصلات الفكرية المتبادلة ، وهكذا لم تكن صلات اليونانيين بالآسيويين فى مواسم خاصة من السنة وإنما كانت صلات يومية مستمرة ؛ وأهم ظاهرة لوحظت على تلك الصلات فى العالم القديم هى اتجاه الفينيقيين إلى الغرب واتخاذهم إياه ميدانا واسعاً لنشاطهم التجارى ، واتجاه اليونانيين إلى الشرق واستغلالهم له ماديا وأدبيا وعلمياً ؛ ولقد كان من نتيجة تلك الظاهرة أن نظر اللاتينيون إلى اليونانيين نظرتهم إلى شعب شرقى فى أخلاقه وتقاليده وعاداته ، وكثيرا ما كانوا يعيرونهم بذلك حينما يلاحظون عليهم تدهوراً سياسياً أو انحلالا خلقياً .

وهنا يجب أن ننظر إل التجارة عند القدماء نظرة تخالف نظرتنا إلى الحركة التجارية فى العالم الحديث ؛ فالتاجر الآن يستطيع أن يعقد أكبر صفقة تجارية فى أبعد بلد وهو جالس فى مكتبه بواسطة مكالمة تليفونية أو إشارة تلغرافية ، ثم تأتيه تلك الصفقة إلى بلده دون أن يتحمل عناء السفر أو يرى واحداً من عملائه الذين أمضوا معه تلك الصفقة ؛ ولم يكن الأمر قديماً كما نراه الآن .

إذ أن وسائل النقل عندهم كانت بسيطة محدودة ، فالدواب براً ،

والمراكب الشراعية بحراً ؛ وليس هناك سوى الصلات الشخصية المباشرة والاشراف المستمر على وسائل النقل كى تتم تلك العملية المرهقة الشاقة .

وفى كلتا الحالتين كان التجار يتعرضون لأخطار عديدة ، مصدرها قطاع الطرق من ناحية ، ولصوص البحر من ناحية أخرى ، ولكى يتفادوا هذه الأخطار ، أو يتغلبوا عليها إن هى صادفتهم ، كانوا ينتقلون فى شكل قوافل إن كانت التجارة براً ، أو فى جمع من المراكب إن كانت بحراً حتى يمكنهم الدفاع عن النفس وعما لديهم من بضاعة وأمتعة . ولقد احتفظت لنا كتب التاريخ القديمة بأوصاف تلك القوافل البرية والبحرية ، وبما كانت تتعرض له من صعوبات .

ولقد كانت اللصوصية فى ذلك الزمن القديم مهنة مشهورة تجر كثيراً من المغانم بالرغم مما تحمله فى ثناياها من الأخطار . ولقد بلغت اللصوصية فى بعض الأحيان درجة استطاعت أن تهدد معها كيان الدول وسلطان الحكومات ونحن لا ننسى تلك الفترات العصيبة التى مرت بحكومات روما ، وقوادها من أجل تأمين طرق التجارة فى البحر الأبيض المتوسط أولا ، ثم فى البحر الأحمر ثانيا ضد هؤلاء اللصوص الذين كثر عددهم وزاد تمردهم حتى اضطرت روما أن تنشىء أسطولا حربيا ، وتجرد حملات عسكرية بغية القضاء على هذا الخطر المتزايد ؛ فحرب الروم للعرب فى البحر الأحمر وفى شبه الجزيرة العربية بعد أن استقر لهم الأمر فى مصر لم يكن لسبب آخر سوى تأمين طرق التجارة واستتباب الأمن فى تلك النقطة الحساسة من الامبراطورية الرومانية ؛ وهم وإن فشلوا فى حملاتهم العسكرية ضد العرب إلا أنهم قد نجحوا كما يقول مؤرخوهم فى عقد معاهدات تجارية معهم تجعل البضائع تغدو وتروح وهى فى أمان .

ولقد تكررت هذه الحروب أيضا فى البحر الأبيض المتوسط ، ودامت مدة من الزمن حتى أطلق عليها الروم « حرب لصوص البحر » ؛ انفقوا فى سبيلها كثيراً من المال ومن الرجال ؛ ولم يهدأ لهم بال إلا بعد أن قضوا على لصوص البحر قضاء تاما .

وكان هناك خطر آخر يعترض التجارة لا يكاد يقل عن خطر لصوص البر والبحر ، ذلك هو خطر الطبيعة ، وما يأتى به تغير المناخ من عواصف وبرد ، وصواعق وأمطار ؛ ولم يكن عند القدماء ما نراه الآن من وسائل الملاحة والوقاية ضد ثورات الطبيعة وتقلباتها .

لذلك كانت قوافل التجار فى أغلب الأحيان تحت رحمة الطبيعة ، تقوم فى مواسم خاصة ، وترجع فى مواسم خاصة ، وفيما بين الذهاب والعودة يتم شىء من المعاشرة والاختلاط بين هؤلاء التجار وسكان البلاد الأصليين . وما تشير به الآية القرآنية الكريمة « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » يصور هذا المعنى أصدق تصوير ؛ ثم ما عرفناه من نظام القوافل وإقامة الأسواق فى شبه الجزيرة العربية يشرح لنا كيف تدوم المعاشرة بين القبائل المتباعدة ، ويتم الاختلاط بين الأجانب والعرب .

لكل هذه الأسباب كان التجار يأتون جماعات لا أفرادا ، ويضطرون فى كثير من الأحيان إلى الاقامة شهورا لا أياما . ومن هنا كانت التجارة فى الزمن القديم وسيلة من أهم الوسائل فى نقل آثار الحضارات من بيئة إلى أخرى ، ومن شعب إلى آخر . ومن هنا أيضا نستطيع أن ندرك فى سهولة كيف انتقلت آثار الحضارات البابلية والأشوريه إلى بلاد اليونان ؛ فالفينيقيون كانوا يذهبون إليهم فى جزرهم مزودين بالمعارف الشرقية كما كانوا مزودين بمواد التجارة ، وكانوا هم أنفسهم يأتون إلى الشرق يبحثون

عن العلم كما كانوا يبحثون عن السلع التجارية . ولقد عرفنا التاريخ أن اليونانيين كونوا لهم مستعمرات فى داخل الممالك الشرقية كما حصل ذلك فى آسيا الصغرى وفى شمال الدلتا من مصر ؛ ولقد عرفنا التاريخ أيضاً أن الديانه المصريه القديمة لم تنتقل إلى بلاد اليونان ، ومن بعدها إلى شبه جزيرة إيطاليا إلا مع التجارة وبواسطة الملاحين التجاريين .

مسألة الحروب :

وبجانب التجارة كانت هناك وسيلة أخرى لنقل الحضارة وتعرف آثارها تلك هى مسألة الحروب وتبادلها فيما بين الشعوب ثم ما كان يتبع ذلك من استعمار سياسى ونفوذ أدبى . لقد رأينا بابل وأشور تتناوبان فى غزو فلسطين ، وسوريا ، وفينيقيا ، وأرمينية وكثيرا ما امتد سلطانها على تلك الولايات التى كانت فى حقيقة الأمر ملتقى هاما لليونان سواء من كان يجىء منهم بقصد التجارة أم من يجىء مهاجرا طلبا للعيش ورغبة فى الاستيطان . ولقد رأينا كذلك كيف تجاوز سلطان سرجوس الثانى حدود آسيا ، ووصل حدود قبرص وكل سكانها من اليونان ، فالحرب فى الحقيقة لم تكن فقط عند القدماء مجرد عملية للبحث عن مغنم مادى وراء الأسلاب أو عن كسب أدبى وراء إحراز نصر على الاعداء ، بل كانت فى نفس الوقت وسيلة من وسائل الاتصال ، وميدانا من ميادين الخبرة والدرس والمعرفة . ولعل أوضح شاهد على ذلك هو ذلك النظام الذى كان يتبعه الاسكندر الاكبر فى حروبه وتلك النتائج التى تولدت عن تلك الحروب ؛ إذ كان يصحب معه العلماء ، والأدباء ، ورجال الفن ؛ وكان يحرص على التعرف بما فى البلاد المفتوحة من آثار عقلية وعلمية . وكان من نتيجة ذلك أن انتفع اليونانيون أنفسهم بتلك المعارف الاجنبية

بقدر ما انتفع أهل تلك البلاد المفتوحة بمعارف اليونانيين وآدابهم .
ولا نستطيع الزعم هنا بأن كل حروب القدماء كانت على نمط حروب الاسكندر ؛ ولكن كان هناك وجه من الشبه إلى حد ما قد لاحظناه فى الحروب التى نشبت بين بابل وأشور ، ثم بين الفرس والبابليين . ولعل مما يجدر بنا أن نلاحظه أيضاً فى هذه المناسبة هو أن هذه الحروب كان يتبعها فى غالب الاحيان ظاهرة سياسية امتازت بها حكومة بابل وأشور على الخصوص ، وكان لها أثر بالغ فى نشر الحضارة ونقل العلوم والمعارف من ولاية إلى أخرى ، وها نحن أولاء حتى الآن لا نزال نرى آثار ذلك فى الحروب الحديثه ؛ التى قامت بين الالمان وغيرهم من الدول الاوروبية ، أو بينهم وبين الامريكيين ؛ تلك الظاهرة هى السياسة التى كان يجرى عليها أعظم الملوك الفاتحين من نقل أهل البلاد المفتوحة إلى بلاد أخرى يعيشون فيها ويمتزجون بأهلها رجاء أن تضعف وطنيتهم ، ويفتر تمردهم وعصيانهم ولم يكن سبي نبوخد نصر ، ملك بابل ، لليهود فى المرة الأولى والثانية إلا صورة من تنفيذ تلك السياسة . ولقد عرف السبي بسبي بابل ، وذلك حين رجع الملك نبوخد نصر إلى عاصمة ملكه بعد أن حارب اليهود فى أورشليم ومعه فى السبي الأول عشره آلاف من اليهود ، معتقداً أن هذا العدد من الطبقة المستنيرة منهم كفيل بأضعاف شوكة الباقين وخضوعهم لرجال الأدارة الذين نصبهم الملك عليهم ؛ ولكن ذلك لم يؤثر فيهم ، ولم يقض على ثورتهم تماماً ؛ إذ لم يكد يستقر الامر بعض الشيء حتى ثارت أورشليم مرة ثانية على حكم بابل فأسرع اليها بنوخد نصر وأخمد ثورتها بكل قسوة ، وعاملها أسوأ معاملة ، فترك جنده فى المدينه ينهكون الحرمات ، ويعيثون فيها فساداً ؛ ولقد صور اليهود أنفسهم ماحقهم فى هذه المرة من خسف وتعذيب

وما نكبوا به من خسارة فى الاموال والارواح تصويراً يفيض قسوة وبشاعة وظلماً ؛ ولكن بنوخذ نصر لم يكفه هذا بل ساق أمامه كل سكانها تقريباً أسرى كى يبعدوا نهائياً عن وطنهم الاصلى ، وبعد مائة عام قضاها اليهود فى بابل مختلطين بأهلها ، ومتفهمين لآثار حضارتها جاءهم الفرس فحررهم وتركوهم يعودون إلى وطنهم الاول ، أورشليم ؛ فعاد منهم من عاد ، وبقى منهم فى بابل من تربطه بها صلة ؛ ومن السهل أن ندرك العقلية التى رجع بها اليهود إلى وطنهم الأول ، والتراث الواسع الذى ورثوه من آثار الحضارة البابلية ؛ وأظننا بعد هذا نستطيع أن نتصور الاثر البعيد المدى الذى يترتب على عودة هؤلاء اليهود بعد تلك المدة الطويلة التى قضوها بين البابليين ، وفى أحضان الحضارة البابلية . وهكذا كان أثر الحروب قديماً فى نقل الحضارة من بيئة إلى بيئة أخرى ؛ ولقد استمرت الحروب تؤدى هذه المهمة وتخدم ذلك الغرض حتى العصور الحديثة ؛ غير أن طرق نقل الحضارة كانت تختلف باختلاف العصور ، والمحاربين ؛ فمرة تنقل الحضارة عن طريق الاسرى ، ومرة تنقل عن طريق الطبقة المستنيرة التى تصحب القائد ، ومرة تنقل عن طريق العلماء المضطهدين فى بلادهم بواسطة حاكم مستبد أو فاتح حربى جديد . وقد لاحظنا مثلا كيف كانت تنقل الحضارة من بابل إلى بلاد اليهود ؛ أما نقلها عن طريق حروب الاسكندر فكان يتم بواسطة العلماء والادباء الذين يصحبون القائد فى فتوحه ؛ وإذا القينا نظرة على حرب الروم وجدنا أن قواد الروم كانوا يستولون على الطبقة المثقفة فى البلد المفتوح ويرسلونها إلى روما كما يرسل السبى لنشر علمهم ومعارفهم فى العاصمة ، وكذلك كان يحصل منهم فى بعض الاحيان أن يستبدوا فى أحكامهم ويقسوا فى معاملتهم لبلد ثائر أو لطائفة متمردة

فيفر علماء ذلك البلد من وجه الاضطهاد باحثين عن مقر آمن وحياة هادئة كما حدث فى عهد كسرى أنو شروان الذى فتح أبواب مملكته للفارين من بيئة فلسطين بسبب اضطهاد امبراطور الروم جوستينيان . ومن ذلك أيضا ما كان يصنعه الإسلام فى عهده الأول حينما كان يكلف الأسرى من المشركين بتعليم عدد من المسلمين .

وإذا أردنا أن نلمس صورة لتلك الظاهرة السياسيه القديمة فى العصور الحديثة ، فما علينا إلا أن نذكر ما صنعه الأمريكيون مع أسرى الألمان فى الحرب الأخيرة ، فقد كانوا يتركونهم شبه أحرار فى بعض الولايات المتحدة ، يختلطون بأهلها ويقفون على ما هم فيه من حرية فى القول ودعة فى الحياة ، وبعد عن ضغط السلطان واستبداد الحكم الدكتاتورى المطلق ؛ ولا بد وأن يحدث من وراء ذلك انفعال مشترك بين الألمان والأمريكيين يكون من نتيجته تبادل المعارف والأفكار ؛ وكذلك صنيع الروس والانجليز مع علماء اليهود ومفكريهم الذين فروا من ألمانيا أثناء الثورة النازية .

بعد هذا العرض السريع وتلك الصورة التى رسمناها لنظام التجارة والحروب بين شعوب الشرق الأدنى من ناحية وبينهم وبين اليونانيين من ناحية أخرى ، لا أظننا فى حاجة إلى البحث عن عوامل أخرى يمكن أن يكون من ورائها نقل آثار الحضارة البابلية والأشورية إلى بلاد اليونان . فلنترك إذن الكلام عن السؤال الأول مكتفين بهذا القدر ولننتقل إلى الكلام عن السؤال الثانى محاولين أيضاً أن نبين فى إيجاز رؤوس المسائل حتى لا نتعرض للبعد عن موضوعنا الأساسى ؛ فلننظر الآن فى مدى تأثير هذه الحضارة اليونانية . وذلك يستلزم بحكم الضرورة عرضاً موجزاً لأهم الآثار الفكرية عند اليونان لكى نرى من خلال ذلك مبلغ أثر الشرق فى تلك

الآثار . وسنحاول فى تعرضنا لهذه الآثار أن نلقى بعض الضوء على أولياتها وعلى رسم الهيكل العام لموضوعها ، ثم نستخلص ، ما أمكن ، وجه الشبه بينها وبين مثيلها فيما رأيناه أثناء درسنا للحضارة البابلية ـ الأشورية .

قصص الملاحم :

يعتبر الشعر القصصى من أوائل الأنواع الأدبية فى الشعوب ذوى الآداب الأصيلة ، على أن هذا ليس بالقاعدة المطردة التى لا يمكن مجانبتها . بل إن هناك عوامل أخرى قد تؤثر فى قلب ذلك الوضع فتجعل الشعر القصصى فى مرحلة متأخرة عن الشعر الغنائى والنثر بأنواعه المختلفة ، فمن أمثلة الشعوب التى نشأت فيها الآداب نشأة طبيعية شعب السومريين ثم البابليين ويمكن أن نعتبر من ذلك أيضا شعب اليونانيين ، ومن أمثلة الشعوب الأخرى التى لم تنشأ فيها الآداب نشأة طبيعية بعيدة عن التأثر الأجنبى شعب اللاتينيين ، والشعوب العربية بعد أن تعددت مواطنها واتصلت بشعوب أخرى لها ماضيها الأدبى . والآن لكى نفهم الأثر المتبادل بين البابليين واليونانيين فى هذا النوع الأدبى ينبغى أن نعود قليلا إلى الوراء فنذكر باختصار بعض ما ذكرناه بالتفصيل عن مظاهر الحضارة البابلية والأشورية : لم ننس بعد أن قصص الملاحم قد وجدت ونمت عند البابليين ، وقد سبقت الاشارة إلى ملحمة هامة مشهورة هى ملحمة جلجميش ، وسبقت الاشارة كذلك إلى أهم العناصر التى تحتوى عليها هذه الملحمة ، وأهم الأحداث التى تتكون منها والإنسان لا يكاد ينتهى من قراءة أوليات الملاحم اليونانية . حتى يحس بتشابه عجيب بين هذه الملاحم وما عرف من أمثالها عند البابليين ومن سبقهم من السومريين .

وهذا التشابه يوجد بوجه خاص فى البطل العام للملحمة ، وفى العناصر

التى تعتمد عليها ، ولعل أهم العناصر هو ما نراه من تدخل قوى غير طبيعية فى أشخاص الملحمة ، وهـكذا نجد أحداث القصة تدور بين أشخاص عاديين وآخرين لهم سمات الآلهة : ولسنا نستطيع تحليل ملحمة جلجميش عند البابليين ولا ملحمة الأليادة أو الأوديسا عند اليونان ، ولا تلخيص هذه الملاحم وتتبع تاريخها من حيث النشأة والتطور حتى استطاعت أن تنضج وأن تأخذ مكانتها فى الميدان الأدبى إذ أن ذلك ربما يبعدنا عن الهدف الذى نرمى اليه ، وهو العرض العام لهذه الملاحم كى نتبين أثر البابليين والأشوريين فى ملاحم اليونان .

وحسبنا أن نعلم بالتقريب الزمن الذى تألفت فيه كل من هذه الملاحم الثلاث

١ - أما ملحمة جلجميش فهى مكونة من جملة قصص تألفت فى عصور مختلفة يرجع تاريخ بعضها إلى عهد سومر ، أى إلى مايزيد عن أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وقد وجدت هذه القصص فى مكتبة أشور بانيبال ، مجموعة فى اثنتى عشرة لوحه من الطين لا تزال موجودة الآن فى المتحف البريطانى وقد ذكر صاحب كتاب « قصة الحضارة » الفقرات التى وجدت منها فى الجزء الثانى [1] ، ويستطيع القارىء أن يرجع إليها إن رغب فى الاستزادة ؛ على أننا قد ذكرنا منذ قليل ملخصا واضحا بعض الشىء عنها .

٢ ، ٣ أما ملحمة الأليادة والأوديسا فهما مكونتان أيضا من جملة قصص ، يرجح أنها ألفت فى عصور مختلفة ، ولكن الفرق الذى يبدو واضحا فيها هو أنها ذات وحدة ، عكس ما نراه فى ملحمة جلجميش المفككة العناصر ، المتباعدة الأجزاء . ولم يهتد الباحثون حتى الآن إلى دليل يقينى

---

[1] الجزء الثانى من قصة الحضارة ص ٢٣٩ و ٢٤٣

بشأن الملحمتين اليونانيتين ونسبتها إلى شاعر مخصوص .

ويغلب على الظن أن هاتين الملحمتين قد نسبتا إلى الشاعر اليونانى الكبير هوميروس *Homerus* ، لأنه هو الذى جمع هـذه القصص ، ونظمها فى هذا الأسلوب الشعرى الجميل ، بعد أن كانت تتداولها الألسنة وتقص فى المجالس بواسطة شعراء شعبيين يتنقلون من مدينة إلى أخرى ، شأن الشعراء الذين لا نزال نراهم فى قرى مصر وريفها ومعهم آلتهم الموسيقية المعروفة (الربابة)

ويرجع تاريخ أقدم هذه القصص إلى القرن العاشر قبل الميلاد ، ومع ذلك فقد اصطلح مؤرخو الأدب على أن يذكروا تاريخ هاتين الملحمتين فى القرن التاسع قبل الميلاد . والنشأة التاريخية لهاتين الملحمتين اليونانيتين تأتى متأخرة عن نشأة الملحمة البابلية ـ السومرية بقرون عدة .

وإذا كانت المقارنة التاريخية بين هاتين الملحمتين وملحمة جلجميش تستطيع أن تلقى بعض الضوء على أثر الملاحم البابلية فى الملاحم اليونانية ، فإن هناك ملاحظات أخرى تزيد فى توضيح هذا الأثر ، بل ربما لا تترك مجالا للشك فى إثباته .

ذلك هو ما عرف من أن هوميروس قد نظم هاتين الملحمتين فى أزمير أو فى منطقة قريبة منها هى جزيرة خيوس *chios* أى فى منطقة آسيا الصغرى التى كانت تعتبر موطناً ثانيا للحضارة البابلية ـ الأشورية ، وكذلك ما هو معروف من أن هاتين الملحمتين تتغنيان ببطولة أشيل *Achille* وغيره من أبطال اليونان الذين جاءوا إلى آسيا مع المهاجرين من بلاد اليونان . يضاف إلى هاتين الملاحظتين ما أثبته التاريخ وما تقدمت الإشارة إليه من أن بلاد

آسيا الصغرى والجزر الصغيرة المحيطة بها فى بحر أيجه كانت مأوى للمهاجرين والمضطهدين سياسياً فى اليونان كما كانت ميداناً لنشاطهم التجارى ، ومتنفساً لمن تضيق أمامه سبل العيش فى موطنه الأصيل ؛ وليس من السهل على التاريخ أن يقدم لنا بالضبط تحديدا لأول هجرة يونانية من هذا النوع ، ولا الغرض الأساسى الذى كانت من أجله تلك الهجرة ؛ غير أن كل مايستطيع أن يقوله لنا ذلك التاريخ هو أن اليونانيين أمام ظروف طبيعية واجتماعية فى بلادهم القليلة الموارد قد اضطروا إلى الهجرة منذ زمن بعيد .

وأن حركة الهجرة إلى آسيا قد بدأت منذ عصور قديمة ، ولكنها كثرت وأخذت شكلا إجماعيا إبتداء من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، أمام الاضطهادات السياسية العنيفة رغبة فى توحيد البلاد وإخضاعها لسلطان منظم واستمرت هذه الهجرات تتوالى فى ازدياد حتى القرن التاسع قبل الميلاد تقريبا . ومما يدل على أن حركة الهجرة عند اليونان قد بدأت مبكرة قبل القرن الثالث عشر بكثير هو أن أولئك المهاجرين الذين جاءوا فى شكل جماعات قد وجدوا أقرباءهم ومواطنيهم مستقرين فى البيئات الآسيوية وممتزجين بأهلها من قبل فلم تقم أمامهم صعوبات فى التعرف بالبيئة ولا فى ممارسة النشاط الذى يمارسه سكان البلاد الأصليين .

الأشعار الدينية :

لم يقف أمر التأثير الأدبى بين اليونانيين والبابليين ـ الأشوريين على ظاهرة الشعر القصصى فقط ؛ بل إن هناك ظاهرة أدبية أخرى لها صلة وثيقة بالملاحم ويمكنها أن تساهم بنصيب فى بيان تأثر اليونانيين بالحضارة البابلية ـ الأشورية ، تلك هى الأشعار الدينية التى كانت تنشد للتغنى بمدح

الآلهة أو للإشادة بما كانوا يتوهمونه صادراً عنها من عفو ورحمة وإفضال ؛ هذه الأناشيد الدينية وجدت عند البابليين ، كما رأينا منذ قليل ، وكانت بمثابة طقوس يقوم بها الكهنة ويشاركهم فيها جمهور الناس فى أغلب الاحيان وقد كشفت لنا الاثار عن صور منها ، وأظهرت بعض ما كانت تتناوله تلك الاناشيد من أفكار وابتهالات ؛ ولقد كانت بطبيعة الحال فى أول أمرها ساذجة بسيطة شأن كل ظاهرة أدبية فى نشأتها الأولى ، غير أنها لم تلبث على تلك الحالة بل أخذت فى الاتساع والتنوع شيئا فشيئا ثم إنها على مر الزمن قد نالها شىء من التطور حتى لقد أصبحت تعتبر بداية طيبة لمسرحيات دينية . هذه الظاهرة الأدبية فى نشأتها وفى موضوعها وفى أهدافها القريبة والبعيدة ، وفى تطورها تكاد تشبه تماما ما ظهر عند اليونانيين من تمثيليات دينية كانت فيما بعد نواة لما عرف عندهم من أدب مسرحى . ثم مالنا نذهب بعيداً فى تلمس التشابه بين هاتين الظاهرتين الأدبيتين ونحن نجد كثيرا من آلهة البابليين ، وعقائدهم وأفكارهم ، وطقوسهم وأساطيرهم الدينية قد انتقل كما هو إلى بلاد اليونان سواء أكان ذلك عن طريق الليديين ، أم عن طريق الفينيقيين ؛ أم عن طريق المهاجرين والتجار من اليونانيين أنفسهم ؛ وسنرى بعد قليل صدى ذلك واضحا فيما انتجه اليونانيون من أدب ومانظموه من قصائد فى هذا الميدان ؛ ولعل أولهم وأولاهم بالذكر هو الشاعر هيزيود .

وإذا كان هذا الفن المسرحى قد نضج وتعددت موضوعاته عند اليونان واتخذ شكلا انسانيا بدل أن كان حبيساً فى حرم الالهة ومقصوراً على الكهنة ورجال الدين ثم نبغ فى التأليف فيه أدباء لا يزال العالم يدين لهم بكثير من الافكار والتوجيه أمثال إيشيل *Esehyle* ، وسوفوكل *Sophoele* وأوريبيد *Euripide* نقول إذا كان الأمر كذلك عند اليونان فإنما ذلك

من عمل الزمن ، يضاف إليه أثر العقلية اليونانية المنظمة المنطقية . أما نواته وأولياته فهى صورة لما كان موجوداً عند البابليين ؛ ولقد أثبت تاريخ الأديان القديمة أن الآلهة كانت تنقل من بيئة إلى بيئة بما لها من صفات وطقوس وتعاليم ؛ ولعل أوضح مثال لذلك هو ما حدث بالنسبة لأيزيس ، آلهة المصريين القدماء حينما وصلت إلى روما وأخذت مكانها بين آلهة الرومانيين ؛ إذ أنها لم تحتفظ بسماتها وطقوسها وأعيادها فقط بل إن أتباعها وعبادها كانو يحتفظون كذلك بمظهرهم وملبسهم وعاداتهم بالرغم مما كانوا يتعرضون له من نقد وسخرية واحتقار . (١)

والآن فلنتجه قليلا نحو فن التاريخ لنرى أيضاً ماذا يمكن أن يكون للحضارة البابلية من أثر على اليونان فى هذه الناحية ، وهنا أيضا نبيح لأنفسنا أن نعود إلى الوراء قليلا لنرى بالإجمال ماذا كانت عليه حالة هذا الفن - لم يكن التاريخ قد وضعت له بعد قواعد وثبتت أسسه العلمية حتى نطلق عليه لفظ (العلم) - عند البابليين . لعل أهم أثر ، من ناحية الكم ، من الآثار الفكرية التى سجلها البابليون وتركوها لمن جاء بعدهم هى السجل التاريخى الذى وجد ضمن ما وجد من آثارهم ، إذ أن المنقبين قد عثروا على آلاف من الألواح الطينية قد كتب عليها تاريخ الملوك ، وغزواتهم ، وأهم ما خلدوه من أعمال وتركوه من آثار . وكان تسجيل ذلك كله تسجيلا جافا مختصراً لا يعرض لتفصيل الحوادث ولا لتعليلها ، ولا يحاول أن يربط فيما بينها ؛ وبجانب هذه المجموعة من الألواح الطينية الخاصة

---

(١) انظر *d'isis et d'osiris par plutarque* و

les religions dans le paganisme romain par F. cumont; 4éme édition: paris 1929 histoire du lulte des dininités d'alexandrie paris 1883 par georges lafaye.

بالملوك وأعمالهم وما خلفوه من بعدهم نجد كذلك تاريخ كثير من المعابد وما تعرضت له من أحداث بسبب اضطراب السياسة وشن الحروب ؛ وطريقة تسجيل تاريخ المعابد لا تختلف فى شىء عن طريقة تسجيل تاريخ الملوك.

ولم تهمل كذلك هذه الصحائف تاريخ بعض المدن وما وقع فيها من أحداث وما أصابها من رقى واتساع أو من تدهور وخراب . كل هذا كان موضوعا للتاريخ عند البابليين ، ولقد اختص بتسجيله فريق منهم ؛ ولعل ذلك كان بدافع من الملوك ورجال الحكم ، وكذلك بوازع من رجال الدين .

والذى لا شك فيه حتى الان هو أن أهم مؤرخ بابلى هو (بروسس) إذ أنه تناول فى تاريخه قصة الخلق الأولى للعالم ثم انتقل منها إلى خلق الإنسان : مسألتان قد شغلتا كل مفكرى العالم القديم ، ولقد حاول كل شعب أن يجد لهما حلا يطمئن إليه ويفسر به طبيعة الوجود فى أصله الاول ولم يقتصر هذا المؤرخ البابلى على سرد معارفه بل إنه فى أثناء قصصه ذكر كثيراً من التفاصيل التى تعتبر من أهم المصادر للأساطير الدينية ؛ وقد استغل هذه التفاصيل من جاء بعده سواء اكان من المؤرخين ام من رجال الدين . وبقى امر التاريخ فى بابل قاصراً على تلك السجلات وما فيها من معلومات مبعثرة ، ومعارف لا رابط بينها حتى انتهت الدولة البابلية .

وحينما ورثت أشور هذا التراث التاريخى عملت على تنميته فأضافت إليه من مجهود علمائها حزءا هاما هو التعريف بالآلهة وذكر انسابها . وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك ، وتقدم ايضا تعليلنا لهذا الاتجاه عند الأشوريين ؛ وإذن فالناحية الدينية وما يتعلق بها كانت هى الشاغل الأكبر عند هؤلاء القوم ، وتأريخ ذلك كان هم المؤرخين .

ولعلنا ندرك من هذا العرض السريع أن موضوع الخليقة الأولى ،

وموضوع أنساب الآلهـــة التى كانت تعد بالآلاف قد شغلا الفكر البابلى والأشورى ونالا من المؤرخين عناية واهتماما عظيمين . وعلى ضوء ذلك فلننظر الآن .

ماذا فعل مؤرخو اليونان ؟ .

إن باكورة المؤلفات التاريخية عند اليونانيين لا تكاد تتجاوز هـــذين الموضوعين ، فهناك شاعر مشهور يعتبر من أوائل الشعراء اليونانيين اسمه هيزيود *Hésiode* قد ابتكر نوعا جديداً من الشعر ، هو الشعر التعليمى وقبـــل أن نتعرض لحياة هذا الشاعر وما يمكن أن يكون هناك من مؤثرات بينه وبين مظاهر الحضارة البابلية ـ الأشورية نحب أن نستعرض فى اختصار موضوع ديوانه الشعرى ونحلله جملة لنرى وجه الشبه بينه وبين تاريخ البابليين ـ الأشوريين .

وجد هيزيود بعد هوميروس بحوالى مائة عام ؛ وقد أخذ هذا الشاعر الموضوعين السابقين ـ الخليقة الأولى وأنساب الالهة ـ ونظم فيها ديوانا كبيرا من الشعر سماه « تيوجونى ـ *Théogonie* » يبدأ الديوان بما يزيد عن مائة بيت من الشعر كمقدمة ، ثم يذكر بعد ذلك أن العالم فى أول أمره كان فضاء لا نهاية له ولا شىء يعمره ثم خلقت الأرض وهى تحمل الجحيم فى ثناياها ، ومن الأرض خلق إله هو أجمل الالهة على الاطلاق ، اسمه إيروس ـ *Eros* . ومنذ ذلك الحين يصبح هذا الاله صاحب الأمر والنهى لا فى خلق غيره من الآلهه الأخرى فقط بل فى خلق غيرها من الجمادات أيضا ؛ وقد يمر القارىء على هذه القصة الساذجة مروراً عابرا ؛ ولكن فكرة الخلق فى ذاتها تعتبر بعيدة الدلاله إذ أن معنى ذلك أن الارض هى أساس الخليقة ، إذ منها تولدت الآلهـــة وتناسلت بأشراف أيروس ,

وهكذا يتتبع الشاعر هذه المخلوقات الأولى من العالم العلوى حتى يصل إلى المخلوقات من الجمادات كالجبال والبحار ، والغابات ، والوديان ، والأنهار ؛ ثم يتمشى مع تلك المخلوقات حتى يصل إلى صورة واضحة المعالم عن الكون وما فيه من كائنات .

والشاعر فى كل ذلك لم يأت بجديد ، إذ أنه جمع الأساطير التى كانت معروفة ومتداولة بين الناس فى أيامه ورتبها ثم عرضها فى أسلوب شعرى جميل ؛ وإذن فنظرية الخليقة الأولى فى حد نفسها ، وفكرة تعدد الالهة وتناسلها كانت موضوعا للتاريخ قبل الشاعر هيزيود بأكثر من ألف سنة وقد رأينا طرفا منها فى المظهر الدينى من الحضارة البابلية ـ الأشورية هذا هو ما يهدينا إليه تحليل ديوان هيزيود .

وإذا عرفنا فوق ذلك أن هذا الشاعر كان واحداً من اليونانيين الذين هجروا بلاد اليونان واستقروا فى آسيا الصغرى ، وإذا عرفنا كذلك أنه تتلمذ على أحد القصاص اليونانيين فى آسيا لما وجدنا كبير عناء لكى نفهم المصدر الذى يمكن أن يكون قد استقى منه هيزيود هذه القصص وتلك الأساطير التى سجلها فى ديوانه بالرغم مما حاوله بعض مؤرخى الاداب الاوربيين من إيجاد صلة بين هذه القصص وما كان معروفا فى بلاد اليونان ونظن أن هذه المحاولة من مؤرخى الغرب كانت بسبب تناسيهم للصلات القديمة بين اليونانيين والشرقيين ، ولعدم معرفتهم معرفة واسعة لمظاهر الحضارات القديمة فى وادى دجلة والفرات ، إذ أن هذه المعرفة مدينة بكثير للمكتشفات الحديثة فى ذلك الوادى وهى لم تتسع ويتنافس فيها منقبو الغرب إلا فى القرن العشرين الميلادى وهذه الأساطير ليست فى الواقع الا قصصاً بابليا قد غزا وادى دجلة والفرات ثم انتشر فى آسيا الغربية حتى وصل الى

بلاد الحيثيين والفريجيين ، والليديين فى كل آسيا الصغرى . وقد رأينا فيما مضى كيف كانت هذه الشعوب تعيش مختلطة متصلة ، وكيف كانت بلادها لا تعرف الحدود الجغرافية السياسية المضبوطه ، وكيف كان يتردد فيها بسرعة صدى ما يحدث فى وادى دجلة والفرات .

ومن بعد هيزيود جاءت طبقة من مؤرخى اليونان لم يكن لهم شأن كبير فى هذا الفن ، ولكنهم نحوا بالتاريخ نحوا آخر فبدأوا يصفون أهم المدن ويذكرون تاريخ كل مدينة وما أصابها من أحداث هامة أضعفت من شأنها أو غيرت من سياستها ولسنا نستطيع أن نتناول هؤلاء المؤرخين جميعا بالذكر وبتحليل آثارهم كما صنعنا بالشاعر هيزيود ، ولكن يهمنا أن نعرف من هـذه الطبقة اثنين : أحدهما كان أميرالا بحرياً فى خدمة دارا ملك الفرس ، وهذا فى نفسه دليل واضح على مبلغ الصلات بين الشرق والغرب ، وتبادل المعارف بين اليونانيين والاسيويين . واسم هذا الاميرال - سيلاكس - *Seylax* .

وقد أتاحت له وظيفته الطواف بكثير من مدن الشرق وبلاده ، بل ان ملك الفرس نفسه قد كلفه الطواف بشواطىء المحيط الهندى ووصف ما يجده من موانىء ومدن . ولسنا نعرف بالضبط الغرض الذى كان يهدف اليه ملك الفرس من وراء ذلك الاستطلاع ، ولكننا ندرك قيمة تلك الرحلة الاستكشافية من الناحيه العلمية ، ومبلغ ما بذله الاميرال اليونانى من جهد فى أداء المهمة التى وكلت اليه . هذا وعدم تحديد العلوم عند القدماء قد ألزم هذا الاميرال أن يسجل كل ما يراه وما يسمعه أثناء طوافه بشواطىء المحيط الهندى .

ولذا فقد كانت كتابته عن هذه المدن ، وعن تلك البلاد تتجه إلى الوصف الجغرافى من النـاحية الطبيعية والبشرية ، أكثر من اتجاهها إلى الوصف التاريخى . وهذا مادعا العلماء الذين تعقبوا آثار اليونانيين إلى أن يترددوا

فى موقف هذا الأميرال بالنسبة لآثاره العلمية : أيضعونه فى صف الجغرافيين أم فى صف المؤرخين ؟ ولكن بالرغم من هذه النزعة الجغرافية فقد كان ما كتبه هذا الأميرال مصدرا من أهم المصادر التى قرأها ، وأعتمد عليها أرسطو بالنسبة لما كتبه عن الشرق فلسفيا وجغرافيا وسياسيا .

هذا هو مايختص بالمؤرخ الأول . وأما المؤرخ الثانى فهو « هيكاتية *Hecatée* » ، وكان طابع حضارة الشرق الأدنى فيه أشد عمقا وأكثر وضوحا مما كان فى سابقه ذلك لأنه نشأ فى آسيا الصغرى وكان واحدا من اليونانيين الذين هاجروا إليها واستقروا فيها مدة طويلة ، واختلطوا بمن فيها وعرفوا الكثير من آثارها العلمية والفنية والأدبيه .

ثم أنه فوق ذلك كان معروفا بالطواف والأسفار ، فقد ذهب إلى أوروبا وزار كثيرا من بلادها ، ثم رحل إلى آسيا ورأى أهم أقطارها ، ولم يكتف برحلاته العديدة فيما كان معروفا من العالم القديم فى قارة آسيا وأوروبا ، بل أنه صمم على رحلة يقوم بها فى افريقيا حتى تكمل مشاهدته لكل البيئات المعروفة بثقافاتها ، ولذا فانه رحل إلى مصر أخيرا وزار كثيرا من مدنها . وقد ولد هذا المؤرخ حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وعاش حتى أوائل القرن الخامس وقد ترك مؤلفين كبيرين أحدهما تاريخى ، موضوعه الأنساب ، والآخر جغرافى . موضوعه وصف الأرض وقد اتخذه هيرودوت مرجعا من أهم مراجعه ، واعتمد عليه فى كثير من المعارف، التى لم يستطع أن يشاهدها بنفسه أو يسمعها من مصادرها الحقيقية . وكما تردد صدى معارفه عند هيرودوت تردد صداها كذلك عند غيره من المؤرخين والجغرافيين اليونانيين الذين جاؤا من بعده ، ولم يتيسر لهم رؤية هذه البلاد ولاجمع تلك المعلومات .

ان دراسة حياة هذا المؤرخ ، وقراءة ماحفظه الزمن من مؤلفيه تتيح لنا فى حدود هذا البحث التى رسمناها والتزمناها فيما مضى أن نسجل هاتين الملاحظتين .

أولا - إنه نشأ فى أحضان الحضارة الشرقية فكانت بداية معارفه وأوائل معلوماته مما يمس الشرق وتنتجه العقلية الشرقية .

ثانيا - إن أكثر طوافه كان فى بلاد الشرق ، وأهم أفكاره كانت عن الشرق وآثاره ، ولقد سار فى هذا على سنة أسلافه ، وضرب المثل لمن جاء من بعده فأصبحنا نرى العلماء والفلاسفة يفدون إلى الشرق يدرسون بيئاته ويتزودون من معارفه ثم يعودون إلى وطنهم الأصلى ، وقد نضجت أفكارهم واتسعت آفاقهم فيأخذون فى تنظيم تلك المعارف ونشرها بين تلاميذهم ومواطنيهم .

وقبل أن ننتهى من الكلام عن هذا الجغرافى المؤرخ لايفوتنا أن نشير إلى اللقب الذى منحه مؤرخو الآداب لمؤلف كتاب الأنساب ووصف الأرض إذ أن فى ذلك اعترافا منهم بمكانته فى ذلك الميدان العلمى ، وبالتالى فهو اعتراف بأثر الشرق فى معارف اليونانيين وثقافتهم ، فقد اصطلحوا على أن يلقبوه بأبى الجغرافيا لأنه أول مؤلف جغرافى جدير بهذه التسمية عند اليونانيين . وسنرى الآن ماذا حدث فى ميدان التاريخ بصفة خاصة عند من جاء بعد هيكاتية .

فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد يظهر أكبر مؤرخ يونانى دون منافس ذلك هو هيردوت *Hérodot* ، وقد لقب بحق « أبو التاريخ » ، إذ أنه كان ولايزال من أهم المصادر التى يعتمد عليها المحدثون فى معلوماتهم عن القدماء بالرغم مما يوجد فى تاريخه من ثرثرة وخيال واسع .

نشأ هيرودوت حوالى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد ، فى مدينة هاليكارناس - *Halicarnasse* . التى كانت شديدة التأثر بحضارة البابليين فى آسيا الصغرى بل إنها كانت مصبوغة بتلك الحضارة حتى أننا نستطيع أن نرى فيه امتدادا لما كان يحدث فى بيئة بابل وأشور .

وعلى سنة أسلافه قام هيرودوت بأسفار عديدة وطواف كبير ، غير أنا كان أشد من أسلافه شغفا بالشرق وانجذابا إلى الشرق ، ولعل أول رحلة قام بها لكى يشبع نهمه العلمى كانت سفرته إلى مصر . وهناك استهوته البيئة وآثارها ، والمعاهد العلمية ونشاطها ، والمجتمع المصرى وأنظمته فأخذ يدور فى انحائه وينلمس المعرفة أيا ماكان نوعها وحيثما كان مصدرها .

وفى وادى النيل استمر ينتقل من مدينة إلى أخرى حتى وصل إلى جزيرة الفيلة فى أقصى الجنوب . وهناك كان يختلط بالشعب ويجالس القسس والعلماء والفلاسفة . يسمع أقوال هؤلاء وأولئك ، ثم يلقى عليهم مايدور فى خلده من اسئلة ونظريات ، مناقشا طورا ، ومستمعا ومتفهما طوراً آخر ، ولم تقف عنايته ومهمته فى اثناء تنقله فى مختلف الأوساط العلمية والاجتماعية عند هذا الحد ، بل إنه كان فى اثناء ذلك يحلل مايرى ، ويعى مايسمع ولعله كذلك كان يسجل بعض مايلاحظ . ولقد ظهر أثر ذلك كله فيما كتبه بعد عودته إلى وطنه عن مصر وآثارها ، وعن المصريين شعبا وحكومة وحضارة ودينا .

وأهم أسفاره الاستطلاعية بعد مصر هو سفره إلى بلاد الفرس وهناك أيضا استمر ينتقل من مدينة إلى أخرى حتى تجاوز مدينة السوس شرقا . وبقى ينتقل فى جزرهم فى البحر الأبيض المتوسط وهكذا كان صنيعه فى مملكة الفرس الواسعة بما فيها بابل وأشور صورة لما كان يصنعه فى وادى

النيل ؛ فقد رأى من غير شك كثيراً من آثار الحضارة البابلية ـ الأشورية ولاحظ ما أضافه الفرس على تلك الحضارة القديمة ، وأدرك مدى ما كان منتشراً فى تلك البيئات الشرقية من أفكار وعلم وأدب وفن ورياضة ودين . وثمرة هذه الأسفار الطويلة كانت مؤلفه التاريخى العظيم الذى لا يزال حتى الآن مصدر الكثير من المعارف عن الحضارات التى ورثناها عن العالم القديم .

ونحن لو تركنا جانباً هذه الملاحظات العامة عن هيرودوت وعن نشأته وثقافته وصلاته بهذه الأمم الشرقية القديمة ، وتناولنا نصوصه التاريخية بالدرس والتحليل لوجدنا أن أهم ما كتبه كان خاصاً بالشرق ، وتاريخه ، ومعارفه ، وآثاره ؛ ولقد كان من حسن الحظ للشرق ، قبل أن يكون للغرب ، أن حفظ الزمن للأجيال القادمة هذا الأثر التاريخى فأظهر فى وضوح ما كان من صلات واختلاط بين الشرق والغرب ، ثم ما كان من تبادل فى الفكر ، وتفاعل فى الإنتاج بين هذين العالمين .

وفى ثنايا ذلك يتضح لنا إلى أى حد كانت عناية اليونانيين بالشرق ، ومعرفتهم لما انتجه ذلك الشرق من آثار علمية . وأدبية . وفنية . ولعل فى تسمية الرومانيين للأغريق فيما بعد بالشرقيين دليلا واضحاً على مبلغ تلك الصلات ، وعلى مدى ذلك التفاعل الذى أخذ يتأكد ويزداد كلما تقدم به الزمن حتى وجدنا صداه فى عهد الامبراطورية الرومانية فرأينا مثلا استرابون [1] يكتب مؤلفه الجغرافى العظيم . وديودور الصقلى يؤلف

---

[1] عاش استرابون فى القرن الأول قبل الميلاد وأدرك جزءاً من القرن الأول بعد الميلاد (٦٠ ق م الى ٢٥م) وله مؤلف هوضوعه : دراسات جغرافية ، وله أيضاً مؤلف آخر عنوانه : دراسات تاريخية .

مكتبته التاريخية الواسعة [1] . وكل من هذين الأثرين حافل بدراسة الشرق وشعوبه ، وآثاره الفنية ، ومعالمه الثقافيه . إلى هنا قد رأينا اضواء حضارة الشرق الأدنى فى الآثار الفكرية الأولى عند اليونان ، ورأينا كذلك أن أبا الشعر القصصى ، وأبا الشعر التعليمى ، إن جاز لنا هذا التعبير ، وأبا الجغرافيا ، وأبا التاريخ كانوا جميعاً شديدى التأثر بحضارة الشرق وبين معالمها . هذا وينبغى أن يضاف إلى ذلك نوع الإنتاج العقلى نفسه عند قادة الفكر من اليونانيين ؛ فذلك يرينا بجلاء أن هذا الانتاج قد سبق بمثله أو شبيهه عند البابليين ـ الاشوريين ومن الانصاف أن نقول مع شىء من التجوز فى التعبير إن هؤلاء اليونانيين كانوا تلامذة إلى حد ما للحضارة البابلية ـ الاشورية ، وأن إنتاجهم كان امتداداً طبيعياً لما أنتجه البابليون ـ الاشوريون .

وهناك ناحية أخرى جديرة بالعناية ، هى ناحية التشريع عند اليونان وما كان لذلك من أثر فى البيئة اليونانية ، وصدى فى البيئات الاخرى . فلا تذكر كلمة القانون إلا ويستحضر السامع بجانبها أسم سولون ـ *Solon* ، اكبر مشرع لدى اليونانيين . ولنعد بذاكرتنا قليلا إلى الوراء قبل أن نوضح الاثر المتبادل بين هذا المشرع وبين الحضارة البابلية .

---

[1] وجد ديودور فى القرن الاول قبل الميلاد وله المؤلف التاريخى المشهور المكتبة التاريخية ـ ويحتوى هذا على أربعين جزءاً ؛ وهو عبارة عن دائرة معارف واسعة فى التاريخ والجغرافيا فى مجموعات ثلاث : المجموعة الاولى تشتمل على تاريخ الشعوب المعروفة قديماً سواء منها المتحضر والبربرى حتى حرب طرواده ؛ المجموعة الثانية تشتمل على تاريخ هذه الشعوب من بعد حرب طرواده حتى موت الاسكندر المقدونى والمجموعة الثالثة تبدأ من الاسكندر حتى فتح قيصر لبلاد الغال .

ولقد أشرنا فيما مضى مجرد إشارة عابرة إلى أن أثر قانون حمورابى قد وصل إلى اليونان إما عن طريق التجار من الفينيقيين ، وإما عن طريق اليونانيين أنفسهم ، الذين كانوا يأتون إلى آسيا فى ظروف عديدة ولأغراض مختلفة . ولم يكن من السهل قبل عصر النهضة الحديثة أن يتصور العلماء والباحثون صدى ذلك الأثر ولا مدى ما كانت هناك من صلات علمية أو فكرية بين اليونانيين والبابليين ـ الأشوريين .

ولقد اتضح هذا الأثر بصفة قوية بعد أن عثر المنقبون على قانون حمورابى منقوشاً على اسطوانة من الحجر فى أنقاض مدينة السوس . وعلينا الان أن نجلى هذا الاثر أو نوضح تلك الصلة ، لكى نستطيع أن نلاحظ فى ميدان القانون مثل ما لاحظناه فى ميدان الأدب والتاريخ والجغرافيا ، وحينئذ نكون قد لمسنا أهم بواكير الحضارة اليونانية ورجعنا بها إلى مهدها الأول .

ولعل معرفتنا بشىء من التفصيل عن حياة هذا المشرع اليونانى العظيم تكفينا مؤونة البحث الطويل وتقدم لنا الدليل على تأثر القوانين اليونانية بالقوانين البابلية ، على أن هناك فوق ذلك من المحاولات من جانب رجال القانون ومؤرخيه ما أثبت كثيراً من أوجه الشبه بين القانون اليونانى والشريعة الموسوية من ناحية ثم بينه وبين القانون البابلى من ناحية أخرى ، ولم تكن أوجه الشبه قاصرة على الروح العام فقط بل انها تناولت بعض مواده أيضاً .

لم يكن سولون من يونانيى آسيا الصغرى ، وإنما كان من أسرة ارستقراطية أتينية . ولد حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وربما كان ذلك فى سنة ٦٤٠ . وبالرغم من كرم أصله فقد نشأ فقيراً ، إذ أن والده كان قد

فقد كل ثروته ، فاضطر هو إلى أن يشتغل بالتجارة كى يكسب عيشه ، شأن مواطنيه قديماً وحديثاً حينما يفقدون مواد ثروتهم أو حينما يطمعون فى كسب المال الوفير .

وعلى ضوء معرفتنا بالتجارة فى الزمن القديم نستطيع أن نرسم لانفسنا صورة عن حياة التاجر اليونانى وما تستلزمه تلك الحياة من أسفار طويلة ، وصلات عديدة ، ودراية واسعة بحال تلك البلاد التى ينتقل اليها ، ويقيم فيها ، ويختلط بأهلها ، ويلاحظ أخلاقهم وعاداتهم ومجتمعاتهم وأساليبهم فى الحياة وفى التفكير .

استمر سولون إذن يعمل فى التجارة من سن مبكرة بعيداً عن أثينا حتى حوالى سنة ٦١٠ قبل الميلاد ؛ فكأنه قضى أهم فترة من حياته بالنسبة للتفكير والدرس والتحصيل فى بيئات غير بيئته الأصليه وفى مجتمعات وأوساط قلما يعرفها غير التجار من اليونانيين . ولكل ذلك أثره فى العقلية ومجابهة المسائل ، ووزن الأمور .

وفى هذا التاريخ ، أى فى سن الثلاثين تقريباً ، عاد سولون ألى أثينا غنياً بالمعارف ، مزوداً بالتجارب ، ناضجاً فى التفكير . وكانت ظروف أثينا الاجتماعية والسياسية تتعثر فى الداخل والخارج وتتطلب لانقاذها أهل الخبرة وأصحاب الكفايات ؛ ولعل أثينا لم تمر فى تاريخها بمرحلة أحلك وأشد من تلك المرحلة التى كادت تقضى على ثروتها وقوتها وحيويتها : خلاف شديد بين الاحزاب السياسية على تولى الحكم ، خصام عنيف بين الاغنياء والفقراء على توزيع الثروة ، وخصوصاً الاراضى الزراعية ؛ تهاون وضعف فى عقيدة الشعب واستهانة بالقوانين الدينية ؛ قلة فى الانتاج الزراعى والحيوانى بسبب الهجرات المتوالية فراراً من الاضطهاد السياسى ومن ظلم الحكام وتعسفهم

الذين كانوا يعيشون فى عهد إقطاعى وينظرون إلى أفراد الشعب وخصوصا إلى الطبقة العاملة منه ، نظرة اشبه بنظرة السيد إلى العبيد ؛ وهكذا تمزقت الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وتنافرت القلوب بين الطبقات ، وتداعت الوحدة بين الافراد .

فى هذه الظروف القاسية والمحنـــة الشاملة رجع سولون إلى أتينا فوجد رغبة قوية واتجاها عاما من كل طبقات الشعب إلى أن يلقى إليه بزمام الأمور كى ينقذ الأمة من براثن تلك المحنة ويخلصها من ويلات هذا البلاء .

ولم يتردد هو من جانبه فى أن يقوم بتلك المهمة الشاقة ؛ فوضع نفسه تحت تصرف الشعب وأخذ فى الاصلاح ؛ وكان برنامجـــه يلخص فى هذه النواحى الثلاث : الأولى جمع الشباب على كلمة واحدة وغرس حب الوطن فى نفسه ؛ الثانية إصلاح العقيدة وتقويم ما اعوج منها ؛ الثالثه إهمال القوانين القديمة وسن تشريع جديد يتلاءم مع حالة الشعب وتطوره فى السياسة وفى العقل وفى المعرفة ، أما علاجه للناحية الأولى فكانت وسيلته فى ذلك الشعر الذى كان ينظمه وينشره بين مواطنيه وكان يفيض حماساً ووطنية وتفانياً وإخلاصاً وأما علاجه للناحية الثانية فقد استدعى لذلك رجلا متدينا من جـــزيرة كريت قد بلغت شهرته فى الدين أثناء حياته مبلـــغ شهرة الأنبياء ؛ ذلك هو - إيبيمينيد - *epiménide* ، ولعل أوضح كلمة قيلت فيه - إنه فى الحقيقة كان طبيباً للأرواح [1] ؛ وأما علاجه للناحية الثانية فقد تولاه هو بنفسه فبدأ يقضى على القوانين البالية التى لا تثبت الحق لضعيف ،

---

[1] انظر ص ١٤٦ من كتاب تاريخ الأدب اليونانى -

histoire de la litterature grecque par M. M. alfred croiset et maurice croicet

ولا ترفع الظلم عن عاجز . ولعل أهم أثر له فى تلك الظروف هو ما وضعه من تشريعات وسنه من قوانين يحتكم الشعب إليها دون تفرقة بين طبقة وأخرى ولا بين ضعيف وقوى ، ويطمئن النـــاس جميعاً إلى عدالتها وقوة نفوذها . ومما ساعد على نجاح هـذه القوانين الجديدة هو ما كان يتمتع به سولون من حب الفقراء واحترام الأغنيـاء ؛ ولم تكن هـذه القوانين فى مجموعها سوى نتيجة لشرائع موسى وقانون حمورابى .

ونحن هنا لا نستطيع الادعاء بأن سولون قد نسخ بعض ما جاء فى شرائع الشرق وقوانينه فليست لدينا الوثائق التاريخيـة لذلك ، وليس مجهولا أيضـاً أن تشريعه كان ملائماً للظروف التى وجدت فيها أثينا ، ولكننا من ناحية أخرى لا نستطيع أن نجرده من أثر القوانين والتشريعات البابلية بعد مارأينا من حياته الطويلة فى خارج أثينا ومن اختـلاطه المستمر بالشعوب الآسيوية التى كانت على صلة بما أنتجته الحضارة البابليـة ؛ وبما كان هناك من أوجـه للشبه بين قوانين سولون وتشريعات الشرق سواء ما كان منها فى بابل أم فى أورشليم ، ولنكتف الآن بهذه الأمثلة التى اعتمدنا عليها لبيان أثر الشرق فى الغرب وتوضيح الأسس التى قامت عليها حضارة الاغريق .

ونحن إذ نكتفى بهذا القدر من التفصيل فى أثر الثقافة البابليـــة ـ الأشورية لا نريد مع ذلك أن نختم هذا الموضوع دون أن نذكر كلمة إجمالية عن أقدم وأهم المراكز الثقافية للشعوب الأغريقية ، ونعنى بذلك

بيئة آسيا الصغرى وما جاورها من جزر فى بحر ايجه

إن بحثنا عن هذه البيئة سوف لا يتناول تاريخها ولا جغرافيتها ؛ وإنما سيعرض لها من وجهة نظر خاصة فيبين منظرها العام من ناحية السكان

والدور الهام الذى قامت به بالنسبة لإيواء المهاجرين الغربيين من ناحية ولتقبل حضارة وادى الرافدين من ناحية أخرى ، ثم يبين بعد ذلك كيف كانت هذه البيئة منذ القدم ، ولا تزال إلى حد ما : بمثابة معبر بالمعنى الواسع بين الشرق والغرب ، معبر للسكان ، ومعبر للجيوش والحروب ، ، ومعبر للعلوم والفنون والمعارف .

لقد كانت هذه البيئة بمثابة موطن مستمر لبعض القبائل الأغريقية منذ العصور القديمة ، ويحاول بعض المؤرخين أن يرجع ذلك إلى حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ، معتمداً فى هذا على جانب كبير من الحدس والتخمين ولعل الواقع يخالف ذلك تماما ؛ إذ أن سبيل الانتقال ممهد منذ آلاف السنين ، وضرورة الانتقال كذلك موجودة منذ عهد بعيد .

ولهذا فأن تحديد التاريخ فى مثل هذه المسائل يكاد يكون عسيراً من ناحية ، ولا تترتب عليه نتائج خطيرة ، من ناحية أخرى ، بالنسبة لهذا البحث الذى نحن بصدده ما دمنا لا نجد للأغريق فى هذه الفترة من الزمن أى أثر علمى أو أدبى أو فنى . لنترك إذن هذه الفترة التى تسبق الأحداث التاريخية ، ولنتناول العصر الذى يحدثنا عنه التاريخ فى شبه ثقة واطمئنان .

فى حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد قامت فى شبه جزيرة اليونان حركة سياسية تهدف إلى تكوين دوله موحدة عامة من كل القبائل الأغريقية التى كانت تعيش منعزلة تماما فى شبه حياة قبلية ، شأن الشعوب البدائية قبل أن تدخل فى دور التكوين السياسى والرقى المادى والأدبى . ولم تخل هذه الحركة من صراع بين القبائل ، وتنافس بين الرؤساء على السيادة فى الحكم . وبرز فى هذا الصراع بين القبائل قبيلتان .

وانتهت هذه الحركة بالتفاف عدد كبير من الاغريق حول قبيلة منهما معروفه باسم « الدوريان » *Doriene* . وبهذا قد فهم مقدما اتجاه الشعب فى وضع زمام الأمور ، ولم يبق أمام العدد القليل من الاغريق الا أحد أمرين : اما الاستسلام ، واما مغادرة البلاد .

وعلى حساب هذا التكتل اضطرت القبيلة الأغريقية الأخرى المعروفة باسم « يونيان *Ioniene* » الى مغادرة شبه الجزيرة والالتجاء الى آسيا الصغرى والجزر الصغيرة القريبة منها فى بحر ايجه . وهناك قد انضم أفراد هذه القبيلة الى من كان قد هاجر قبلهم من الاغريق الى هذه المواطن وكونوا أمة لها وحدتها ، ونشاطها فى كل مظاهر الحياة الاجتماعية ما عدا الناحية السياسية ، اذ أنها كانت تخضع لملوك آسيا الذين يسيطرون على هذه الجهات وحياة اليونانيين فى هذه البيئة وبهذه الصورة قد وجدت فى بيئات أخرى وفى داخل ممالك منظمة وحكومات قوية مثل اليونانيين أو الاغريق الذين استقروا فى مرسيليا يوم أن كانت تحت حكم الغاليين وبعد أن استولى عليها الروم ، ومثل اليونانيين أوالاغريق الذين استقروا فى جنوب ايطاليا وفى جزيرة صقلية ومكثوا هناك حتى أخضعتها واستولت عليها الدولة الرومانية ؛ وأخيراً مثل اليونانيين أو الاغريق الذين عمروا مدينة الاسكندرية واستمروا بها حتى بعد الفتح الرومانى ؛ فحياة اليونانيين أو الاغريق فى خارج بلادهم كانت كما نرى صورة واحدة متكررة فلم يكن غريباً اذن على أفراد قبيلة - يونيان - أن يتخذوا من آسيا الصغرى موطناً له كل صفات الوطن الاصلى دون ان يشغلوا بالناحية السياسية .

ومن آثار ذلك ان سميت المنطقة التى يقيمون فيها من آسيا الصغرى باسم « يونى - *Jonie* » . نسبة اليهم ؛ ومنذ احتلالهم لها واستقرارهم فيها

اصبحت تلك المنطقة ملتقى هاماً لعقليتين متميزتين : عقلية شرقية واخرى غربية ، ومن التفاعل بين هاتين العقليتين تولدت الحضارة اليونانية .

ومن هنا ندرك الفرق بين كلمة يونانى ، وأغريقى ، وان كنا فيما بعد نرى هذا الخلط فى المعنى بين هذين الاصطلاحين ، اذ اننا كثيراً ما نجد كلمة اليونانيين تطلق على كل الشعب الاغريقى ، وكلمة الاغريقيين تطلق على كل من ينتمى الى شبه الجزيرة او من نزح منها الى جهات اخرى ، ولقد لاحظنا هذا الخلط عند بعض الكتاب المحدثين فى الغرب [1] ولا يزال يساير هم كثير من المعاصرين .

ولعل القدماء كانوا ادق منا الآن فى استعمال هذين الاصطلاحين ، فكانوا اذا استعملوا كلمة يونانيين . قصدوا من ذلك اولئك الذين كانوا على صلة بآسيا الصغرى منذ عهود الهجرات القديمة ، واذا استعملوا كلمة — إغريق — قصدوا منها سكان شبه الجزيرة اليونانية بوجه عام .

والذى يهمنا ان نعرفه الآن هو ان هؤلاء اليونانيين بعد ان هجروا بلادهم الأولى قد استقروا فى بيئة كان يتردد فيها صدى الحضارة البابلية والآشورية دون إبطاء ، بل انها كانت تعتبر بحق امتداداً طبيعياً لنفوذ بابل وآشور سياسياً وعلمياً وأدبياً وفنياً ، وقد أبان التاريخ بما دلت الآثار المكتشفة فى آسيا الصغرى على أن مظاهر حضارة بابل وأشور كان لها نفوذ عظيم عند سكان هذه المنطقة ، سواء أكان هذا قبل أن يفد إليها المهاجرون من اليونانيين

---

[1] من هؤلاء الكتاب مثلا صاحب معجم اللغة الفرنسية *Larousse illustré* فى القسم التاريخى من هذا المعجم يقول المؤلف حينما يتحدث عن كلمة - *Jonie* . انها جزء من آسيا الصغرى القديمة كان يسكنه الاغريق المهاجرون .

أم بعد ذلك ، على أن حضارة اليونانيين نفسها التى نبتت أول ما نبتت فى هذه البيئة دليل واضح على امتداد الحضارة البابلية الأشورية .

وفى خلال الفترة المحصورة بين القرن الثانى عشر والقرن الثامن قبل الميلاد ينشط هؤلاء اليونانيون فى تكوين نهضة علمية أدبية تعتبر بحق النواة الأولى للحضارة اليونانيه بمعناها العام . وإذا كان علماء الغرب ومؤرخو الآداب يقررون بأن حضارة الاغريق مدينة إلى حد كبير بالنسبة لأولياتها ولكثير من مظاهرها إلى اليونانيين الذين كانوا يقيمون فى آسيا الصغرى وفى جزر بحر إيجه ، فأننا نستطيع أن نقرر من جانبنا بأن حضارة هؤلاء اليونانيين المقيمين فى آسيا الصغرى مدينة بدورها إلى حد كبير إلى حضارة الشرق التى نبتت فى وادى الرافدين .

ومنذ قليل رأينا كيف نشأ فيها الشعر القصصى على يد هوميروس ، الذى نشأ فى منطقة يونى ونظم شعره فى أزمير ، ورأينا كذلك كيف نشأ الشعر التعليمى على يد هيزيود الذى نشأ بدوره أيضاً فى منطقة يونى وتتلمذ على شاعر قصاص من يوناني آسيا ، الذين نشأوا فيها وانتجوا على نمط ماكان موجوداً فى الحضارة البابلية ـ الأشورية ، وهكذا بفضل هؤلاء وأولئك تكونت حضارة يونانية فى منطقة آسيا الصغرى استتبعت نهضة فى كل نواحى المعرفة ، ثم استمرت هذه النهضة فى تقدم حتى بعد أن نشأت فى أتينا نهضة مماثلة بعد القرن الثامن قبل الميلاد ، وبقى يونانيو آسيا يعملون عل انتشار حضارتها من ناحية ، وعلى نقل آثارها إلى أثينا من ناحية أخرى حتى تكونت بفضلهم تلك الحضارة الأغريقية العظيمة التى ورثها عنهم العالم الغربى الحديث . وبقيت هذه الحضارة تدرس عند الغربيين وكأنها وليدة البيئات اليونانية الخالصة وليس بينها وبين الحضارات الشرقية

صلة ؛ ولكن فى العصور الحديثه وعلى ضوء الأبحاث التاريخية والاكتشافات الأركيولوجية اتجه الباحثون إلى دراسة تاريخ هذه الحضارة ؛ ومع هذا فلم يحاول واحد من علمائهم حتى اليوم محاولة جدية عميقة فى أن يبحث عن تاريخ وسر نشأة هذه الحضارة ، ويحللها تحليلا شاملا ، ثم يرد عناصرها إلى أصولها الاولى ومواطنها التى نشأت فيها وانتقلت منها . وإنما كل ما رأيناه وقرأناه فى هذا الميدان لا يعدو أن يكون محاولات بسيطة أو أبحاثا جزئية كتاريخ الشعراء اليونانيين أو تحليل شخصياتهم ، وتأريخ الفلسفة اليونانية وحياة الفلاسفة وفى خلال تلك المحاولات نجد هنا وهناك بعض إشارات تفيد أن هذا الشاعر أو ذلك الفليسوف قد نشأ فى الشرق أو سافر اليه أو تتلمذ على أساتذة شرقيين .

ولعل أهم من أشار إلى ذلك وكتب فى هذا الموضوع هو الأستاذ « ول ديورانت » صاحب كتاب قصة الحضارة ، ومع ذلك فكل ماكتبه لا يعدو أن يكون مجرد أشارات مجملة عابرة يسوقها عرضاً فى ثنايا موضوعات أخرى ومن ذلك ماكتبه [1] : « على أن بابل هى التى أنشأت ذلك القصص الساحر الجميل الذى أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءاً لا يتجزأ من قصص أوربا الدينى . ومن بابل لا من مصر جاء اليونان الجوالون إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة ، والفلك والطب والنحو ، وفقه اللغة ، وعلم الآثار ، والتاريخ والفلسفة .

ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى رومه ومنها إلى الأوربيين والأمريكيين . وليست الأسماء التى وضعها اليونان للمعادن ،

---

[1] انظر ص ٢٦٢ من الجزء الثانى ترجمة الأستاذ محمد بدران .

وأبراج النجوم ، والموازين والمقاييس ، وللآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست كلها إلا تراجم لأسمائهم البابلية ، بل أنها فى بعض الأحيان لاتعدو أن تكون تبديلا لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية . وبينما استمد فن العمارة اليونانية أشكاله وإلهامه من مصر وكريت ، فأن العمارة البابلية هى التى أوحت عن طريق الزجورات بقباب المساجد الاسلامية وبالمنارات والأبراج فى العصر الوسيط ، وبطراز المبانى المرتدة فى أمريكا فى هذه الأيام . وأضحت قوانين حمورابى تراثا للمجتمعات القديمة كلها لايقل فى شأنه عما ورثه العالم من رومه من نظام الحكم واساليبه . ولقد انتقلت حضارة أرض النهرين من مهدها وأصبحت عنصرا من التراث الثقافى للجنس البشرى بفضل سلسلة طويلة من الأحداث التاريخية الخطيرة .

فقد فتحت أشور بابل واستحوذت على تراث هذه المدينة القديمة ، ونشرته فى جميع انحاء امبراطوريتها الواسعه . وتلا ذلك أسر اليهود الطويل وماكان للحياة وللأفكار البابلية فيهم من أثر عظيم . وأعقب هذا وذاك الفتحان الفارسى واليونانى اللذان فتحا جميع طرق التجارة والمواصلات بين بابل والمدن الناشئة فى أيونيا وآسية الصغرى واليونان ، فتحا لم يشهد العالم من قبل له نظيرا فى كماله وحريته . إن شيئاما لايضيع من العالم آخر الأمر بل إن كل حادثة تترك فيه أثرها خالدا إلى أبد الدهر ، خيرا كان ذلك الأثر أو شرا » .

من هذه الفقرات القصيرة والاشارات الخاطفة نرى كيف كانت حضارة أرض النهرين أساسا للحضارة الاغريقية ثم كيف كان السبيل فى انتقالها إلى الغرب . ولولا ما التزمناه أول الأمر من قصر بحثنا على أثر الحضارة البابلية - الأشورية فى الحضارة اليونانية لاستطعنا أن نبين كذلك إلى

حدما أثر الحضارة المصرية القديمة فى العقلية اليونانية وعلى الخصوص من الناحية الدينية والناحية الفلسفية ، وأن ترسم من حيـــاة أولئك اليونانيين الجوالين صورة توضح معالمها كيف كان هؤلاء اليونانيون تلامذة لفلاسفة مصر وعلماء الرياضة والكهنوت فيها كما كانوا تلامذة كذلك لأصحاب الحضارة البابلية ـ الأشورية . والآن نكتفى بهذه العبارات المجملة فى تلك الصفحة القصيرة التى كتبها صاحب قصة الحضارة ، غير أننا نعتقد أن انتقال تلك الحضارة الشرقية إلى الغرب ، وعلى الخصوص إلى بلاد اليونان القديمة قد تحقق قبل تلك العصور التى يشير اليها الاستاذ (ول ديورانت) ، إذ أن صلة اليونانيين بالشرقيين كانت أقدم من عهد الحروب والفتوح ، فقبل أن يفتح الفرس بلاد اليونان ، وقبل أن يصل الاسكندر فى غزواته إلى بلاد الفرس ، بل وقبل أن يحدث الأسر اليهودى وتفتح آشور بابل نقول قبل هـــذا أو ذاك كان اليونانيون على صلة بالشرق وأنظمته ومعارفه ، وقد أوضحنا هذا فيما مضى .

والفضل فى ذلك يرجع أولا إلى اليونانيين الذين استوطنوا جزءا كبيرا من آسيا الصغرى وجزر بحر ايجه ، وثانيـا إلى الشرقيين أنفسهم المشتغلين بالتجارة والمتنقلين فى شواطىء شبـــه الجزيرة اليونانية وفى جزر اليونانيين المنتشرة فى حوض البحر الأبيض الشرقى .

أما فتوح الفرس واليونان فقد جاءت بعد أن تأسست الحضارة اليونانية وتعددت مظاهرها ، وأخذت لنفسها طابعا غربيا خاصا يميزها تماما عن الحضارة الشرقية ، بل اننا نستطيع أن نقرر أن تلك الحضارة اليونانية كانت أيام فتح الأسكندر الأكبر للشرق من النضوج والازدهار بدرجة تسمح لها بأن تدخل فى صراع مع الحضارات الشرقية وتفرض سلطانها على كثير

من البيئات فى الشرق . وهـذا هو ماحدث بعد فتوح الأسكندر مباشرة سواء أكان فى آسيا الصغرى أم فى بيئة الشام أم فى مصر ، فقد رأينا فى البيئة الاولى مدينة برجام ، وفى الثانية مدينة انطاكية ، وفى الثالثة مدينة الاسكندرية ، وكل مدينة من هذه المدن الثلاث قد لعبت فى بيئتها دورا ثقافيا يشبه إلى حد كبير الدور الذى كانت تلعبه أثينا فى الغرب .

إذ أنه لم يكد ينتهى القرن الرابع قبل الميلاد حتى كان العالم القديم يرى اليونانيين قد استكملوا جميع عناصر حضارتهم : شعر بأنواعه المختلفة كالقصصى والتعليمى والغنائى والمسرحى : ونثر بألوانه المتباينة كالخطابة ، والبيان والتاريخ ، والجغرافيا والطب ؛ والسياسة والقانون ، واللغة : وفلسفة بعلومها العديدة كالمنطق ، والرياضيات ، والألهيات ، والطبيعيات . ويضاف إلى ذلك أيضا كثير من مظاهر الفن الراقى كالهندسة المعمارية ، والرسم والزخرفة ، والتمثيل . وهذه العناصر قد تجمعت وتآلفت حتى بدت كوحدة فى المنهج وفى التفكير وفى الاهداف .

وكل ماستطاعت أن تستفيده حضارة اليونان من الشرق بعد فتوح الاسكندر الاكبر على الخصوص ، هو اتساع دائرة التفكير اليونانى ، وتصحيح بعض المعارف القديمة التى وصلت اليهم عن الشرق بطريق الرواية وتنمية الانتاج العلمى والأدبى والفنى وأما أسسها وأغراضها فقد وضعت وحددت من قبل ، وقد جاء الاسكندر إلى الشرق لا لينتقم من الفرس فحسب ، ولا ليكسب انتصارات حربية فقط ، وإنما جاء ليفتح آفاقا جديدة للثقافة اليونانية أيضا . ولهذا فقد جاء اليونانيون إلى الشرق جماعات لاأفرادا ومستوطنين لا رحالين ، وتخيروا المواقع لأنشاء المدن ، وحاولوا جهدهم أن يلفتوا أنظار الشعوب المفتوحة إلى نشاطهم ويجتذبوهم إلى مظاهر

حضارتهم ، فاستدعوا الكثير من علمائهم ، وسهلوا لهم سبيـــل الاقامة ، وأجروا عليهم الارزاق ؛ وقد استلزم ذلك منهم أيضا أن يفتحوا طرق الدراسة ، ويمهدوا لرواد المعرفة ، ويعملوا على تنمية العقـــل بجانب تنمية الجسم فبنوا المسارح والملاعب ، وأسسوا المتـــاحف والمعابد ، وأنشئوا المدارس والمعاهد ، واشتغلوا بالبحوث العلمية وبالتدوين ؛ ولم يمض على وجودهم فى الشرق زمن طويل حتى رأينا لديهم دورا للكتب تضم عشرات الآلاف من المجلدات ، وجامعات تأوى الآلاف من الطلاب وهكذا غدت عواصمهم فى الشرق مدنا جامعية بجانب الدور السياسى الذى كانت تنهض به فى إدارة شئون البلاد ، وأخذ تنافسهم على النهوض بالعلم وجلب العلماء يشتد فيما بينهم حتى وصل إلى درجة لم تعهد من قبل عند القدماء ، وليس من هدفنا فى هذا الفصل أن نمضى فى تحليل النشاط العلمى عند اليونانيين فى الشرق ولا أن نبين مبلغ ذلك التنافس على اقتناء الكتب وجلب العلماء وإنما عرضنا لذلك بالاجمال لنوضح موقفنا من صاحب قصة الحضارة الذى زعم فيما زعم أن الحروب بين الفرس واليونانيين هى التى فتحت الطريق للحضارات الشرقية كى تنتقل إلى اليونان ثم تزدهر وتثمر عندهم . وحقيقة الأمر فيما نعتقد ، وكما وضحنا من قبل ، هى أن حضارات الشرق ، وعلى الخصوص الحضارة البابلية ـ الأشورية ، قد وصلت إلى اليونانيين وانتجت ثمارها قبل تلك الحروب ، ولا أدل على ذلك من مجىء اليونانيين إلى الشرق وهم على تلك الحالة ، التى وضحناها منذ قليل ، من العلم والفن والأدب ، وهم مشبعون كذلك بتلك الرغبة فى نشر ثقافتهم والعمل على أن تسود فى كل البلاد التى غزوها ولو كان ذلك على حساب الحضارات القديمة فى تلك البلاد المفتوحة . وسنرى بعد قليـــل حينما نتحدث عن أثر الحضارة اليونانية فى

وادى دجلة والفرات كيف نجحوا فى هذا المنهج الذى رسموه لأنفسهم وإلى أى مدى تحققت لهم تلك الرغبة .

والآن فلنعد إلى البيئة العراقية لنرى ماذا حدث فيها بعد ان اسقط الفرس سلطان الساميين وأقاموا على انقاض دولتهم دولة فارسية واسعة واسسوا لهم حضارة هى مزيج من تراث الحضارة الميدية ، والحضارة البابلية - الأشورية .

وقبل أن نبدأ الحديث عن ذلك نعيد إلى ذاكرة القارىء ماأشرنا إليه فى مناسبات مختلفة ، وهو أن الحضاره التى نبتت وأزهرت فى وادى الرافدين لم تمت ولم يقض عليها بواسطة الحروب أو الفتوح أو التغير السياسى ، وإنما بقيت بالرغم من تعرضها لهزات سياسية عنيفة ، واستمرت محافظة على أصولها بالرغم من ذلك المدد الأجنبى الذى يفد اليها من وقت لآخر مع عقليات الفاتحين ورجال الحكم ، فالقضاء على الدولة وعلى رجال السياسة ليس معناه القضاء على الامة وعلى إنتاجها العقلى لان ذلك لم يعد ملكا للأفراد وإنما هو ملك وتراث للمجتمع ، وقد تزول الأفراد ولكن قلما يزول المجتمع .

عودة إلى البيئة العراقية

سبق أن تحدثنا عن أهم مظاهر الحضارة الفارسية وأوضحنا أثر التفاعل بين العقلية الفارسية الغازية ، والعقلية البابلية - الأشورية ؛ ثم ألقينا بعض الضوء على الناحية الدينية بوجه خاص ، وبينا كيف وصلت ديانة الفرس بمذاهبها المتنوعة وطقوسها المختلفة فبعد أن كانت بلاد الرافدين تسيطر عليها ديانة وثنية بمعناها العام قبل أن يصل اليها الفرس مهاجرين أولا أو فاتحين

أخيرا ، نقول بعد أن كانت بلاد الرافدين لاتدين إلا بالوثنية أصبحت تعرف المجوسية والصابئة والزردشتية بألوانها المتباينة من فكرة التوحيد إلى مذهب المثنوية . وسبق أن ذكرنا كذلك أن وادى دجلة والفرات قد تأثر بألوان أخرى من حضارات اجنبية بعد فتح الفرس ، بعضها جاء من بيئات قريبه ، والبعض الآخر جاء من بيئات بعيدة ولعل أهم هذه الألوان على الإطلاق هو لون الحضارة السريانية ، وأصحاب هذه الحضارة هم الاراميون فى الاصل ، وسنرى بعد قليل كيف تفرقوا شيعا وسموا بأسماء مختلفة فكان منهم الكلدانيون والسريانيون ثم النسطوريون واليعقوبيون .

الحضارة السريانية

وقبل أن نتكلم عن نشأة هذه الحضارة ومظاهرها ، وآثارها ينبغى أن نرجع قليلا إلى الوراء فنذكر كلمة عن هذا الشعب : من اين جاء ؟ وفى أى البيئات استقر ؟ ثم كيف استطاع أن ينشىء له حضارة ربما لاتقل عن حضارة الفرس بالنسبة لآثار كل منهما فى الحضارة الإسلامية ؟

يكون الأراميون شعبا من الشعوب السامية الشمالية التى نزحت من وسط الجزيرة العربية فى شكل هجرات متوالية : ولعل أقدم هجرة معروفة لهذا الشعب كانت فى حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، إذ أن من الصعب تحديد مثل هذه الاحداث تحديدا تاريخيا ؛ ولم يكن لهذه القبائل هدف محدد بادىء الامر فكان همها البحث عن مكان يصلح للأقامة وتتوفر فيه وسائل الحياة بالنسبة لبدو يعنون أول مايعنون بتربية الماشيه .

وقد اقتنعت هذه القبائل أولا بالاقامة على حدود البابليين والاشوريين من ناحية والعبرانيين والفينيقيين من ناحية أخرى . ولم يستطيعوا مهاجمةهؤلاء

ولا أولئك ، فلم يكن لديهم العدد الكافى ولا القوة المادية ، ولكنهم حين كثر عددهم بدءوا يكونون لهم دويلات على حساب الكنعانيين فى الغرب ، الذين كانوا متفرقين وفى شبه انحلال سياسى فالفينيقيون منصرفون إلى الملاحة والتجارة ، والعبرانيون منهمكون فى الفوضى وفى الخلافات الداخلية .

أما فى الجهة الشرقية فكان لهم نشاط ملحوظ فى الناحية الثقافية وان كنا لا نعرف شيئاً يذكر عن حياتهم الاجتماعية ونجهل مدى نشاطهم السياسى . والذى نستطيع أن نلاحظه بوجه عام على هذا الشعب هو أنه لم يكن له طموح سياسى مثل ما عهدناه عند الشعوب السامية الأخرى كالبابليين والأشوريين الذين قضوا على سلطان السومريين وأسسوا لهم دولة واسعة النفوذ عظيمة السلطان ، وكالكنعانيين الذين احتلوا شواطىء البحر الأبيض المتوسط وأقاموا لهم دولا وحكومات . وكل همه كان منصرفا الى النشاط العلمى ، ومن هنا كانت شهرته التى عرف بها فى العالم القديم . ونحن نعتقد أن أهم الأسباب فى ذلك موقع البيئة التى كان يتخذها مستقراً ؛ اذ أنه من الجهة الشرقية كان على حدود وادى دجلة والفرات ، وهو على ما وصفنا من الرقى والتقدم العلمى والأدبى والفنى ؛ ومن الجهة الغربية كان على حدود الحيثيين ، والليديين ثم اليونانيين من ناحية الشمال ، وعلى حدود الفينيقيين والعبرانيين من ناحية الجنوب . هذا الموقع كما نرى سهل له الاختلاط بعقليات مختلفة وبمعارف متنوعة ، ومهد له السبيل فيما بعد لتعلم لغات الشعوب التى تحيط به ، فاتجه إلى الجمع والتدوين ثم الى النقل والترجمة ، واستمرت هذه أبرز صفة من صفاته حتى الفتح العربى لبيئة العراق ، والنهضة الاسلامية فى عهد العباسيين . وهناك جانب لا يزال غامضا بعض الشىء فى تاريخ الشعب الآرامى ومعرفتنا به الآن تخدم الغرض الذى نقصد اليه فى

هذا الفصل وهو أثر الحضارة السريانية أو الآرامية قبل أن نعرف هذه التسمية فى وادى دجلة والفرات ، ذلك الجانب هو الصلة بين الكلدانيين والآراميين ، ونحن نعرف أن كثيرا من الكتاب الشرقيين والغربيين قديما قد تحدثوا عن الكلدانيين وعن آثارهم العلمية والفكرية وعن تأثيرهم فيمن جاورهم من البابليين فى الشمال وفى شبه الجزيرة العربية فى الجنوب ، وكثيرا ما نطالع فى كتب التاريخ والسير والأدب أن العرب قد أخذوا عن الكلدانيين معارفهم فى الفلك وفى الحساب وفى التوقيت وفى التنجيم وفى غير ذلك من المعارف الكونية ، ومع هذا لانجد عند هؤلاء المؤلفين لتلك الكتب مايوضح من هم الكلدانيون ولا ماهو الدور الهام الذى لعبه الكلدانيون فى تأسيس مجتمعهم وتكوين ثقافتهم . وحقيقة أمر الكلدانيين أنهم فرقة من الآراميين الذين اتجهوا إلى الشرق واستطاعوا أن يتسللوا داخل المملكة البابلية ، وهناك فى الجزء الجنوبى من تلك المملكة الواسعة وجدوا منطقة خصبة وظروفا ملائمة فألقوا عصا التسيار ثم بنوا لهم فى وسط تلك المنطقة مدينة سموها — كلد — بين مدينة بابل والخليج الفارسى ، وكان ذلك حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . فى هذه المدينة تكون مجتمعهم وباسمها سموا بالكلدانيين ، ثم بسبب اتصالهم بالبابليين قد استطاعوا أن يأخذوا كثيرا من معارفهم ، وبطبيعة قربهم من العرب فى شبه جزيرتهم قد تمكنوا من نقل تلك المعارف إليهم . ومما ينبغى إدراكه هنا أيضا انهم بقدر ماانتفعوا بالحضارة البابلية قد أفادوها ، إذ انهم قد أحيوا كثيرا من معالمها وأضافوا الى تلك المعالم بعض الشىء من معارفهم التى اكتسبوها من تفكيرهم وتجاربهم الخاصة فى الفلك والتنجيم والطبيعة . وقد ساعد على ذلك وجودهم بين ظهرانى البابليين فى وقت كانت الدولة السياسية فى شبه انحلال وكانت

الحرب تكاد تكون مستمرة بين بابل وآشور على الاستقلال بالأمر فى كل وادى الرافدين شمالا وجنوبا . هذه الفوضى الداخلية وتلك الاضطرابات السياسية لم تؤثر فى هدوء الكلدانيين ولم تصرفهم عن توجيه نشاطهم الى نواحى العلم والمعرفة ، بل على العكس كان ذلك حافزا لهم على ترك السياسة جانبا والانطواء على انفسهم ، ثم الانكباب على تفهم الامور ، واستنتاج الأحكام ، وشأنهم فى ذلك شأن الغرباء فى بلد لايعنيهم من سياسته شىء ، وربما عملوا على اشتداد الخلاف بين سكانه وإشعال نار الفتنة بينهم . والراجح أن ابراهيم وقومه كانوا من هؤلاء الكلدانيين ، وليس من شك فى أن قصة ابراهيم مع أبيه وقومه كما ترويها الكتب المقدسة ، وخصوصا القرآن ، تلقى ضوءا على ديانة سكان وادى الرافدين ومعبوداتهم من الكواكب والأصنام من ذلك ماجاء فى سورة الانعام آية ٧٤ وما بعدها : « وإذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ اصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لاأحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين ».

ومن ناحية أخرى فأن هذه القصة نفسها تدل على اتجاه جديد فى العقلية والتفكير مما يوضح أن هؤلاء الكلدانيين قوم غرباء عن هذه البيئة ، ودخلاء على أهلها ، يضاف الى ذلك ماهو معروف من أن ابراهيم مع قومه حينما اضطهد بسبب عدائه للديانة الوثنية القديمة هاجر من مدينة أور ، فى المنطقة

الجنوبية من وادى الرافدين ، إلى حران ، مقر الآراميين منذ زمن قديم . هذا وتاريخ تلك الثورة الدينية التى دعا إليها ابراهيم لم تكن إلا فى العهود الأولى لاستقرار الكلدانيين فيما بين بابل والخليج الفارسى وذلك قبل أن يندمجوا فى السكان الأصليين لحما ودما وخلقا وعقلية وتفكيرا . وحديثنا عن الكلدانيين هنا يوضح ويتمم حديثنا عنهم فى تلك الاشارة الخاطفة التى أشرنا بها اليهم فيما تقدم من هذا الكتاب [1] . وانما اختصصنا الكلدانيين بهذه الكلمة على انفراد قبل أن نتكلم عن الآراميين بشكل عام لأن الكلدانيين هم أول فريق من الآراميين استطاع أن يكون له مجتمعا وشخصية ثقافية فى حين أن مجموع الآراميين الآخرين كانوا لايزالون يضربون فى الصحراء الواقعة بين وادى الرافدين من ناحية وبلاد الكنعانيين من ناحية أخرى ، ويضطربون بين الشرق والغرب باحثين عن مقر هادىء خصب أو عن منفذ ينفذون منه إلى داخل البلاد المنظمة المتحضرة .

والآن فلنعد إلى الآراميين فى مجموعهم وفى موطنهم العام لنرى كيف انقسموا إلى شعب متفرقة ، وكيف استطاعوا بنشاطهم العقلى أن يفرضوا معارفهم ولغتهم على شعوب آسيا الغربية من بلاد فارس حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

كان الأراميون منتشرين فى مساحة واسعة من الأرض تمتد من أرض النهرين الى البحر الأبيض المتوسط . ولهذا فقد انقسموا على مر الزمن الى فريقين يكادان يكونان متباينين فى مظاهر اللغة ، والحضارة ، والحياة الاجتماعية وقد اصطلح الباحثون على تسمية الفريق الذى كان يقيم على شواطىء البحر

---

[1] أنظر ص ٤٨-٤٩ من هذا البحث .

الأبيض المتوسط بالأراميين الغربيين ، والفريق الذى كان يقيم فى بلاد العراق بالآراميين الشرقيين . وكل من الفريقين قد وجه همه إلى تفهم حضارة البيئة التى استقر فيها ، ثم حاول أن يرقى بنفسه ويبزأهل الحضارات السابقة ، وقد نجح فى تلك المحاولة إلى حد بعيد .

ويهمنا فى هذا البحث الآراميون الشرقيون ، فهم الذين تأثروا بالحضارة القديمة فى بيئة العراق ، وهم الذين أثروا فى تلك البيئة بما أنتجوه من علم وبما نقلوه عن الأجانب من معارف وأفكار . أما أثر الآراميين الغربيين فى وادى الرافدين فكان ضئيلا ولم يسجل لهم التاريخ فى هذا الميدان سوى ما أثر عن بعض مهندسيهم وفنانيهم الذين أخذهم ملوك بابل فى أيام السبى أو استدعوهم قبل ذلك أو بعده لكى يستغلوا نشاطهم وينتفعوا بخبرتهم فى المملكة البابلية . هؤلاء الأراميون الشرقيون قد استقروا فى بعض المدن العراقية ، أهمها مدينة حران فى شمال العراق ومدينة الرها أو إديسا — *Edssa* فى شمال حران ، وقد وجد فى كل من هاتين المدينتين حركة علمية واسعة . ونشاط فكرى يفوق أى نشاط سابق فى أرض الجزيرة العراقية . وأهم مظهر لهذا النشاط هو أن لغة الأراميين فى القرن الأول قبل الميلاد قد استطاعت أن تتغلب على لغات الشعوب الأخرى التى كانت تسكن غرب آسيا : فقد اصبحت لغة التخاطب فى العراق وسوريا وفلسطين ، وفينيقيا ، وشبه جزيرة سينا ، وكذلك صارت لغة الدواوين فى أرض النهرين ، ويدل على ذلك رسائل ووثائق وجدت مكتوبة باللغة الأرامية فى آسيا الصغرى ، وفى جزيرة الفيلة فى مصر العليا . وكانت هذه الرسائل متبادلة بين الحكام فى هذه الجهات ، والحكام فى وادى دجلة والفرات .

ولما كانت طبيعة اللغة من طبيعة الشعب فأن مافيها من ثروة وحيوية يدل على ماكان فى الشعب الآرامى من نشاط فى العقل وسعة فى الأفق وخبرة بأدراك أفضل أدوات الأداء ، فاللغة كما يقولون مرآة لعقلية الناطقين بها وصورة من أصدق صور حضارتهم . ولعل سائلا يسأل عن سبب رقى لغة الآراميين وعن سر سيادتها على كل اللغات الأخرى التى دخلت معها فى صراع كالبابلية — الأشورية ، والفنيقية والعبرانية ، ونحن نلخص الجواب عن ذلك فيما يأتى :

أولا — سهولتها فى التعبير مع ثروتها اللفظية مما كفل لها الأحاطة بما يدور فى خلد الفكر الانسانى ذلك العصر .

ثانيا — مرونتها بالنسبة لما يجد على الناطقين بها من بحث وفن وأدب ومن مظهر هذه المرونة أيضا ماكان يمس بعض القواعد ومثال ذلك أن صيغة المضارع بدأت تستعمل النون بعد أن كانت تستعمل اليـاء ، وكذلك ماحصل أيضا بالنسبة لأداة التعريف فقد أهملت فى بعض اللهجات بعد أن كانت ضرورية [1] .

ثالثا — دقتها فى الأداء والتزامها لنظام عام فى تركيبها ، وبمعنى آخر التزامها لضوابط النحو والصرف ، ولسنا نقصد هنا بالنحو والصرف الناحية العلمية : أى تقعيد القواعد ودراستها ، وأنما نقصد النحو والصرف العملى أو الفنى ، أى طرق الأداء الطبيعية الفطرية ، إذ أن التفكير فى وضع قواعد

---

[1] أنظر تاريخ الأدب السريانى للدكتورين : مراد كامل ومحمد حمدى البكرى ص ١١ ، وكتاب فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد ص

النحو السريانى لم يوجد إلا فى حوالى القرن الخامس الميلادى [1].

رابعا — ماكانت تمتاز به من استخدامها للحروف الأبجدية التى هى عبارة عن رسم للاصوات لا للمعانى ، وذلك جعلها لغة تدوين وكتابة أكثر من اللغة المسمارية التى كانت تحتوى على رسوم لاتكاد تنتهى .

كل هذه الصفات قد كتبت للغة الآرامية الذيوع والانتشار من ناحية ، ودلت على مبلغ نشاط الآراميين واستعدادهم لتقبل كل المعارف الموجودة عند جيرانهم المتحضرين من ناحية أخرى . وقد ظهر أثر ذلك كله تحت حكم البابليين ، وحكم الفرس ، ثم تحت حكم العرب . ولم يؤثر عليهم فى بيئته العراق ، بصفة خاصة ، ما انتاب هذه البيئة من تنافس فى الحكم أو نزاع فى السياسة ، بل استمروا يمارسون ماعرفوه ويضيفون اليه ماينتجون ، وقد بقيت لديهم هذه الحركة العلمية فى نشاط مطرد حتى اعتنق الآراميون الدين المسيحى فى القرن الثانى بعد الميلاد وبدأت تتركز عندهم دراسات دينية واسعة وفلسفة آلهية عميقة .

بذلك قد أضافوا إلى ما كان معروفا عندهم من الطب أو الفلك ، والتنجيم ، والفلسفة الطبيعية ، شروحا وتأويلات على نصوص الكتاب المقدس ، وأبحاثا فلسفية فى أخطر النظريات الدينية ؛ ولعلهم أول من فلسف الدين المسيحى ، فلم يقتنعوا بما ورثوه من معارف وأفكار ، ولم يقفوا عند حد التلقين والاقتداء ؛ بل أخذوا يفكرون فى أمر الدين ومسائله تفكيراً شخصياً يعتمد على النظرة الخاصة ثم على العمق والتحليل وسنرى بعد قليل كيف كانوا ينظرون إلى طبيعة المسيح نفسه ؛ وتلك كانت

---

[1] انظر — اللغة والنحو — مبحث النحو بمعناه العلمى ص ١٤٩ وما بعدها

جرأة لم تعهد عند من سبقهم من المسيحيين .

وكانت هذه الحركة العلمية بلا ريب أثرا لعوامل عدة ، منها ما ورثوه من حضارة قديمة فى تلك البيئة التى استقروا فيها ، ومنها صلتهم المباشرة بالفرس وبما لديهم من نظم وأديان ومعارف وأفكار من ناحية ، وباليونان وبما عندهم من أدب وعلم من ناحية أخرى ، مما جعلهم يتعلمون لغة اليونانيين ، ويدرسون علومهم وآدابهم وفلسفتهم ، ويهضمون حضارتهم ، وينقلون كثيراً من آثارهم العلمية والأدبية ، مما كان له أعظم الأثر فى التعرف على آثار اليونانيين ، والانتفاع بمناهجهم العلمية وبأساليبهم فى الفكر والدرس ، ومنها ما عرف عنهم منذ تكوينهم تكويناً اجتماعيا من اتجاههم إلى المعرفة ودرسها وتحصيلها أيا كان نوعها وفى أى بيئة وجدت ؛ وليس أدل على ذلك الاتجاه عندهم من انصرافهم عن الناحية السياسية وعدم تشبثهم بأقامة دولة مستقلة لها حدودها الجغرافية ، ولها إدارتها المنظمة وجيشها المدرب ومطامعها الواسعة ؛ ويبدو أن كل ذلك لم يدخل لهم فى حساب ولم يكن له أثر فى تاريخهم ؛ فقد رأيناهم يعيشون قانعين بالهدوء الاجتماعى تحت كنف الملوك والأباطرة من بابليين وآشوريين إلى فرس ويونانيين وروم ، وأما ما يختص بمملكة الرها وما كان لها من نفوذ جزئى وسلطان نسبى فأن هذه المملكة لم تنشأ إلا فى العصور الأخيرة قبل ميلاد المسيح وبقيت حتى العصور الأولى بعد ميلاده ، وقد ذكر المؤرخون أن الذى أسس هذه المملكة الآرامية إنما هى أسر عربية قد وفدت إلى الآراميين فى هذه البيئة واستطاعت أن تكون منهم وحدة وأن تنشىء لهم دولة فكان الآراميون يكونون الشعب ، والعرب فيهم يتوارثون الملك ؛ وقد استدل المؤرخون على ذلك بما عرفوه من أسماء أولئك الملوك ومنها :

معن ووائل وأبجر . وفيما عدا ذلك فلسنا نعرف للآراميين نشاطاً سياسياً ملحوظاً . وإنما على العكس من ذلك كان نشاطهم العلمى يغمر حياتهم ويفوق معاصريهم من الأمم المجاورة .

وإذا أردنا أن نلمس صورة حية تتمثل فيها حياة الآراميين ودرجة نشاطهم فما علينا إلا أن ننظر إلى حياة اليهود وتاريخهم منذ أن أخضعتهم روما لسلطانها نهائياً حوالى سنة ١٣٥ بعد الميلاد تحت حكم الامبراطور أدريان فقد تركوا الحياة السياسية من ذلك التاريخ وتفرقوا فى مختلف البلاد شرقا وغربا ، وأخذوا ينشطون علمياً وأدبياً واقتصاديا ، وكنا كلما قرأنا حياة اليهود ونشاطهم فى ممتلكات الدولة الرومانية ، أو فى شمال أفريقيا وفى أسبانيا تحت حكم الدولة الإسلامية ؛ أو فى أوروبا أثناء العصور الوسطى أو فى ألمانيا وفى روسيا وفى انجلترا وفى أمريكا أثناء العصور الحديثة ؛ نقول كلما قرأنا تاريخ اليهود ونشاطهم فى تلك العصور وفى هذه البيئات رأينا تشابها عجيباً بين هذين الشعبين : الشعب الآرامى والشعب اليهودى .

هذه العوامل التى ذكرناها كانت بلا شك أسباب النهضة العلمية عند الآراميين بشكل عام ؛ وبفضل تلك النهضة قد سادت لغتهم على لغات الشعوب المجاورة ، وأصبحت لغة المراسلات الدولية كما كانت لغة الحديث والعلم والأدب .

ولم تكن لغة الآراميين فى بيئة العراق واحدة ؛ بل أنها كانت متعددة اللهجات ؛ إذ عرف لديهم لهجة المندعيين فى الجنوب وهذه اللهجة المندعية مشتقة من كلمة أرامية ـ م د ع ا ـ ومعناها المعرفة ، وأصحابها يسمون بالمندعيين وهم فريق من الآراميين كان يسكن منطقة نهر الأردن

ثم هاجر منها إلى العراق ؛ وهناك استقروا وخلطوا فى تعاليمهم بين مذاهب اليهود والنصارى ووثنية البابليين واثنينية الفرس ؛ واستمروا يمارسون هذا الخليط من التعاليم الدينية حتى جاء الاسلام فأضافوا من تعاليمه أيضاً إلى تعاليمهم القديمة ، ولعل أهم ما يجب معرفته بالنسبة لهذه اللهجة هو أنها اللهجة الآراميه الوحيدة التى حافظت على خصائص الآراميه القديمه ولم تتأثر بأى مؤثر خارجى كما حدث فى غيرها من اللهجات الأخرى . واللهجه الحرانية نسبة إلى مدينة حران ؛ واللهجه السريانيه وهى لهجة مدينة إديسا *Edessa* كما كان يسميها الفرنجة أو مدينة الرها أو أورفه كما كان يسميها العرب ، ومسمى هذه الأسماء يراد منه عاصمة الأقليم المحصور بين النهرين فى الشمال ؛ وهذه اللهجه لم تعرف أول الأمر باللهجة السريانيه وإنما كانت لهجة أرامية وقد استمر أصحابها من سكان تلك المنطقة يسمون بالآراميين ولغتهم باللغة الآرامية حتى اعتنقوا المسيحية فرأوا فى الأحتفاظ بالتسمية القديمة مرادفا لمعنى الوثنية وأرادوا تسمية أخرى ففضلوا التسمية التى كان يطلقها اليونانيون عليهم وهى « السريان » وتبعا لذلك فقد سموا لغتهم أيضا بالسريانيه . وقد تمكنت اللهجة الأخيرة من التغلب على كل اللهجات الأخرى حتى أصبحت لغة الترجمة والتدوين ، ولم يقف أمر انتشار هذه اللهجة على شمال وادى الرافدين بل تعدى ذلك إلى الجنوب والشرق فانتقلت مع المبشرين المسيحيين منهم إلى بلاد فارس ثم إلى بلاد التركستان والهند حتى بلاد الصين ، وقد بلغ من نهضة هذه اللهجة انها اصبحت لغة الدراسة فى الطب وفى العلوم الطبيعية فى مدارس الفرس تحت حكم الساسانيين وكان ذلك على الخصوص فى مدرسة جنديسابور . وذلك بفضل ماكان فى مدينة إديسا من نشاط علمى ودينى وأدبى وأثر ذلك يظهر واضحا فى الانقسام الدينى بين رجال الكنيسة فى

هذه المدينة من جراء أبحاثهم العميقة فى فهم طبيعة المسيح . ولقد لعبت الكنيسة المسيحية عند السريان دورا هاما لايقل عن الدور الذى كانت تقوم به الجامعات فى العالم القديم أو المدارس الدينية فى العصور الحديثة .

ولقد كان ذلك الانقسام فى القرن الخامس بعد الميلاد حين وجد الخلاف بين العالمين الدينيين : نوسطوريوس ، ويعقوب بارادرس . رأى الأول منهما الوحدة الألهية فى طبيعة المسيح ، بينما كان الثانى يقرر ازدواج طبيعة المسيح . أى أنها مزيج من الطبيعة الألهية والطبيعة البشرية ، وقد امتد أثر هذا الخلاف بين العالمين حتى شمل كل رجال الكنيسة فانقسموا الى فريقين كل فريق يؤيد مذهبا من المذهبين وينسب إلى صاحبه . أما اليعاقبة فقد انحازوا إلى اخوانهم فى الغرب حيث ساد مذهبهم ، وأما النساطرة فقد كانوا شرقيين تحت حكم الفرس وعملوا على نشر مذهبهم فى كل أرض النهرين . بل لقد تجاوزوا ذلك الى الشرق ولم يألوا جهدا فى أرسال المبشرين منهم الى مختلف البلاد يدعون إلى هذا المذهب ويقيمون الدليل على صحته وينقضون ماعداه .

ولم تتأثر نهضة السريان العلمية بما كان يتوالى على مدنهم من أحداث سياسية خطيرة كغزو الفرس ، ثم ماتلى ذلك من غزو اليونان وبقاء البلاد تحت حكمهم مايقرب من قرنين ونصف قرن ، ثم ما أعقب ذلك أخيرا من غزو الروم . بل إنهم على العكس من ذلك كانوا كثيرا مايستغلون هذه الفرص فيأخذون من معارف هؤلاء الغزاة وعلومهم مايدعم حضارتهم ويرقى بمعرفتهم وينمى ثروتهم العلمية . ولعل صلتهم المتوالية بأمم مثقفة متحضرة تعتبر مسؤلة إلى حد ما بالنسبة إلى عدم أصالتهم ، فكان همهم جمع معارف تلك الأمم وتسجيل علومهم أو نقلها إلى لغتهم ، ولم يكن

لهم فى ميدان الابتكار أو الابتداع شىء يذكر . ولقد حاول بعض الباحثين أن ينسب إليهم أصالة فى الفلك وفى غيره من العلوم الطبيعيـة ، وضرب لنشاطهم فى هذا أمثلة منها كتاب قوانين البلدان لابن ديصان وغيره من الكتب التى يظن أنها كانت موجودة وفقدت بعد انتشار المسيحية ، ولكن ذلك أيضا لايعدو أن يكون نوعا من المحاكاة والتقليد لمعارف البيئات التى نشئوا فيها والحضارات التى درسوها وتبنوها . ولقـد أوضح التاريخ أنه من الصعب أن ننتظر أصالة وابتداعا فى ميادين العلم والأدب من شعب يعيش سياسيا على حساب غيره وليست له وحدته القومية ولا كيانه السياسى وهل كان الآراميون غير ذلك ؟.

وليس غريبا إذن أن نعرف أن السريان قد درسوا ثقافة الفرس وتعلموا لغتهم ، ودرسوا ثقافة اليونان وأجادوا لغتهم ، ودرسوا ثقافة الروم وعرفوا لغتهم ، ثم انهم قد ترجموا كثيرا من علوم هؤلاء الشعوب وآدابهم . ولم يعرف لغيرهم فى الشرق مثل هذا النشاط ، فكانوا فى الواقع حلقة اتصال لابد منها بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب ، كما كانوا فيما بعد حلقة اتصال لابد منها بين الثقافات القديمة والثقافة العربية الأسلامية .

ومع ذلك فنحن لانزال نجهل تماما مدى هذا النشاط العلمى بالدقة ، ومبلغ ما أنتجوه من آثار أدبية وفنية فى القرون الاول التى سبقت انتشار الديانة المسيحية ، إذ أنه لم يصل إلينا من تلك الفترة الطويلة إلا أثر واحد هو عبارة عن خطاب كتبه « مارا بن سارابيون . أما ماعثر عليه من كتابات على القبور ، ومن سجلات فى تاريخ الملوك والمدن فهو بسيط وقليل الأهمية بالنسبة لما نحن بصدده ، وهو الحديث عن الحضارة السريانية وكيف استطاعت أن تصبغ حضارات وادى الرافدين بلون جديد . وأما خطاب

خطاب مارا بن سرابيون فأنه على العكس من ذلك يستحق منا أن نقف عنده وقفة قصيرة نبين فيها موضوعه وهدفه وما يمكن أن يستخلص منه بالنسبة لأدب الآراميين الدينى ولمبلغ درايتهم بالثقافة اليونانية :

وقد نشر هذا الخطاب الأستاذ - كيوريتون - المستشرق الأنجليزى ، وحاول أن يحدد تاريخ تأليفه أو كتابته ولكنه لم يجد من الأدلة المقنعة مايكفى لتحديد سنة كتابته بالضبط فلجأ إلى ما فى الخطاب من أحداث سياسية وذهب إلى أن هذا الخطاب يحتمل أن يكون تأليفه فيما بين نهاية القرن الأول الميلادى ونهاية القرن الثانى الميلادى ، وهذه فترة طويلة كما نرى ولكن ليس هناك من سبيل آخر . وقد قام بترجمة هذا الخطاب الأستاذان مراد كامل ومحمد حمدى البكرى فى كتابهما - تاريخ الأدب السريانى من نشأته الى الفتح الأسلامى ، فليس يعنينا إذن نقل الترجمة وعلى من يريدها فليرجع إليها [1]. أما موضوع الخطاب فهى جملة نصائح يسجلها مارا بن سرابيون وهو سجين الروم ليبعث بها إلى ولده سرابيون وهو يتلقى العلم على أحد الأساتذة وقد كانت هذه الرسالة ردا على خطاب كتبه هذا الاستاذ إلى والد التلميذ السجين يخبره فيه عن مجهود ابنه وحسن تقبله للعلم وقوة استعداده للاستفادة .

وأما هدفه فهو كما يبدو لنا يمكن أن يختصر فى نقطتين : الأولى : هى رسم منهج واضح للتلميذ الشاب حتى ينشأ مشبعا بالمبادىء الدينية والخلق الفاضل والمعانى السامية الروحية ولو كان ذلك على حساب المادة بأوسع معانيها . الثانية : أن يبث حزنه وينفس عن روحه ويعلن شكواه مما وجده

---

[1] أنظر هذا المرجع ص ٢٦ إلى ٣٢ .

ويجده فى الأسر ، ومما قاساه ويقاسيه وطنه المغلوب على أمره ، والواقع تحت ظلم الحكام من الرومانيين . وفى هذه النقطة بالذات نجد الكاتب يسمو بروحه طورا حتى يصل بها إلى عالم كبار الفلاسفة الذين لاتشغلهم الدنيا ولا يفزعهم الموت وإنما ينتظرونه راضين ويتقبلونه مسرورين وينظرون اليه نظرتهم الى المنقذ من حياة ملؤها الحزن والهم والشقاء ، والموصل الى حياة كلها سعادة وحب وهناء كما كان سقراط وزينون ، ونجده طورا آخر يهبط بروحه الى عالم الأرض فيذكر أحداثه وهمومه وآلامه ، ثم يندفع وراء تلك الذكريات المادية المحدودة حتى يستشعر حنينا يشبه حنين الأطفال إلى الوطن الخاص فى أبسط معانيه وأضيق حدوده ، وشوقا يشبه شوق البسطاء من الناس إلى الأهل والأقارب والأصدقاء فتشتد همومه كما يقول وتظلم الدنيا فى عينيه ويزداد بكاؤه .. وأما مايمكن استخلاصه من هذا الخطاب بالنسبة لأدب الآراميين الدينى فهو مانحسه من تلك النزعة الصوفية وذلك الزهد المشوبان بشىء من الحرص مهما قل شأنه ، وما نجده من تلك النغمة الدينية المسيحية الحزينه الصوفية ، ثم مانره من طغيان العاطفة وتملكها لزمام العقل ، وهناك أمر آخر يمكن استخلاصه من هذا الخطاب ربما كان أهم من ذلك كله ذلك هو مانراه من طابع اليونانيين وأثر الثقافة اليونانية ، فقد اتخذ الكاتب من أبطال اليونانيين وحكمائهم وفلاسفتهم وعلمائهم أمثلة يضربها لشرح دعاواه ، وبيان حججه ، والبرهنة على نتائجه ، مما يدل على أن الثقافة اليونانية كانت ذائعة منتشرة عند الآراميين فى ذلك الزمن وأن انتاج اليونانيين العلمى والادبى والفلسفى كان مدركا مفهوما ، وها هى ذى بعض فقرات من الخطاب تكشف لنا عن تلك الحقيقة : « قال لنا حكيم الناس : على اى المقتنيات يعتمد الانسان ، أو عن أى الأشياء يتحدث

على أنها هى الأكثر تحملا ؟ على كثرة الثروة ؟ فانها عرضة للنهب . أو على الحصون ؟ فانها مستباحة . أو على المدن ؟ فانها عرضة للتخريب . أو على العظمة ؟ فانها عرضة للأذلال . أو على الكبرياء ؟ فانها محطمة . أو على الجمال ؟ فانه ذابل . أو على القوانين ؟ فانها زائلة أو على الفقر ؟ فانه محتقر . أو على البنين ؟ فانهم يموتون . أو على الاصدقاء ؟ فانهم كاذبون . أو على الشرف ؟ فان الضغينة تسبقه . ومن هنا فليفرح بملكه رجل كدارا [1] ... وبشجاعته رجل كأخيل [2] ، وبأمراته رجل كأجاممنون [3]

---

[1] يعتبر دارا الملك الرابع من ملوك دولة الأخمينيين فى بلاد الفرس ، ونرجح أن الكاتب يريد به دارا الأول فقد كان أعظم الثلاثة شأنا وأعلاهم ذكرا (دارا الأول ، ودارا الثانى ، ودارا الثالث). وقد حكم دارا الاول من سنة ٥٢١ الى سنة ٤٨٥ ق. م. وقد بلغ الرخاء فى الدولة الفارسية أيامه الى الذروة ، فقد نجح فى ضم المدن الأغريقية الغنية فى الساحل الأسيوى إلى ممتلكاته .

[2] أخيل هو اسم لأعظم بطل يونانى من أبطال الألياذة ، وقد بقى بين اليونانيين رمزا للقوة والشجاعة والجرأة ، والأساطير اليونانية تصوره ملكا من ملوك اليونانيين وقائدا للحملة اليونانية ضد الاسيويين فى حروب طروادة ، فقد جاء على رأس الجيش وحاصر مدينة طرواده وقتل هيكتور بن ملك المدينة ولكنه اصيب بسهم مسموم فى قدمه فقضى عليه . والمهم أن اسم اخيل فى هذا النص يوحى بكل ماجاء فى ملحمة الألياذة من حروب وانتصارات ومخاطرات وحوادث ، إذ أن أغلب الملحمة تدور حوله وتقتفى آثاره .

[3] أجاممنون ، هو أحد أبطال الألياذة أيضا ، ولعله أكثرهم شهرة بعد أخيل ، وتتحدث عنه الأساطير اليونانية كملك من ملوك اليونانيين ، وتجعله رمزا للبطولة ومثلا أعلى للتضحية فى سبيل الوطنية واحراز النصر ، فتروى الأساطير أنه بعد أن أعد حملته للذهاب إلى طرواده فى آسيا اشتدت الريح وهبت العواصف فمنعت مراكب اليونانيين من الاقلاع وبعد صبر نافد أشير على أجاممنون بأنه يستطيع أن =

أو بنسله رجل كبريانوس [1]، أو بمهارته رجل كأرخميدس [2].

= يسترضى إله الرياح لكى يهدىء من العواصف وذلك بأن يضحى بابنته — ايفيجينى — *iphigénie* —، فقبل أجا ممنون وضحى بابنته فى سبيل الوصول إلى آسيا لمحاربة الأعداء وكسب النصر . ثم تصوره الأساطير أخيرا بصورة الضحية للخيانة والغدر فأن امرأته قد تآمرت عليه مع عشيقها وقتلته .

[1] أن النص فى الترجمة لهذا الخطاب هو — پريانوس — ولقد حاولنا عبثا وأجهدنا النفس طويلا فى البحث عن هذه الشخصية فى مظان وجودها من المعاجم اللغوية وكتب الأدب والتاريخ ولكن ذلك كله لم يهدنا الى شىء، وأخيرا ، رجحنا أن تكون هناك شبهة على المترجم أو على الناقل فى الترجمة أو النقل وأن الاسم هو — پرياموس — بدل — پريانوس — والتحريف بين الاسمين سهل لقوة الشبه بينهما ، لاسيما أن المثل الذى قصد اليه مؤلف الخطاب ينطبق تماما على پرياموس . وإذن فهو إسم لشخصية أسطورية أيضا تقول عنه الأساطير بأنه كان آخر ملك لمدينة طروادة وفى عهده جاء اليونانيون لمحاربته بسبب صنيع ابنه - پاريس - إذ أنه اختطف زوجة ملك يونانى اسمه - مينيلاس - *Ménélas* - وجاء بها إلى بلده فى آسيا وكان ذلك ، فى نظر الأساطير القديمة ، السبب المباشر فى حروب طرواده وعلى ذلك وضع هوميروس ملحمته المعروفة بالألياذه . ثم تستمر الأساطير فى تصوير الحروب بين اليونانيين وأهل طرواده فتتوالى الحروب وتتعاقب الأحداث حتى تسقط المدينة ويتم النصر لليونانيين وبعد ذلك يكون نصيب - پرياموس - القتل بيد - بيرهوس - *Pyrrhus* ، وهو ابن أخيل ، وتنتهى تلك الأحداث بزواج بيرهوس من اندروماك ، أرملة هيكتور بن برياموس . ولم تكن شهرة - برياموس - آتية من ملكه ومن احداث طرواده فقط ، وإنما جاءته من أنه أنجب أبطالا مهرة أمثال : هيكتور ، وباريس ، وكاساندر . . . الخ . وهذا مايشير اليه كاتب الخطاب ، مارا بن سرابيون .

[2] يعد ارخميدس أو أرشميدس من اكبر علماء العالم القديم أن لم يكن اكبرهم على الأطلاق ، وقد ملأت شهرته ذلك العالم لامكانته فى العلم فقط ، ولا لمنزلته =

= بالنسبة للاختراعات العلمية فقط ، ولكن لوطنيته أيضا ، إذ أنه وضع علمه ، وشخصه ، واختراعه ، بل وحياته فى خدمة وطنه . ولد فى مدينة سيراكوز ، من أكبر المدن فى جزيرة صقلية قديما ، فى سنة ٢٨٧ ، وقتل سنة ٢١٢ ق.م. وقد هداه علمه وبحثه إلى اختراع الكثير من الأشياء النافعة ، ولعل أهمها : أولا : آلة لنقل أثر النار وحرارتها دون لمس اللهب . ثانيا : آلة لرفع المياه إلى الأماكن المرتفعة شبيهة ببعض الآلات المستعملة عند الزراع فى قرى مصر الآن . ثالثا : آلة لرفع الأثقال بأقل مجهود يبذله الأنسان . رابعا : اكتشافه لقانون ثقل الأجسام فى الماء ويعزون السبب فى ذلك إلى القصة الآتية . أمر هييرون *Hiéron* ، ملك سيراكوز صائغا بأن يصنع له تاجا من الذهب الخالص ، فصنع الصائغ ما اراده الملك ، ولكن قيل له بأن الصائغ قد أضاف جزءا من الفضة واحتفظ بما يقابله من الذهب فغاظ ذلك الملك وأراد أن يتبين حقيقة الامر قبل أن يعاقب الصائغ فطلب من العالم ارخميدس أن يكتشف له هذه الخيانة بوسائله العلمية دون أن يمس التاج بأذى . فكر أرخميدس فى هذه المسألة طويلا فلم يهتد الى حل . وأخيرا فى أحد الايام دخل الحمام وبينما هو يستحم لاحظ أن أعضاء جسمه يقل ثقلها داخل الماء فيستطيع تحريكها بسهولة أكثر من تحريكه إياها خارجه ، ولما فكر فى ذلك وجد أن هذه الظاهرة لابد وأن تلقى الضوء على قانون علمى يستطيع المرء بواسطته أن يعرف ثقل الأجسام بالنسبة لما تشغله من حيز فى الماء ، وبالتالى يستطيع هو أن يكتشف مايمكن أن يكون قد أضيف الى تاج الملك من فضة ، وحينئذ استهوته تلك الظاهرة ، وقدر نتائجها البعيدة ، فأخذته نشوة الفرح فخرج من الحمام جاريا فى شارع المدينة وهو ينادى بصوت مرتفع *Eurêka ! Eurêka !* ؛ أى « وجدتها ! وجدتها » ، وها نحن أولاء فى القرن العشرين بعد الميلاد ولا نزال نستخدم قانونه العلمى المعروف بقانون ارشميدس : « كل جسم مغمور فى سائل يفقد جزءا من وزنه معادلا لوزن كمية السائل التى حل الجسم محلها ».

وقد استطاع هذا العالم أن يمنع الرومانيين من الاستيلاء على مدينته بالرغم من كثرة عددهم وعددهم ، فمكث جند روما وعلى رأسه القائد المشهور مارسيللوس ثلاث سنوات يحاول الهجوم على المدينة والوصول دون جدوى ، وذلك بواسطة =

أو بحكمته رجل كسقراط [1] ...

= اختراعه للمرآة التى اذا سلطت على المراكب أحرقتها وهى فى عرض البحر قبل أن تصل إلى الشاطىء . اذ أنها تستطيع أن تجمع أضواء الشمس ثم تركزها فى نقطة محدودة يكون من نتائجها خلق كمية عظيمة من الحرارة تكفى لاشعال النار كنظام العدسات الحارقة الآن .

وأخيرا تغلب الرومانيون وتمكنوا من الاستيلاء على المدينة وأعملوا فيها القتل والنهب والتخريب . ويروى أن القائد الرومانى أمر جنده بالمحافظة على حياة العالم أرخميدس - وعدم مساسه بأى أذى أن هم عثروا عليه . ولكن قيل أن أحد الجنود الرومانيين ، وهم يعيثون فى المدينة فسادا ، وجد العالم مستغرقا فى البحث وفى التفكير لايدرى أن المدينة سقطت وأن العدو قد احتلها ، وحاول الجندى أن يعرف شخصيته وماذا يصنع فلم ينتبه إليه - أرخميدس - فغاظ ذلك الجندى فقتله .

[1] يعتبر سقراط من أصحاب المذاهب الفلسفية القديمة ، وهو من أشهر فلاسفة اليونانيين الذين جاؤا بعد الحركة السوفسطائية ، وفلسفته ليست إلا رد فعل لتلك الحركة التى أنكرت وجود الحقائق المجردة . جاهد سقراط فى توجيه الفلسفة إلى دراسة الأنسان نفسه بعد أن كانت تدرس المسائل الطبيعية ، وما هو وراء الطبيعة ، وما يستلزمه البيان وزخرف القول .

نشأ سقراط فى أسرة متواضعة ، فكان والده نحاتا ، وكان مولده حوالى سنة ٤٦٨ ق. م. وقد امتاز سقراط بطريقته فى التعليم . فكان يختلط بالناس من أى وسط وفى أى بيئه ، ويتحدث معهم فى أى موضوع تمليه الظروف ، فطورا يسأل وطورا يناقش وطورا يسخر . وتعتبر الفلسفة الأخلاقية مدينة لسقراط إلى حد بعيد . ولم يكتب سقراط فى الفلسفة أى كتاب ، وإنما نشر أفكارا ، وترك مبادىء . ولما اشتدت معارضته للمبادىء الفلسفية التى كان الناس قد الفوها من قبل أثار حول نفسه موجة من السخط عليه والغضب منه فاتهمه فريق بالألحاد والدعوة ضد الدين وما هو مقدس عند المعاصرين ، وسيق إلى القضاء فحكم عليه بشرب كأس السم فقبل هذا الحكم راضيا وشرب السم مطمئنا ، وكان ذلك فى سنة ٤٠٠ أو ٣٩٩ ق. م.

أو بعلمه رجل كفيثاغورس [1]، فحياة الناس يابنى زائلة عن العالم ، أما مجدهم وفضائلهم فباقية إلى الأبد . »

وإذا كنا لم نجد من آثار الآراميين الأدبية ، سواء كان ذلك فى عهد الوثنيه أم فى أوائل المسيحية ، سوى هذا الخطاب فأن هذا الأثر وحده واضح الدلالة على دراية الآراميين وسعة اطلاعهم وتهذيب نفوسهم .

غير أن عدم عثورنا حتى الآن على ماأنتجوه أيام الوثنية لاينبغى أن يحول بيننا وبين تصور هذه النهضة العلمية العظيمة التى أوجدها الآراميون فى

= وقد روى أنه بعد أن حكم عليه بشرب السم مكث فى السجن ثلاثين يوما ينتظر تنفيذ القضاء وكان أمامه سبيل الهرب ممهدا ميسورا ، ولكنه أبى أن يقدم على ذلك حتى لايضرب لتلاميذه هذا المثل السيء ، وهكذا كان سقراط فى حياته وفى فلسفته وفى موته مثلا أعلى ، فقد قال عنه رجال الكنيسة المسيحية : إنه الطليعة والممهد لمجيء المسيح ، ورأى فيه جان جاك روسو مثالا للمسيح فقارنه به طورا وعارضه به طورا آخر .

[1] نشأ فيثاغورس حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وقد اشتغل بالفلسفة والرياضة حتى نبغ فيهما نبوغا عظيما فأسس فى ميدان الفلسفة نوعا من الأخلاق جعله منهجا للحياة ، وأسس فى ميدان الرياضة طريقة فى الميتافيريقا ووضع نظرية فى الموسيقا ، وكان يرى أن مبدأ الوجود فى الأشياء ينحصر فى العدد ، ثم فى التوافق والانسجام بين الأجزاء . ويروى أنه كان من دعاة تحريم أكل لحم الحيوان والاكتفاء بما تنبته الأرض ، وقد نظم فيه بالنسبة لهذا المبدأ الشاعر اللاتينى أوفيد قصيدة طويلة ممتعة ، وكان من مبادئه الأخلاقية المساواة المطلقة بين أفراد المجموعة الواحدة ، وقيل أنه كان ينفذ هذا المبدأ فى مدرسته مع التلاميذ ، فكان يأخذ كل مايحمله التلاميذ من مال وغيره وهم من طبقات الشعب المختلفة ، فيضع كل ذلك فى صندوق خاص ثم يوزع محتوياته على التلاميذ جميعا بالتساوى لافرق بين أرستقراطى وشعبى ، ولا بين غنى وفقير .

بيئة العراق .

وإذا كان لنا أن نستأنس بشيء للدلالة على عظمة هذه النهضة فحسبنا أن نعلم أن الاراميين وهم الخاضعون سياسيا لسلطان غيرهم قد استطاعوا أن يفرضوا لغتهم على كثير من الشعوب فى مساحة من الأرض لاتقل عن ٦٠٠ر٠٠٠ من الكيلومترات المربعة : أرض التهرين ، سوريا ، فينيقيا ، فلسطين ، تدمر ، النبط ، وشبه جزيرة سيناء . وهذا عدا انتشارها فى بيئات أخرى بجانب اللغات الأصلية لتلك البيئات ، وذلك كمصر ، وآسيا الصغرى وبلاد الفرس ، وأجزاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، وليس ذلك بمستغرب مع ما عرف من سهولة لغة الآراميين ، وحيويتها ، وثروتها العلمية والأدبية مما كان له أثر كبير فى أن تصبح لغة رسمية بين الدول وفى مخاطبات الملوك كما حدث ذلك بين الفرس والمصريين . ولقد كان انتشار اللغة الآرامية وذيوعها فى اقطار واسعة عاملا هاما من عوامل انتشار المسيحية وبث تعاليمها وتثبيت دعائمها فى فترة محدودة من الزمن ، إذ لم تكن هناك حاجة لرسل المسيحية ودعاتها لأن يتعلموا لغة الشعوب الذين ينتقلون اليها وينشرون دعوتهم فيها . أما بعد أن اعتنق الآراميون الدين المسيحى فقد وجهوا كثيرا من اهتمامهم وعنايتهم الى الدراسات الدينية ، مستخدمين فى ذلك ماكانوا يعرفونه من علم وفلسفة وأدب ، غير أن ذلك لم يصرفهم عن الاشتغال بالمعارف الأخرى فاستمروا ، كما كانوا من قبل ، يمارسون الترجمة اليونانية واللاتينية ، والفارسية ، ويؤلفون فى الطبيعة والرياضة والفلك والطب ، والتاريخ ، وتقويم البلدان . واعتناق الآراميين للمسيحية جعل آفاقا عديدة واسعة تتفتح أمام نشاطهم فاستغلوا تلك الآفاق وأتخذوا منها ميدانا أوسع للدربة والدراية واكتساب المعرفة ، فذهبوا بأنفسهم إلى بلاد

الفرس وإلى جنوب وادى دجلة والفرات ، وإلى شبه الجزيرة العربية واتصلوا بالهند ثم انتقلوا إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان وروميه ، وشمال افريقيا ؛ ولم يكونوا فى كل تلك الأسفار مجرد حمله لرسالة دينية أو مجرد دعاة لنشر الدين المسيحى وإنما كانوا فى نفس الوقت يمتزجون بالشعب ، ويتصلون بالطبقات المثقفة فيأخذون ويعطون ثم يتأثرون ويؤثرون، وفى الحق أن نهضة المسيحية تعتبر مدينة للاراميين إلى حد بعيد ، كما أن الثقافة الآرامية التى عرفت فيما بعد بالثقافة السريانية ، تعتبر مدينة للمسيحية كذلك إلى حد بعيد . وينبغى ألا تفوتنا الاشارة هنا الى أن اعتناق الآراميين للدين المسيحى وظهورهم فى ميدان نشر الدعوة الجديدة قد قضى على نشاط اليهود فى نشر دينهم قضاء يكاد يكون تاما ، وأخذوا يستقلون بمهمة التبشير شيئا فشيئا حتى كادوا يحتكرونها لأنفسهم تماما ، فبينما نجد دعاة المسيحية الأول من اليهود أو من أصل يهودى ، إذ بنا نجدهم فى خلال القرن الثانى والثالث والرابع من الآراميين أو من السريان ؛ وبينما نسمع أن الدعوة للدين اليهودى كانت لاتزال تجد لها حتى القرن الأول الميلادى أعوانا ومؤيدين سواء فى شبه الجزيرة العربية ، شمالها وجنوبها ، أم فى وادى الرافدين ، شماله وجنوبه ، إذا بنا نجد تلك الدعوة تكاد تتوقف تماما فى خلال القرن الثانى بعد الميلاد .

وليس من موضوعنا هنا أن نفيض فى الحديث عن النزاع بين اليهودية والمسيحية بعد اعتناق الآراميين لدعوة المسيح ، ولا لما كان يصنعه اليهود فى شبه الجزيرة العربية وفى وادى دجلة والفرات لنشر دعوتهم وللتبشير بدينهم فكلنا يعرف ما كان لليهود من نشاط فى هذا الميدان فى منطقة تبوك ثم فى بلاد اليمن ، وها هى ذى كتب السير والتاريخ بل والنصوص القرآنية تلقى

الضوء على كل ذلك ، فصلة الرسول باليهود وعهوده معهم بعد هجرته من مكة تحت ضغط القرشيين ليس إلا امتدادا وأثرا لذلك النشاط اليهودى فى شمال شبه الجزيرة العربية ، وكذلك قصة أصحاب الأخدود فى القرآن ليست إلا أثرا وامتدادا لنشاط اليهود الدينى فى بلاد اليمن . يحدثنا التاريخ أن نصارى بخران قد أريدوا على اليهودية فامتنعوا وكان الأمر يومئذ فى يد زرعة فكبر عليه ذلك وأمر بصنع أخدود ملأه نارا ثم قذف بهؤلاء النصارى فى ذلك الأخدود فاقتحموها مفضلين النار على الارتداد عما ارتضوه لأنفسهم دينا .

وأما نشاط اليهود فى وادى دجلة والفرات فيتبين من تلك القصة [1] : هناك فى شرق الدجلة وفى تلك المساحات المترامية التى كانت تعرف بمملكة آشور كانت توجد منطقة تسمى — حَذَيب — وعاصمتها مدينة — أربل — وكان الدين المنتشر فى تلك المنطقة هو الدينى الوثنى، وفى عهد الملك مونوباز الذى كان يحكم على تلك المنطقة ويقيم فى مدينة أربل حدث نفور بينه وبين ولده — يزْدْ — . ولما خشى نتيجة ذلك النفور أقصى ابنه بعيدا عن ملكه وتركه عند صديق له يسمى — عبد نرْجلْ — الذى كان يملك على المنطقة الجنوبية من وادى الرافدين والمشتملة على الأراضى الواقعة حول مصب الدجلة والتى نشأت عليها فيما بعد مدينة البصرة . وينتهى أمر — يزد — بزواجه من أبنة الملك الذى آواه واسمها — سومكا — وباعتناقه للديانة اليهودية على يد تاجر يهودى اسمه — حنانيا — . وتمضى الأيام ويتقدم

---

[1] هذه القصة يذكرها بالتفصيل المؤرخ يوسيفوس فى الباب العشرين من كتاب « الآثار » ويذكر مختصرا عنها كتاب - تاريخ الأدب السريانى من نشأته إلى الفتح الأسلامى - تأليف دكتور مراد كامل ودكتور محمد حمدى البكرى ص ٤٣-٤٤

العمر بالملك - مونوباز - فيطلب عودة أبنه الى ملكه ، ويعود - يزد - مع التاجر اليهودى - حنانيا — الذى كان يعمل داعية لليهودية كما كان يعمل فى التجارة . ولشد ما كانت دهشة - يزد - حينما وجد والدته ، الملكة - هيلانه - قد نبذت الوثنية واعتنقت اليهودية بدورها على يد داعية يهودى أيضا . وفى سنة ٣٦ م يموت الملك - مونوباز - ويخلفه على العرش ابنه - يزد - . ومن ذلك الحين تنتشر اليهودية فى مملكة - حذيب - فالناس على دين ملوكهم ، بل وتصبح اليهودية دين الدولة الرسمى . غير أن هذا النشاط الدينى من جانب اليهود لم يستطع أن يقاوم تيار المسيحية فى تلك المناطق الممتدة من أعلى وادى الرافدين حتى شبه الجزيرة العربية من يوم أن اعتنقها الآراميون وتحملوا عبء نشرها والدعاية لها . وما دمنا نتكلم عن الآراميين واعتناقهم للمسيحية ونشاطهم فى الدعوة لها فلسنا نود أن نترك هذا الحديث دون أن نوضح نقطتين هامتين وأساسيتين معا ، ربما كان فى توضيحهما مايكشف بعض الغموض عن حقيقة الدين المسيحى من ناحية ، وما يميط اللثام عن أثر الآراميين العلمى والفكرى فى هذا الدين ، وبالتالى عن أثر الفلسفة اليونانية فى تلك العقيدة المسيحية من ناحية أخرى .

وهاتان النقطتان هما أولا — كيف نشأ الدين المسيحى وعلى أى أساس قام ؟

ثانيا — إلى أى حد يعتبر الدين المسيحى مدينا للسريان من ناحية وللفلسفة اليونانية من ناحية أخرى ؟

أما عن النقطة الأولى فنقول : ليس فينا من يجهل أن الدعوة المسيحية لم تكن فى أول أمرها سوى ثورة على بعض تعاليم الديانة اليهودية التى بدأت تعنى بالأمور المادية وتنصرف عن المعانى الروحية ، فقام المسيح ليضع

سدا أمام هذا الطوفان المادى وليبين للناس أن هناك سعادة أسمى وأفضل وأخلد من سعادة المادة ، تلك هى سعادة الروح ، وإذن فكان همه الأول ومجهوده الأساسى موجها إلى الروح ، ومعنيا بتهذيبها وأصلاحها ودعوة هذا شأنها لابد وأن تؤسس وتقوم على البساطة واليسر والسهولة ، وهكذا كان الشأن فى دعوة عيسى ، ومن يتبع تعاليمه ومواعظه ونصائحه يجد مصداق ذلك ، بل وأسلوبه فى ألقاء تلك التعاليم كان مشبعا بتلك المبادىء ، فكان يعتمد على ضرب الأمثلة البسيطة المحسوسة لكى يستنتج منها عظاته ويبنى عليها مبادئه وتعاليمه ، بل إنه كان يذهب فى ذلك إلى درجة لم تكن تستسيغها العقلية اليهودية إذ ذاك . ولعل مثلا واحدا من مبادىء المسيح نعتمد عليه هنا يكفى لتوضيح مانحن بسبيله من بيان حقيقة الدعوة المسيحية والبرهنة على أن تلك الدعوة ليست إلا رد فعل لتعاليم اليهود وشرائعهم ، ذلك المثل هو المبدأ المعروف فى شريعة عيسى القائل من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . هذا مع ماهو معروف من مبدىء الشريعة اليهودية القائل : « النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن » . أليس مبدأ عيسى رد فعل مباشر لمبدىء الشريعة اليهودية ؟ وأليس هو نفسه يعتبر مثلا أعلى فى تربية الروح وتهذيبها والبعد بها عن كل ماهو مادى ؟ على أمثال هذا المبدأ قامت شريعة عيسى ونهض صاحبها نفسه يدعو ويعلم ويحذر ويبشر . وعلى هذا الأساس كانت دعوة المسيح فى أول عهدها أبعد ماتكون عن النظريات اللاهوتية المعقدة ، والأفكار التحليلية المبهمة ، والمبادىء الفلسفية الغامضة ، والتعاليم الجامعية أو المدرسية التى تقوم على البحث العميق والجدل العنيف والمناظرة الحادة الصاخبة ، استمرت دعوة عيسى مصبوغة بهذا الطابع من اليسر والسهولة والبساطة حتى نهاية حياته ، ثم قام من بعده الحواريون والأنصار وتلاميذهم من خلفهم يحرصون على

تعاليمه ويترسمون طريقته مبتعدين فى الجملة عن المناقشات الكلامية والجدل الفلسفى اللهم فيما يختص بالبرهنة على صحة هذه الدعوى وإبطال غيرها من الديانات الوثنية حتى وصلت هذه الدعوة إلى المراكز الآرامية فى الأجزاء الشمالية من وادى دجلة والفرات ؛ وكان ذلك على أرجح الأقوال فى خلال القرن الثانى الميلادى .

وأما عن النقطة الثانية فنقول : منذ وصلت دعوة المسيح إلى بيئات الآراميين وتركزت فى أقاليمهم الشمالية من وادى الرافدين وخصوصاً أقليم حذيب وأقليم الرها بدأ هؤلاء الآراميون يتفهمون أسس هذه الدعوة ويدرسونها على ضوء عقليتهم ومعارفهم الواسعة ، وهم كما قدمنا يمتازون عن جيرانهم بثقافتهم العميقة ومعرفتهم التامة بالفلسفة اليونانية . أنشأ الآراميون فى أقاليمهم البيع والكنائس لاقامة شعائر الدين الجديد ثم فوق ماكانوا يقومون به من عبء نشر هذه الدعوة والتبشير بها أنشئوا كذلك المعاهد لدراسة هذا الدين المسيحى ؛ وهذا هو الذى يعنينا بالذات . وهنا نجد الآراميين يضعون فى خدمة هذه الدراسة كل ماأدركوا من معارف وعرفوا من فلسفة ، فأخذت البساطة فى الدين المسيحى تختفى شيئا فشيئا وتحل محلها دراسة فلسفية معقدة عميقة تحاول أن تخضع كل شىء للعقل وأن تطبق مقاييس المنطق على ماجاءت به هذه الدعوة من مبادىء وتعاليم . ولم تقتصر دراسة الآراميين الفلسفية على مبادىء المسيح وتعاليمه تعللها وتحللها وتذكر آثارها ونتائجها بل أنها تناولت أيضا صاحب الدعوة نفسه : تناولت عيسى ونشأته ، وطبيعة تكوينه ؛ فكان هذا هو الحدث الهام فى تاريخ المسيحية والأفق الجديد الذى فتحه الآراميون فى دراسة هذه الديانة السهلة فى مبادئها ، البسيطة فى أسسها ، الميسورة على الطبقات فى فهمها وإدراكها

وهكذا أصبحنا نجد من موضوعات البحث صلة المسيح بالأله ، والعناصر التى كونت المسيح نفسه ؛ أهى عناصر مادية ؟ أم عناصر روحية ؟ ام خليط من الصنفين معا ؟ ثم تناول البحث كذلك الانسان وأعماله ، فوجدت نظرية القضاء والقدر ، ونظرية الجبر والاختيار ، ونظرية الثواب والعقاب وعلى أى أساس ينبغى أن تفهم ؛ ونظرية المادة والروح بالنسبة للانسان ، ونظرية الخير والشر ، ونظرية الفناء والبقاء بالنسبة للروح والجسد ، ونظرية العناصر الأساسية بالنسبة للخلق المطلق ، أهى النار والهواء والماء والنور والظلمة ؟ أم هى غير ذلك ؟ ونظرية السعادة والشقاء إلى غير ذلك من المسائل العامة والأمور التفصيلية التى شغلت رجال الكنيسة من الآراميين وجعلتهم يختلفون فى الرأى وينقسمون على أنفسهم . وأكبر خلاف وأهم أنقسام هو ما كان بين العالمين الكبيرين :نسطوريوس ويعقوب بارادوس ويتبع ذلك أن تنقسم الكنيسة السريانية ويتحيز فريق من رجالها إلى نسطوريوس والفريق الآخر الى يعقوب بارادوس ؛ ونجد فى أول مرة فى تاريخ المسيحية هذا الاصطلاح : الكنيسة الشرقية ، والكنيسة الغربية .ورجال الأولى هم النساطرة نسبة الى العالم الدينى نسطوريوس ، كما أن رجال الثانية هم اليعاقبة نسبة الى زعيمهم الدينى يعقوب بارادوس . ونحن لو استعرضنا هذه المسائل ، التى كانت مثار الجدل والخلاف وموضوع الدرس والتحليل، وحاولنا تعليل وجودها بين رجال الدين من الآراميين ، وأردنا إرجاعها إلى مصادرها الأولى لرأيناها فى الواقع صدى للفلسفة اليونانية التى وضع اسسها أرسطو ثم جاء من بعده أفلاطون وتلاميذه ، وترديدا لتعاليم الفلسفة الأفلوطينية الحديثة التى تركزت تعاليمها فى الشرق وعلى الخصوص فى جامعة الأسكندرية ، ومن هنا نستطيع أن نقول أن الآراميين هم الذين فلسفوا الديانة المسيحية ، ومن هنا أيضا ندرك فضل الآراميين على الدراسات

الدينيه التى قامت حول دعوة المسيح ، وفضل الفلسفة اليونانيـة على هؤلاه الآراميين أو السريان كما سموا بذلك فيما بعد ، ومن هنا أخـيرا نصل إلى جانب مما نقصد اليه فى هذا البحث وهو أثر السريان فى وادى الرافدين . ومن الحق أن نقرر أن أهم أثر من آثار الثقافة السريانية فى بيئة العراق هى تلك الفلسفة الدينية وهذه الدراسات الواسعة العميقة التى قامت حـول دعوة المسيح وتعاليمه ؛ ذلك لأن شخصيتهم فى هذا الميدان العلمى ، وفيما كان لهم فيه من انتاج ، واضحة لاخفاء فيها ، فهم لم ينقلوا كما كان ذلك ديدنهم فى بعض النواحى الثقافية ، ولم يترجموا كما كان ذلك صنيعهم الذى اشتهروا به ، ولكنهم استغلوا مواهبهم الخاصة واستخدموا معارفهم الأجنبيـة لكى ينتجوا فى بيئة العراق آثارا أصيلة لايشك فى أنها لهم ، ويفتحوا فى محيط الدين المسيحى آفاقا لم تكن معروفة من قبلهم . ولقد كان من نتيجة ذلك كله أن وصل الينا كثير من الآثار العلمية ، منها ترجمة العهد القديم والجديد من اليونانية الى السريانية وقد تم ذلك فى خلال القرن الثانى ، والثالث ، والرابع بعد الميلاد ، ومنها مؤلفات دينية أخرى متنوعة : بعضها خاص بتفسير النصوص المقدسة والبعض الآخر يشتمل على تراجم لطائفة من القسس أو مناقشات قانونية لفريق من الذساطرة واليعاقبة . ومنها كتاب ـ الدياطسرون ـ الذى عرفه العرب تحت اسم (الرباعى) وقد ألفه العالم الدينى ـ طاطيان ـ جمع فيه سيرة المسيح وأعماله من الأناجيل المختلفة ؛ وبالرغم مما أثاره هذا الكتاب من جدل بين العلماء من ناحية مصدره ، ونسبته فقد ظل مرجعا من أهم المراجع الدينية عند المسيحيين قرونا عديدة .

وهناك عدد كبير أيضا من المؤلفات التشريعية قامت على أستنبـاط الأحكام ، وتشريع القوانين لتنظيم الحياة الخاصة عند الأفراد ثم حيـاة

الأسرة وأخيرا حياة المجتمع الأنسانى بشكلة الواسع ، ولقد اعتمدوا فى ذلك أولا على نصوص التوراة والأنجيل ، وذلك مثل ماحدث تماما عند المسلمين من تأليف كتب الفقه حينما أتسعت فتوحهم ودخل تحت سلطانهم شعوب مختلفة وأمم متباينه وجدت تبعا لذلك فى المجتمع مشاكل سياسية واقتصادية وإدارية لم يكن لهم بها عهد من قبل .

وهناك مجموعة كبيرة أيضا من كتب التاريخ ، منها ماهو خاص بتاريخ الكنيسة السريانية ، ومنها ماهو خاص بتاريخ رؤساء هذه الكنيسة ، ومنها ماهو خاص بالتاريخ العام الذى يتناول تاريخ البلاد السريانية فى وادى الرافدين كالرها ، وحَذَيب ، وتاريخ الدولة الفارسية والدوله الرومانية وما كان بينهما من تنافس وحروب وإذا ماتجاوزناهذا الميدان الدينى والتاريخى وانتقلنا الى ميدان الترجمة فأننا نجد لهم أيضا فى هذا الميدان نشاطا عظيما وانتاجا خصبا ، نجد لهم ترجمة كتاب المنطق لأرسطو ، وقد ترجموه فى أواسط القرن الخامس الميلادى ، وكذلك ترجم فى نفس القرن الخامس اللاهوت اليونانى ، ثم ترجمت كتابات سويرس الأنطاكى ، وكتابات كيرولس الأسكندرى ، كتابات تيموتاوس أيلوروس .

ولم يقتصر أمر النقل من اليونانية إلى السريانية على كتب اللاهوت والرهبنة بل تعداها إلى نقل العلوم الدينوية والآثار الأدبية ، فهم إلى جانب ترجمتهم لمنطق أرسطو قد ترجموا كذلك مجموعة من الآثار الخاصة ببيان اثر الدراسات الميتافيزيقية فى الأفلاطونية الحديثة ، وكذلك ترجموا مجموعة أخرى من الدراسات الطبية والكيمائية إلى غير ذلك من الكتب التى تفيد فى الحياة العمليه . ومن أشهر هؤلاء المترجمين بولس أسقف الرقة ، وموسى الأجيلى ويوحنا فيلبونس ، الذى عرف عند العرب باسم يحيى النحوى الاسكولائى ،

والذى ترك ضمن ماترك كتابا يعارض فيه أرسطو وشرحا لأيساغوجى ، ومن هؤلاء المترجمين أيضا أحد الأطباء المشهورين من السريان ، اسمه « سرجيس الراعى عينى » الذى لقب بشيخ الأطباء ؛ إذ أنه بعد دراساته الفلسفية الواسعة اتجه إلى الحكمة فدرس الطب اليونانى وقرأ ما كان معروفا عنه حتى أتم دراسة هذا العلم ، وهانحن أولاء لانزال نجد بعض النسخ الخطية باللغة السريانية لمنطق أرسطو محفوظة فى متحف لندن وكذلك نجد مقولات أرسطو لفرفوريوس ، وغير ذلك من الاثار العلمية التى عثر عليها فى أديرة الشرق كدير وادى النطرون ، ودير سيناء والتى أصبحت الآن تغذى مكتبات الغرب ومتاحف الغربيين . ولقد كانت وسائل السريان فى الحصول على هذه المعارف اليونانية لاتكاد تختلف عن وسائلنا فى العصر الحديث ، إذ أنهم كانوا يذهبون بأنفسهم الى بلاد اليونان يتعلمون لغتهم ويتصلون بعلمائهم وأدبائهم ويدرسون علمهم وفلسفتهم ثم يعودون الى بلادهم مزودين بكل ذلك ليلقنوه أبناءهم وتلاميذهم طورا فى الكنائس وطورا فى المدارس ، واذا ما أتموا دراساتهم وتكونت لديهم مؤهلات الانتاج أخذوا يترجمون ويشرحون ويعلقون ويؤلفون .

وهكذا استطاع السريان أن يخلقوا فى وادى دجلة والفرات حركة علمية ثقافية لاتكاد تقل عن الحركات العلمية الأخرى فى أثينا أو فى روما أو فى الأسكندرية . ولا أدل على ذلك من أنه قد تخصصت بعض المدارس فى وادى الدجلة والفرات لدرس اللغة اليونانية نفسها ثم درس آثارها الفلسفية والنقل منها الى اللغة السريانية ، مثل مدرسة قنسرين على الفرات . ولم يبالغ بعض الكتاب حينما قالوا أن مجهود السريان فى نشر الثقافة اليونانية فى بلاد الفرس وفى وادى الرافدين كان أجدى على تلك الثقافة اليونانية من مجهود

اليونانيين أنفسهم الذين أستقروا فى تلك البيئات بعد فتح الأسكندر الأكبر للشرق .

وقد بقى السريان فى هذه النهضة العلمية والنشاط الفكرى حتى جاء العرب وفتحوا العراق فوجدوهم على نفس الحالة التى وصفنا من درس وتحصيل وترجمة وأنتاج . لم يعامل الفاتحون من العرب هؤلاء السريان معاملة الغالب للمغلوب ، ولم يحاولوا محو تلك الآثار العلمية ولا إيقاف ذلك التيار الفكرى الذى اختط سبيله منذ زمن بعيد وثبت مجراه فى ثنايا تلك البلاد وعم فيضه حتى بدت منه الثمار .

ولقد أظهر الأسلام تسامحا كريما مع هؤلاء السريان فلم يحل بينهم وبين دراستهم الواسعة العميقة : ولذا فقد استمروا يحافظون على تراثهم القديم الذى كونوه نتيجة مجهود أجيال عديدة ، ويعملون على تنميته حتى تولت الدوله العباسية فوجدت فيهم أنشط عنصر وأهم مسند وأعظم مورد لتكوين ثقافة اسلامية واسعة لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، ولم يكن ليتاح لهم أن يؤسسوا هذه الحضارة الواسعة فى مثل تلك الفترة القصيرة وبمثل هذه السرعة النادرة لو لم يجدوا من بيئة العراق ومن سكانها ماوجدوه من مدد على واسع .

فلقد كان من هؤلاء السريان العلماء والأطباء والفلاسفة والمؤرخون والمترجمون وأصحاب المذاهب الدينية والمشرعون وكثير غير هؤلاء وأولئك وكانت لهم معرفة تامة بأهم اللغات القديمة يونانية ولاتينية وفارسية ودراية واسعة بأكثر العلوم المعروفة أذ ذاك رياضيات ، طبيعيات ، لاهوت ، فلسفة طب ، كيميا ، أدب ، وحتى مايختص بالعلوم اللغوية ، فقد كانت لهم محاولات تذكر فى تنظيم اللغة وتهذيبها ومن أجل ذلك لم يجد المسلمون بدا

من الاستعانة بهم ، ولم يألوا هم جهدا فى الأفادة بعلومهم ، ومعارفهم ، فقد وضعوا أنفسهم فى خدمة الحضارة الأسلامية كما وضعوا أنفسهم من قبل فى خدمة الدين المسيحى ، ولولاهم لما عرفت الفلسفة اليونانية وعلومها مبكرة عند العرب ، ولما ظهرت ظلالها واضحة فى الفكر العربى أو فى العقل الإسلامى وفيما صدر عنه من إنتاج علمى .

ولولا أن بيان ذلك يخرج بنا عن دائرة الموضوع الذى نحن بصدده الآن لذكرنا كثيرا من آثارهم فى النهضة الأسلامية أيام الرشيد والمأمون بل وأيام الخلفاء الأول من عهد الدولة الأموية حينما خالط العرب السريان فى بيئة العراق ، وأخذوا يقدرون مالديهم من معارف ويتطلعون لما عندهم من علوم ، ولعددنا كثيرا من فلاسفتهم ومترجميهم ، وعلمائهم ، وأطبائهم الذين خدموا هذه النهضة وكانت لهم فيها آثار كبيرة . وحسبنا الآن فقط أن نحيل القارىء الى ماكتبه ابن النديم وأبن أبى أصيبعة عن حركة الترجمة والمترجمين فى الدولة الاسلامية ليرى بنفسه كم كان عدد السريان الذين قاموا بالترجمة من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية وكم كان عدد الكتب أو الرسائل التى نقلوها أو الفوها ، وكم كان أثر ذلك كله فى العقلية العربية أو فى الحضارة الاسلامية وخصوصا عند طائفه العلماء ورجال الكلام .

ولم يكن تسامح المسلمين مع هؤلاء السريان من نوع تسامح الفرس أو اليونان ، إذ أن تسامح هؤلاد كان وليد أغراض سياسية ، أو فلسفةإدارية تفرضها طبيعة الحكم أو تمليها مصالح الدولة أما تسامح المسلمين معهم فكان صادرا عن مبدىء حكيم أقره الأسلام فى معاملة أهل الكتاب : لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين . وعلى هذا المبدأ ترك السريان فى كنائسهم ومعاهدهم يقومون بشعائر دينهم وينهضون بنشر معارفهم لابين أبنائهم فقط

بل بين سكان البيئة العراقية بأجمعها .

ولكى ندرك فى وضوح مبلغ النشاط العلمى عند السريان ، ومدى أثر هذا النشاط فى كل وادى دجلةوالفرات يكفى أن نعرف أنه كان للسريان فى تلك البيئة العراقية نحو من خمسين مدرسة تدرس فيها العلوم على اختلافها ، ولقد وصل عدد التلاميذ فى بعضها نحو من الألف ، وأهم هذه المدارس هى مدرسة الرها التى بدأت مبكرة بالعناية بدراسة الفلسفة اليونانية وخصوصا فلسفة أرسطو ، وكان ذلك فى القرن الخامس الميلادى ، ومنها مدرسة قنسرين على الفرات التى تقدمت الأشارة اليها ، وقد اشتهرت هذه المدرسة كذلك بدراسة الفلسفة اليونانية وخصوصا الفلسفة الرياضية واللاهوت ، ولعل ميزة هذه المدرسة أن الدراسة فيها كانت باللغة اليونانية ، ومنها مدرسة نصيبين ، وقد اشتهرت بدراسة عدد كبير من العلوم لافرق فى ذلك بين العلوم العقلية والنقلية . وعلينا بعد ذلك أن نتصور مدى معرفة البيئة العراقية بلغة السريان ومعارفهم ، وإلى أى حد كان تأثيرهم على سكان هذه البيئة وبالتالى على الفاتحين من العرب ومن جاء بعدهم .

وهنا نجد التفسير الواضح لاتجاه المعارف الاسلامية الأولى هذه الوجهة التى نلمسها فى علومهم وآدابهم وتشريعاتهم ، ونلمس أحدى النتائج الهامة التى أشرنا اليها فى أول هذا الكتاب ؛ هنا نجد التفسير الواضح لنشأة العلوم اللغوية عند العرب فى بيئة العراق دون سواها من البيئات الاسلامية الأخرى ، هنا نجد التفسير الواضح لنشأة المذاهب الاسلامية المتعددة والفرق الاسلامية المختلفة ، هنا نجد التفسير الواضح لنشأة العلوم القرآنية من تاريخ وتفسير وتشريع ، هنا نجد التفسير الواضح لنشأة بعض التيارات الادبية التى وجهت الأدب العربى وجهة لم يكن يعرفها أدباء العرب من قبل ، هنا

نجد التفسير الواضح لتأثر العقلية الأسلامية بالمنطق والفلسفة وظهور ذلك الأثر ظهورا بينا فى أغلب إنتاج علماء الأسلام حتى فيما ينبغى ألا تكون له صلة بالمنطق ولا بالفلسفة كاللغة والنحو ، إذ أن ذلك كله لم يكن إلا ترديدا أو محاكاة لما كان يصنعه السريان فى معاهدهم ومدارسهم أو لما كانوا يقومون به من بحث وجدل ومناظرة فى كنائسهم ومعابدهم . ولنلق نظرة بسيطة على ماكان يدور من جدل ومناظرة فى حلقات المعتزلة أيام صالح ابن عبد القدوس وبشار بن برد وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وغيرهم من رجال الاعتزال ، ثم لنرجع الى الوراء قليلا يوم اختلف الآراميون فى طبيعة المسيح وانقسمت الكنيسة المسيحية الى فريقين كبيرين واستتبع جدلهم فى هذه الناحية جدلا آخر فى كثير من المسائل التفصيليه فى الدين ؛ ولنقارن أخيرا بين جدل رجال الدين المسيحى من السريان وجدل رجال الكلام فى الدين الأسلامى ، أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، من ناحية أصل هذا الجدل وطبيعته وموضوعاته ونتائجه ؛ فماذا عسانا نجده من تلك النظرة ومن هذه المقارنة ؟ أليس منشأ هذا الجدل عند كل من الفريقين هو استنفاد الأمكانيات العقلية فى الدين ، والميل الى فلسفة بعض تلك الامكانيات من ناحية والعمل على خلق امكانيات جديدة للعقل من ناحية أخرى ثم ممارسة وتطبيق المبادىء الفلسفية التى عرفها رجال هذين الفريقين؟ وأليس موضوع الجدل عند كل من الفريقين هو أساس العقيدة والدين وما يستتبع ذلك من صلة بين الخالق والمخلوق وتحليل وفهم لما يصدر عنهما من أفعال كمسألة القضاء والقدر . والجبر الأختيار ، والخير والشر ، والثواب والعقاب ؟ وأخيرا أليس من نتائج هذا الجدل بين كل من الفريقين هو مانراه من انقسام فى الرأى واختلاف فى المذاهب وتعدد فى الفرق وخصوبة

فى الأنتاج ؟ [1]

لم يكن من السهل على العلماء والمؤلفين فى أيام النهضة الاسلامية الأولى أن يقرروا لنا تأثرهم ببيئة العراق وبمن فيها من علماء وما فيها من معارف ، بل ربما لم يكن من السهل على علماء الإسلام ومؤلفيه أن يحسوا هم أنفسهم بذلك الأثر ولكن علينا نحن الآن أن نتبينه فى عقلياتهم ونستخلصه من انتاجهم لكى يسهل أمامنا فهم ذلك الأنتاج وإدراك الأسباب البعيدة لنشأة الحضارة الأسلامية التى لا نزال نحتضنها ونتبناها كوليد نجهل أبويه ، وذلك على ضوء دراساتنا لتاريخ حضارات العراق ، ومعرفتنا لما كانت تزخر به هذه البيئة العراقية من علم وأدب وفن ودين ، وإدراكنا لمبلغ الصلة ومدى الامتزاج العقلى بين سكان هذه البيئة ورجال العرب الذين أتوها فاتحين أو نازحين لطلب الرزق أو العلم أو لخدمة السلطان ، ولقد كان هذا فى الواقع هو هدفنا الأول من وضع هذا البحث ، وأظننا قد بدأنا نلمس أحدى نتائجه من دراستنا لآثار الثقافة السريانية ومداها فى بيئة العراق ولمجهود الآراميين العلمى فى هذه البيئة ، ومع ذلك فنحن نقرر

---

[1] ارجع الى مؤلفات واصل بن عطاء ص ١ من تكملة الفهرست لابن النديم التى نقلها العلامة أحمد تيمور باشا ونشرت فى آخر كتاب الفرست طبعة سنة ١٣٤٨ هـ بالمطبعة الرحمانيه بمصر ، ثم ارجع الى مؤلفات اليشع بن قوزبايا من رجال الدين السريان الذين اعتنقوا مذهب نسطوريوس ص ١٥٣ من كتاب : تاريخ الأدب السريانى للدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدى البكرى ، أو الى مؤلفات - إفريم السريانى - ص ٧٠ - ٨٣ من نفس هذا المرجع ، المنثور منها والمنظوم ، ولاحظ على الخصوص الروح العامه والاتجاهات المسيطرة على مؤلفات واصل بن عطاء ومؤلفات غيره من السريان .

هنا أن كلامنا عن هؤلاء الآراميين وعن الثقافة السريانية لا يزال مجملا يكتفى بالاشارة ولا يدخل كثيرا فى التفصيل ، ولقد اضطررنا إليه اضطرارا لما تستلزمه طبيعة البحث ولما نرغب فيه من أن يتقدم أحد المختصين فيكتب رسالة عن الثقافة السريانية أو عن أثر السريان فى الحضارة الأسلامية .

وبعد فإن هذا العرض السريع لتاريخ الآراميين ، ونشاطهم العلمى فى أرض النهرين وأثرهم العظيم فى الحضارة الاسلامية يهدينا فى يسر وسهولة إلى استخلاص تأثيرهم فى العقلية الأسلامية بوجه عام ، وإلى استخلاص هذه النتائج الآتية :

أولا - أن شهرتهم بين الشعوب القديمة ، واعتراف الدول التى تبادلت السلطان فى بيئة العراق بهم وبفضلهم ثم بالتجاء هذه الدول اليهم لاستخدام مواهبهم واستغلال معارفهم قد جاءت عن طريق المجهود العقلى والانتاج الفكرى ، والمقدرة التى قلما تتوفر لغيرهم من معرفة باللغات كاليونانية والفارسية واللاتينية والعبرية ، ومن دراسات لآثار هذه اللغات العلمية والأدبية والفلسفية والدينية ، وليست عن طريق القوة الحربية أو السلطان السياسى أو حسن التدبير الادارى فأنهم بلا شك كانوا من أبعد الناس عن ذلك الطموح السياسى ، وعن تلك العظمة التى تقوم على إحراز النصر من وراء القوة الحربية ، وفى الوقت الذى تكونت لهم فيه دويلات شبه مستقلة فى وادى دجلة والفرات كمملكة حذيب ، ومنطقة الرها ، نقول إنهم فى هذا الوقت لم يحاولوا ضم هذه الدويلات بعضها إلى بعض لكى يخلقوا منها دولة أرامية أو سريانية عظيمة موحدة لها نظامها الخاص وأهدافها السياسية كما حدث بين دويلات الأغريق حينما انضوت تحت لواء

أتينا ، أو دويلات ايطاليا حينما تجمعت تحت سلطان روما ؛ بل إنهم لم يرفضوا أن يتولى الملك عليهم أجانب من العرب جاؤا إليهم واستقروا فيما بينهم كما لاحظنا ذلك منذ قليل عندما كنا نتحدث عن مملكة حذيب وشهرتهم عن طريق الفكر والعلم والانتاج كانت بلا ريب أنفع للإنسانية وأبقى على الزمن من تلك الشهرة المؤقته الزائفة .

ثانيا - أنهم يعتبرون إلى حد ما الحفظة على بعض التراث القديم من الثقافة البابلية - الأشورية ، ومجهودهم فى بيئة العراق يمثل نوعا ما امتداداً لحضارة البابليين والأشوريين فى هذه البيئة . فعن طريق الكلدانيين منهم قديما عرفت بعض معارف الطب والفلك والدين والرياضة ، وعن طريق المقيمين منهم فى شمال وادى النهرين عرفت بعض معارف الآشوريين من تاريخ ونبات وعمارة .

ثالثاً - أنهم كانوا حلقة اتصال بين الغرب والشرق ، وهم فى هذا الميدان لم يجاروا بين الشعوب القديمة ولعل أول صلتهم بالغرب كانت عن طريق اليونانيين المقيمين فى آسيا الصغرى . ولم يقف أمرهم عند هذا الحد بل استمروا يكثرون من هذه الصلات قبل ميلاد المسيح وبعده ، فوصل بعضهم إلى بلاد الاغريق ؛ وذهب غير قليل منهم إلى روما ثم عادوا جميعاً إلى بلادهم مزودين بكثير من العلم والحكمة والفلسفة ؛ ومن هنا كان أكثر ما أثر عنهم من انتاج على يمثل ذلك أوضح تمثيل ، فأننا نتجوز كثيراً حين نطلق على تراثهم الدينى ، والعلمى ، والأدبى اسم الحضارة الآرامية أو السريانية ، إذ أننا لانجد فى ذلك التراث الطابع الخاص الذى يميز حضارة عن أخرى ، ولا الفكرة القومية الأصيلة التى تجمع بين شتات هذا الانتاج ؛ ولعل ذلك يرجع أولا إلى عدم تمسكهم بالوحدة السياسية ،

واقتناعهم بالحياة الهادئة تحت ظل حكم الآخرين ، فانصرافهم للحياة العقلية والانتاج الفكرى ظل تقريباً متواصلا ، متشابها تحت سلطان العرب . وما كانوا يجدون ضيقاً ولا حرجا فى الخضوع لسياسة هذه الدول والعيش فى كنف ملوكها ما داموا يتمتعون بالهدوء والاستقرار ويملكون الفرص التى تتيح لهم ممارسة نشاطهم العقلى والعلمى وإقامة شعائر دينهم .

وإذا كانت لهم أصالة فى شىء مما انتجوه فأنما ذلك فى الناحية الدينية ، إذ أن دراستهم للنصوص المقدسة ، وخدمتهم لها من حيث التفسير واستنباط الأحكام لا تكاد تقل عن دراسة اليهود لنصوص التوراة ولا الفرس لنصوص الأفستا . وهم فى ذلك قريبو الشبه باليهود بعد أن فقدوا وطنهم القومى وتشتتوا فى مختلف البلاد ، ففقدت ثقافتهم طابعها العبرى الخاص وأصبح انتاج علمائهم وأدبائهم يتشكل فى طابع البيئة التى ينشأ فيها فكان ذلك الإنتاج يونانياً فى بيئة اليونانيين ولاتينياً فى بيئة الروم ؛ وهكذا إذا ألقينا نظرة عليهم فى العصور الحديثة فأننا نجد نفس الصورة التى عرفت عنهم قديماً فهم فى وسط لمانيا المانيون لغة وعلماً وإنتاجا وفى وسط فرنسا قرنسيون لغة وعلماً وإنتاجا وفى وسط روسيا روس لغة وعلماً وإنتاجا وفى وسط أمريكا أمريكيون لغة وعلماً وإنتاجا وفى وسط العرب عرب لغة وعلماً وإنتاجا ؛ وكذلك كان الشأن بالنسبة للآراميين .

اللون الثانى .

اللون الثانى من ألوان الحضارات الأجنبية التى أثرت فى البيئة العراقية هو ما جاء عن طريق اليونان : سواء اكان ذلك عن اليونانيين أنفسهم أم عن طريق الشرقيين الذين اتصلوا بهم وتعلموا لغتهم ودرسوا معالم حضارتهم

ثم أتوا إلى وادى الرافدين ينشرون ما عرفوه ويضيفون إلى مظاهر الحضارة القديمة مظهرا آخر له طابعه الخاص وأساليبه الجديدة .

وقد يبدو غريبا لأول وهلة أن نتكلم عن أثر الحضاة اليونانية فى أرض النهرين ، وعن مدى انتشار هذا الأثر بين سكان هذه البيئة . ومبلغ ما كان فيه من صلاحية ، ومبلغ ما أداه من خدمة إلى العقلية الشرقية وثروة إلى الانتاج العلمى والأدبى ، نقول قد يبدو غريبا لأول وهلة أن نتكلم عن ذلك ونحن الذين منذ صفحات قليلة ، عقدنا فصلا خاصا للحديث عن نشأة الحضارة اليونانية واستمداد كثير من أصولها الأولى من الحضارات الشرقية ، وخصوصا الحضارة البابلية ـ الأشورية ، وقلنا أن عددا غير قليل من أساتذة هذه الحضارة قد نشأ فى الشرق وتتلمذ على أساتذة الشرق ، ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تتلاشى أمام القارىء حين ينتهى من دراسة المراحل الأولى لنشأة الحضارة اليونانية ، ويصل بها إلى العهد الذى أصبحت فيه متعددة المظاهر ، متماسكة الأطراف ، ولها طابعها الخاص ، ونعنى بذلك العهد القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، حين تركزت الحركة العلمية والنشاط الفكرى فى أثينا على أثر نضوج الفلسفة ونهضة الحركة السوفسطائيه التى قامت على نقد المبادىء الفلسفية القديمة والعمل على توجيه العقلية اليونانية توجيها جديدا .

هؤلاء اليونانيون الجوالون الذين استقوا معارفهم الأولى من آسياطورا ومن مصر طورا آخر قد استطاعوا أن يتفهموا هذه المعارف الأولية ؛ ثم يهضموها . ويكونوا من شتاتها خلقا جديدا ربما يفوق فى سعته وروائه تلك المصادر التى استمد منها عناصر تكوينه الأولى ، ومن هنا فقط كانت عظمة الأغريق ومقدرتهم على الخلق والابتكار ، ومن هنا فقط استطاع هؤلاء الأغريق أن

يلفتوا نظر العالم إلى حضارتهم والى ما أتجوه فى هذا الميدان من علم وأدب وفلسفة وفن . ولسنا هنا بصدد تاريخ الحضارة الأغريقية أو وصف معالمها ولكننا بصدد تاريخ انتقالها إلى وادى دجلة والفرات ، والحدث الهام الذى نستطيع أن نؤرخ به تأثير الحضارة اليونانية فى وادى دجلة والفرات أنما هو غزو الأسكندر الأكبر للشرق فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد ، إذ أننا قبل هذا الحادث يصعب علينا أن نعرف على وجه الدقة متى بدأت صلة وادى الرافدين بالأغريق أو بالمعارف الأغريقية ، وكيف كانت طبيعة تلك الصلات من الناحية الثقافية ، أكانت من أجل منفعة الأغريق أنفسهم ؟ أم من أجل منفعة سكان بيئة العراق ؟ وكذلك يصعب علينا أن ندرك عن يقين مدى أثر الحضارة اليونانية فى بيئة العراق قبل هذا الحادث التاريخى الهام . على أنه مما ينبغى أن نعترف به ونقرره سلفا هو أن الأغريق أو اليونانيين قد اتصلوا بسكان وادى الرافدين قبل مجىء الأسكندر بجيوشه الى الشرق فنحن نعرف أن اليونانيين كانوا يستوطنون آسيا الصغرى وهى متاخمة تقريبا لشمال بيئة العراق ، ونعرف كذلك أن هذه البيئة العراقية كانت تحت حكم الفرس منذ عهد قورش وأن سلطان الفرس قد امتد غربا حتى شمل البلاد المستوطنة باليونانيين بل إن الفرس قد تجاوزوا بنفوذهم الادارى كل آسيا فوصلوا إلى الجزر اليونانية فى بحر إيجه وبعد ذلك انتقلوا بجيوشهم إلى شبه الجزيرة الأغريقية : ونعرف أكثر من ذلك أيضا أن هؤلاء الفرس أنفسهم قد استخدموا فى جيوشهم وفى حروبهم كثيرا من اليونانيين كموظفين أو كجنود مرتزقه ، وقد تقدمت الأشارة إلى ذلك حينما كنا نتكلم عن أثر الشرق فى الحضارة الأغريقيه [1] . ونضيف إلى ذلك هنا ما يذكره المؤرخون من أن كورش

[1] انظر ص ٦٨ إلى ١٠٠ من هذا الكتاب : العراق وما توالى عليه من حضارات

الشاب الذى كان واليا على جزء من بلاد الأناضول فى عهد حكم أخيه من أبيه - ارتحششتا الثانى الذى حكم من سنة ٤٠٤ إلى سنة ٣٥٩ ق م قد استعان بجيش كامل من اليونان بلغ عدده ١٠٫٠٠٠ رجل مدججين بالسلاح معظمهم اسبارطيون لكى يحارب أخاه ويأخذ منه الحكم وقد سار هذا الجيش بقواده من الأغريق مع كورش من مدينة ساردیس حتى وصل الى شمال سوريا ، ومن هناك يمم شرقا إلى وادى الرافدين حتى وصل إلى مدينة بابل ، ووصف هذه الحملة لا يخلو من الطرافة ولكن ليس هنا مكانه [1] وكذلك يذكر المورخون أنه قد وجد فى جيش دارا الذى حارب به الاسكندر نفسه جنود مرتزقة من اليونانيين [2] .

نحن نعرف كل ذلك ونعرف أن هذه الصلات السياسية أو المادية أو الحربية لا بد وأن يكون لها أثرها العلمي أو الثقافى ، ولكن لدينا من الأدلة ما يرجح أن اليونانيين قد استفادوا علميا من هذه الصلات أكثر مما استفاد الشرق منهم . من هذه الأدلة :

أولا : أن الشرق كان لا يزال أثناء تلك العصور فى عظمته السياسية ومجده العلمى فلم تكن أنظار أهله تتطلع بعد إلى حضارة الغرب أو إلى معارف الأغريق .

ثانيا : أن الذى كان يشاهد فى أغلب الأحيان ، قبل عهد الأسكندر الأكبر ، هو مجيء اليونانيين إلى الشرق سواء أكان ذلك للاستطلاع والمعرفه ، أم للدرس والتحصيل ، أم لكسب المال والعمل ، وقلما نجد

---

(١) أرجع إلى كتاب - الرافدان - تأليف سيتون لويد وتعريب طه باقر وبشير فرنسيس ص ١١٤ - ١٢٢

(٢) نفس المرجع ص ١٣٠

أفرادا من الشرقيين يلجئون إلى مثل ذلك فى بلاد الاغريق بل على العكس من ذلك كان تيار الشرق السياسى والعلمى بل والمادى يغمر بلاد الأغريق من وقت إلى آخر ، وقد رأينا ذلك مثلا فى حروب الفرس معهم .

ثالثا : أن سكان شبه الجزيرة اليونانية أنفسهم لم يكونوا قبل عهد الاسكندر المقدونى أو عهد أبيه فيليب . قد استقروا سياسيا وارتضوا جميعا نظاما من الحكم موحدا ، فكانت بلادهم من الناحية السياسية ميدانا للخلافات والنزاع والتنافس ؛ مرة بين الطبقات الحاكمة فى أثينا نفسها أو بين هذه الطبقات الحاكمة وبين المحكومين من الأتينيين ، ومرة أخرى بين الأتينين والمقدونيين ، وكذلك من الناحية العلمية يمكن أن يقال أيضا أنهم لم يكونوا مستقرين إذ أن الحركة السوفسطائية عندهم قد أحدثت من الاختلاف فى الرأى والاضطراب فى الفكر والزعزعة فى العقيدة مالا يقل أثرا عما أحدثه عدم الاستقرار فى السياسة ؛ ومما هو معروف ومقرر أن التقدم فى العلم والفن مدين فى أغلب الأحيان للاستقرار أو التقدم فى الحكم وأن الحضارة تسير غالبا فى ركب السياسة ؛ السياسة الأغريقية لم تتعد بلاد الأغريق ، وتفرض فرضا حقيقيا على بلاد الشرق إلا فى أيام الأسكندر الأكبر ومن جاء بعده . لهذه الأسباب قد تركنا أو تناسينا أثر الحضارة الأغريقية فى الشرق ، وعلى الخصوص فى وادى دجله والفرات ، قبل مجىء الأسكندر غازيا وفاتحا وحاكما فى هذه البلاد واعتبرنا مجيئه نقطة بدء حقيقيه لأثر الحضارة اليونانية فى بيئة العراق .

فى عام ٣٣٤ قبل الميلاد بدأ الأسكندر حملته ضد الشرق لينتقم من الفرس ، كما يقول المؤرخون ، الذين هاجموا شبه جزيرة اليونان بجيوشهم وأوقعوا بهم من الخسائر فى الأموال والأرواح ما جرح شعورهم وأهان

عزتهم وأحفظ عليهم كل سكان شبه الجزيرة .

من شمال بلاد اليونان وصل الأسكندر الى آسيا الصغرى قائدا جنده ، ومنتصرا على طول الخط ضد دارا الثالث ملك الفرس وضد الحكام الموالين له فى آسيا الصغرى ثم فى سوريا ؛ وفلسطين ، ومصر . وأهم معركة خاضها الأسكندر ضد الفرس فى طريقه إلى مصر كانت معركة - إسوس - مدينة قديمة فى شمال مدينة الاسكندرونه الحالية ، وأصعب موقف عاناه الأسكندر هو حصاره لمدينة صور الفينيقيه .

وفى عام ٣٣١ يصل الأسكندر الى أرض النهرين متتبعا فلول الجيوش الفارسية المنهزمة ؛ فيخوض معهم معركة - كوكميله - ، ثم يعود إلى مدينة بابل حيث تستسلم دون قتال ، ويمضى نحو الشرق حيث بلاد الفرس أنفسهم ويتجه الى عاصمتهم - برسيبوليس - فيخوض معركة مع جيش فارسى قد تجمع لحماية العاصمة ولكن دون جدوى .

وبعد راحة قصيرة يقضيها فى أعياد مع جنده وقواده يواصل السير إلى مدينة - اكبتانا - أحدى العواصم الفارسية فى الشمال أملا فى أن يدرك خصمه الأول دارا ، ولكن هذا الآخير يقتل بواسطة أتباعه الذين يئسوا من توالى الهزائم وتعبوا من مواصلة الفرار ، ثم تقدم جثته كهديه إلى الأسكندر عله يقنع بها ويترك متابعة الفلول المنهزمه المشتته ، صنيع يشبه صنيع الأيطاليين فى الحرب الأخيرة بزعيمهم موسولينى ؛ وكان الأغريق ينتظرون من الأسكندر أيضا أن يرضى بتلك الهديه فيهدأ أو يكتفى بما صنع ويترك مواصلة السير ومتابعة الحروب ، ولكن الأسكندر لم يقنع بهذا بل استمر فى سيره فى أواسط آسيا وشمال الهند حتى اتعب جنده وبدت منهم روح التذمر والعصيان وكان ذلك فى صيف عام ٣٢٦ قبل الميلاد

فاضطر الى أن يعود بهم إلى مدينة بابل ، ويبدأ فى وضع مشروعاته العمرانية الواسعة . وأهم هذه المشروعات بالنسبة لبيئة العراق ، التى نحن بصدد الحديث عنها ، هو تفكيره فى أن يجعل من مدينة بابل ميناء هاما ومركزا عظيما للتجاره ليس بينها وبين بلاد الهند فقط ولكن بينها وبين مصر أيضا وذلك بواسطة قنوات من البحر الأحمر والنيل وحينما رأى أن تنفيذ ذلك يستلزم السيادة على شبه الجزيرة العربية فقد عاودته الرغبة فى الانتصارات الحربية من جديد ، شأن كل القواد الذين بنوا مجدهم على الحرب والانتصار ، ولم يتمهل فى ذلك بل أعد حملة واسعة ليخضع بها ذلك القطر الصحراوى الفسيح الذى كان بمثابة حاجز منيع بين ممتلكات الأسكندر فى آسيا وممتلكاته فى أفريقيا ، وفى مساء بدء الحملة مرض الأسكندر بالحمى التى لم تمهله أكثر من ستة أيام .

وليس يعنينا هنا تسجيل هذه الحوادث ولا تفصيل ما جرى فيها ، وحسب القارىء لهذا البحث أن يعرف فقط بأن كل معركة خاضها الأسكندر كانت عباره عن الياذه ، وكل مسافه قطعها فى سيره الطويل مع جنده كانت عبارة عن أوديسا ولكن الذى يعنينا بوجه خاص هو أن نعرف أن غزو الأسكندر للشرق لم يكن مجرد فتح حربى أو انتصار عسكرى وانما كان كذلك فتحا علميا ، وانتصارا للحضارة الإغريقية على الحضارات الشرقية فى أهم مظاهرها : علم وفن وأدب ، ولقد ظهر هذا بوضوح فى الأسس الأولى التى وضعها الإسكندر لأمبراطوريته الواسعة ، وبدأ فعلا فى تنفيذ ما استطاع تنفيذه فى خلال تلك المدة القصيرة التى عاشها فى الشرق .

لقد ذكر بعض المؤرخين [1] . أن من مطامع الاسكندر الأكبر أن يدمج شعوب الشرق فى الغرب ، فيجعل منهم عالما واحدا تسكنه شعوب متآلفه ، متحدة ، وأن يفتح للحضارة الأغريقية آفاقا جديدة واسعة ، ولم يمت الأسكندر إلا ولديه جيش عدده ثلاثون ألفا من شعوب الشرق المتأغرقين ، وكانت معاملته لهم تقوم على أساس المساواة العنصريه .

وإذا لم يكن لدينا من الوثائق التاريخية ما يؤكد هذا البرنامج الواسع لمطامعه وأسسه ، فأن الظروف التى صاحبت غزو الأسكندر ، والنتائج التى أعقبت هذا الغزو تؤيد بوضوح تلك المطامع التى عرفت عن الفاتح المقدونى الأكبر ، إذ أنه كثيرا ما كان ينصح أصحابه وقواده بالزواج من شرقيات ولقد عمل بهذه النصائح نحو من عشرة آلاف من أتباعه المقدونيين فتزوجوا من زوجات آسيويات . ولم يدخر هؤلاء الحكام من المقدونيين وسعا فى أن يسيروا على النهج الذى خطه الاسكندر من الاندماج فى شعوب الشرق بكل الوسائل حتى كادوا ينسون فى المستقبل وطنهم الأصلى ويقطعون كل صلة به . ولنوضح الآن بعض الشىء هذا المنهج الذى سار عليه الاسكندر

لقد جاء إلى الشرق وفى صحبته بجانب رجال الحرب من قواد وجند كثير من العلماء ، والأدباء ، والأطباء ، والمهندسين ، والفنانين . وكان الجميع يعملون . كل فى الميدان الذى يخصه .

وكان فى كل بلد يفتحه يترك من آثار هذه الطبقة المثقفة المستنيرة آثارا محسوسة ، وكان بين الفينة والفينة من أوقات راحته يقيم مباريات أدبية وفنية

---

[1] أنظر ـ الرافدان ـ تأليف المؤرخ سيتون لويد وتعريب طه باقر وبشير فرنسيس ص ١٣٤

جريا على نظام المباريات الذى كان معررفا إذ ذاك فى أثينا ، وكثيرا ماكان يقضى أوقات فراغه وأمسياته مع بعض سراة القوم ووجوههم مستمعين لشعر الشعراء ، وفكاهات الادباء وقصص المؤرخين ، وآراء الفلاسفة والمفكرين ، وحوار العلماء فى مختلف الموضوعات ، وأظننا فى غير حاجة لبيان الاثر المبكر للعقلية الأغريقية والفكر الأغريقى الذى يتركه فى شعوب الشرق مثل هذا النشاط .

ولم يكن الاسكندر ينتنكف من مخالطة أهل البلاد المفتوحة ، بل على العكس من ذلك كان يشجع هذا الاختلاط ويدعو عمليا إليه ، إذ أن ذلك كان ، كما ذكرنا منذ قليل ، جزءا من برنامج فتوحه للشرق ، فلم تعرف عنه حادثة حاول فيها أن يجرح أو يمس الشعور الدينى فى شعوب الشرق ، وفضلا عن ذلك كان يظهر كثيرا من الأجلال والاحترام لعقائدهم ومقدساتهم ، بل ولأحط أنواع الالهة فى نظر اليونانيين إذ ذاك مثل عجل أبيس عندالمصريين فقد ذهب الاسكندر لزرياته فى ممفيس وقرب له القرابين ، وانتحل لنفسه لقب « ابن آمون » ، والذى صنعه فى ممفيس مع المصريين وآلهتهم صنع مثله فى مدينة بابل مع البابليين والهتهم .

ولعل من آثار هذه المعاملة الحكيمة التى كان الاسكندر يظهرها لشعوب الشرق أنه استطاع ؛ وهو لايزال فى سيره الحربى ، أن يجد من بين هذه الشعوب من يجنده فى جيشه ويعتمد عليه فى حروبه اعتمادا لاتقل عن اعتماده على اليونانيين أنفسهم ، وأن يخلق لنفسه من بين أعداء الفرس فى أمبراطوريتهم الواسعة أصدقاء مخلصين يلقونه لقاء المنقذ لهم من ظلم الفرس وجبروتهم فيرضون بحكمه ويؤيدون سياسته ، مثال ذلك ماحدث فى مصروفى بابل . ومن أبرز الأمثلة على تعاون الشرقيين معه فى الحرب واعتماده هو

عليهم ماحدث فى بلاد الفرس حين رفض فريق من الجنود الأغريقيين الذين سئموا السير وملوا الحروب أن يتبع الاسكندر فى سيره الى الهند فوجد الاسكندر فى الفرس أنفسهم وفى أهل أرض النهرين من يعمل فى خدمته ويخلص له فساربهم مخترقا بلاد الفرس حتى دخل معهم الأراضى الهندية

وأن من يدرس تاريخ الاسكندر الأكبر ، ويتتبع سيره حين غزوه لبلاد الشرق ، ويعرف مبلغ حبه وتعلقه بالحضارة الأغريقية ، لايجد عناء فى أن يدرك أن الاسكندر كان يحاول أن ينشىء فى كل بلد يفتحه أثينا أخرى ، وهو وإن لم يمهله الموت حتى يحقق هذه المطامع ، إلا أن قواده الذين حكموا بلاد الشرق من بعده قد سلكوا نفس السبيل ، ونجحوا فى تلك المحاولات الى حد بعيد ، مما يدل على أنهم كانوا يتبعون سياسة مرسومة ويعملون بفكرة مشتركة ويسعون الى هدف محدد . ولم يكن اذن عن طريق الصدفة أن نجد فى بيئة العراق — القسم الشرقى من آسيا الاغريقية — مدينة سلوقيه لتكون عاصمة العلوم والآداب الأغريقية بجانب كونها العاصمة السياسية وأن نجد فى بيئة سوريا — القسم الغربى من آسيا الأغريقية — مدينة انطاكية لتقوم بنفس المهمة السياسية والعلمية التى تقوم بها سلوقية ، وأن نجد كذلك مدينة الاسكندرية لتؤدى نفس الأغراض فى البيئة المصرية .

وهكذا وجد فى كل بلاد الشرق المفتوحة مدن هى صور مصغرة من أثينا إذ أنها كانت تشتمل على المؤسسات العلمية والفنية والرياضيه ، كالجامعة والمسارح والمكتبات والملاعب ، فكان ذلك ايذانا بتنفيذ برنامج الاسكندر الأكبر وتطبيقه عمليا . ثم أن الخلاف فى الرأى بين قواد الأسكندر بعد موته وانقسام البلاد المفتوحة بين هؤلاء القواد لعدم وجود الوارث الشرعى القادر على أدارتها قد أدى إلى نمو الحضارة الاغريقية وانتشارها فى كل

بلاد الشرق بصورة نادرة وبسرعة لاتتصور ، إذ أن حرص كل واحد من الملوك اليونانيين فى الشرق على أن تسود مملكته فى ميدان العلم والفن والادب قد أوجد شيئا من الغيرة بين هؤلاء الملوك فبدءوا يتنافسون فى استدعاء العلماء وتوفير وسائل الراحة لهم ، وفى بذل المال لشراء الكتب ونقل لمخطوطات وانشاء المؤسسات على اختلاف انواعها حتى أصبحنا نحس من اقراءتنا لتاريخهم أن رغبتهم فى إحراز النصر العلمى أو الأدبى قد حلت محل الرغبة المعروفة عنهم قديما فى إحراز النصر الحربى .

ولقد بلغ هذا التنافس أشده يوما ما بين أحد ملوك برجام *pergame* فى اسيا الصغرى ، وأحد ملوك مصر من البطالمة حتى أن بطليموس منع تصدير الورق إلى برجام ، وكانت مصر هى البلد الوحيد الذى يصنع الورق من البابيروس *papyrus* ويصدره الى سائر البلاد الأخرى فى كل حوض البحر الابيض المتوسط ، فكانت بذلك تتحكم أو تحتكر أهم مادة لخدمة الثقافة

وحينئذ لم تجد برجام بدا من أن تفكر فى شىء يخرجها من تلك الازمة التى سببتها لها مصر والتى أحدثت لديها ضيقا وارتباكا فى سياستها العلمية والادبية ، فاخترعت نوعا من الصحف للكتابة يصنع من الجلد ويعرف باسم *parchemin* .

وهناك أمثلة عديدة من هذا التنافس بين المدن الجامعية اليونانية فى الشرق ، الاسكندرية وأنطاكية ، وسلوقية وبرجام من أجل جمع المخطوطات والاستحواذ عليها ، وجلب العلماء والانتفاع بنشاطهم وبآثارهم .

ولقد كانت هذه الحركة بلا ريب مبعث نهضة جديدة فى الشرق على أيدى اليونانيين ، وساعد كثيرا على هذه النهضة هو ما كان فى بلاد اليونانيين أنفسهم من اضطراب ، وضعف سياسى ، وانحلال اجتماعى وما كان يقابله

فى الشرق من استقرار وثراء . يضاف إلى ذلك عامل آخر هو ما كانت تقوم به روما فى خلال القرن الثانى والاول قبل الميلاد من احتقار الاغريق وخصوصا العلماء والفلاسفة منهم ، ومن العمل على إبعادهم من إيطاليا بحجة أنهم يفسدون العقلية بمبادئهم الفاسفية ويضعفون فى الشباب الرومانى روح الاقدام والرجولة ، وكانت روما فى أثناء ذلك تقوم بتأسيس مجدها وتثبيت سلطانها فيما فتحته من أملاك الفينيقيين فى أفريقيا وفيما استولت عليه من ولايات الاغريق المتداعية فى حوض البحر الابيض ، ولذا فقد لقيت دعوة شيوخها بطرد الاغريقيين من ايطاليا أذنا صاغية وقبولا حسنا ، ونذكر هنا حادثة واحدة على سبيل المثال : حينما أحست أتينا ، بعد أن وقعت فى حوذة الروم ، بظلم الولاة وتعسفهم فى جمع الضرائب انتدبت ثلاثة من علمائها ، هم الفلاسفة : كارنياد ، ديوجين ، كريتولاوس وبعثت بهم إلى روما ليتقدموا إلى مجلس الشيوخ بالشكوى ويقوموا بالدفاع عن حقوق الأتينيين وهناك فى روما قد استغل هؤلاء الفلاسفة فرصة وجودهم فى العاصمة فقام كل منهم بسلسلة من المحاضرات ينشر فيها مبادىء الفلسفة الأبيقورية ؛ وذاع فى روما خبر وجودهم وأقبل الناس على سماعهم ، وكان ذلك فى سنة ١٥٥ ق.م ؛ وقد ذعر لوجود هؤلاء الفلاسفة شخصية لاتينية محافظة ، تلك هى شخصية كاتون ، فقام ينادى فى أعضاء مجلس الشيوخ أن اعطوا لهؤلاء الفلاسفة ما يطلبون ودعوهم يعودون إلى بلادهم فذلك خير من انتظارهم هنا وإفسادهم للفتية من الرومان [1] ، وكانت هذه

---

[1] انظر ص ١٦٢ من كتاب

Histoire romaine par A. Mallet et J. Isaac

وانظر ص ٢٠ من كتاب

Histoire illustrée de la litterature latine par J. Humbert

الحادثة فى أذيال صدور قانون من مجلس الشيوخ فى روما يحرم على الفلاسفة وعلماء البلاغة من الاغريق البقاء فى العاصمة الرومانية ، وصدور هذا القانون كان على وجه التحديد فى سنة ١٦١ ق.م .

فى ضوء هذا نستطيع أن نفهم مركز الطبقة المستنيرة من الاغريق فى روما التى أصبحت بالنسبة لهم بمثابة الملجأ فى الغرب بعد أن ضعفت أتينا وخضعت سياسيا لسلطان الروم ، وفى ضوء هـذا أيضا نستطيع أن نفهم لماذا أخذ العلماء والفلاسفة من الاغريق يهجرون الغرب ويفدون إلى الشرق جماعات وأفرادا .

ونحن لا نستطيع أن نمضى هنا فى بيان الحضارة الاغريقية وتأثيرها فى كل بلاد الشرق ، ولكن ينبغى أن نحدد بحثنا بالنسبة لبيئة العراق فقط بعد هذه الصورة المجملة التى قصدنا من ورائها إعطاء فكرة عامة عن مبلغ عناية اليونانيين حكاما وأفرادا بنشر ثقافتهم فى هذه الآفاق الواسعة الجديدة .

بعد أن اتفق قواد الاسكندر على تقسيم مملكته الواسعة فيما بينهم كان هذا الاتفاق فى مدينة بابيلون - *Babylone* على نهر الفرات - أصبحت أرض النهرين تابعة للمملكة التى تحكمها الأسرة اليونانية المعروفة باسم السيليوسيد نسبة إلى *Seleucides* ، نسبة إلى *seleucos* الأول ، أحد أصدقاء وقواد الاسكندر المشهورين . وكان يتبع هذه الأسرة غير أرض النهرين سوريا ، وفلسطين ؛ وايران ، وما يعرف الآن بأفغانستان وبلوخستان ، وجزءا من بلاد الهند . وهنا يحدثنا التاريخ أن سيليوكوس الأول الذى كان حاكما على تلك الاقطار ، رفض البقاء فى مدينة بابل وأسس مدينة جديدة لتكون عاصمة لملكه على الضفة اليمنى لنهر دجله وعلى بعد عشرين

ميلا تقريبا جنوب الموقع الذى أسست فيه مدينة بغداد فى عهد ابى جعفر المنصور . وهذه العاصمة الجديدة هى مدينة سلوقيه ، ويحدثنا التاريخ كذلك أن سيليوكوس الأول قد قسم مملكته بينه وبين ابنه أنطيوخوس [1]. استقر هو فى القسم الشرقى ، أى وادى النهرين والبلاد الواقعة فى الشرق . وترك لابنه الجزء الغربى أى سوريا وفلسطين حيث أسس انطيوخوس بدوره عاصمة له فى شمال سوريا ؛ هى أنطاكيه وبعد قليل قتل غيلة سيليوكوس فورث ابنه كل بلاد آسيا الأغريقية .

وفى حوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد استقلت بلاد فارس وما يقع فى شرقها واستمرت أرض النهرين تابعه لملوك سوريا حتى تزعزعت حكومة اليونانيين فى كل آسيا الغربية . وسبب ذلك يرجع فى الغالب إلى : ضعف شخصية الملوك ، تدخل النساء فى الحكم ، والتنافس بين الحكام ، أما أهل بلاد الشرق أنفسهم فيبدو أنهم اطمأنوا إلى حد ما الى هذا المصير ، ما عدا الفرس الذين استمروا يناوئون اليونانيين ومن بعدهم الروم حتى جاء الفتح العربى فقضى على الفرس كما قضى على الروم وجعل من بلاد الشرق وحده تحت حكومه اسلامية .

وليس لنا أن ندخل فى تفصيل هذه الاحداث السياسية ، فتلك مهمة المؤرخ السياسى ، أما نحن فينبغى أن نعرف أن المسائل التى اتخذها اليونانيون للحياة ونشر الثقافة فى وادى دجله والفرات هى نفس الوسائل التى كانوا يتخذونها فى سائر البيئات الأخرى من تأسيس المدن وإنشاء المؤسسات العلمية ، وجلب العلماء وتوفير أسباب الراحة لهم حتى يمضوا فى دراساتهم وفى انتاجهم ، وبالرغم من أن بيئة العراق هى أول البيئات الأغريقية فى الشرق التى تعرضت للانحلال السياسى وضعف الجهاز الحكومى

والمناوشات الحربيـــة مع جيرانها الشرقيين من الفرس فانها استطاعت أن تنهض بنصيبها وتمهد الوسائل لتأسيس الحضارة الأغريقية ونشرها بين كل السكان قبل أن تسقط نهـــائيا العاصمة - سلوقيه - فى يد الملك الفارسى ، متريدات الثانى الذى حكم من سنة ١٢٤ الى ٨٨ ق.م ، ومعنى هذا أن بيئة العراق قد استمرت تحت حكم الاغريق أكثر من قرنين من الزمن ، وهذه مدة ينبغى ألا نستهين بها بالنسبة لنشر الثقافة اليونانية ومعرفة السكان بها وخصوصا إذا أدخلنا فى حسابنا مع هذا عناصر الصلاحية فى طبيعة هـــذه الثقافة واستعداد الشرق بوجـــه عام لقبولها . ولنحاول الآن أن نبين أهم الوسائل التى كان يلجأ إليها الاغريق فى الدعاية لحضـــارتهم والعمل على انتشارها . ولعل اهم مظهر يتجلى فيه ذلك بوضوح هو تخطيط المدن وتأسيسها على الطراز الأغريقى من حيث المنشآت الدينية والعلمية والاجتماعية وفى هذا الميدان نجد أن العراق قد ساهمت بنصيب كبير ، فعلى نهر الفرات وحده انشأ اليونانيون مجموعة من المدن الهـــامة تمتد على طول مجراه من الجنوب الى الشمال ، من بين هذه المدن نذكر مدينه دورا - *Doura* التى أصبحت فيما بعد مدينة أوروبوس - *Europos* ، ومدينة تابساك - *Thapsvque* التى أصبحت فيما بعد مدينـة أمفيبوليس *Ampohpolis* ، وغير هـذه المدن الواقعة على نهر الفرات نجد كذلك مدنا أخرى منتشرة فى ثنايا الوادى لعل أهمها على الاطلاق هى مدينة سيليوسى *Seleucie* الواقعة على نهر دجـــلة بالقرب من المكان الذى أنشئت فيه مدينة بغداد الحالية ، والتى اصطلح على تسميتها فيما بعد بسلوقية دجلة ، وليس من السهل ولا من المجدى كثيرا أن نتحدث على كل هـذه المدن بالتفصيل ، لأن الحديث فى الغالب سيكون مكررا معادا ، إذ انها صور من بعضها ، فهناك طابع عام واحد وهدف

مشترك بينها جميعا ، وإذن فلنأخذ مدينة دورا *Dorea* كنموذج للمدن اليونانية فى أرض العراق وللنصيب الثقافى الذى تقوم به هذه المدن ، وللأثر الذى تتركه كل مدينة فى الحياة العقلية والاجتماعية ، فماذا عسانا نجد فيها ؟

نجد عدداً كبيراً من اليونانيين يعيش فيها ، ربما يصل الى نصف سكانها والباقى من الفرس والساميين : الفرس الذين كانوا أصحاب البلاد إداريا منذ غزو كورش ، والساميين الذين كانوا يكونون السلالة الباقية من البابليين والأشوريين ، ثم من الآراميين فيما بعد .

نجد فيها معابد أنشئت على نمط المعابد اليونانية لاقامة الشعائر الدينية على النظام الأغريق وبنفس العقائد التى كانت معروفة ومتبعة فى أتينا بما فى ذلك من أعياد للزرع والحصاد ، واحتفالات وقرابين تقدم للالهة ، وإذن فكل الميثولوجيا الأغريقية كانت تعرف وتمارس عمليا هناك .

نجد فيها مسرحا تمثل فيه المسرحيات الدينية والأدبية مثل ما كان يصنع اليونانيون فى أتينا أو فى سائر المدن الاغريقية الاخرى ، وهذا يرينا أن الفن والأدب المسرحيين لم يكونا مجهولين عن هذه المدينة ولا عن سكانها بل اننا سنرى بعد قليل أن الفن والأدب المسرحيين بقيا يمارسان فى بيئات عراقية أخرى حتى بعد أن غزا الفرس بلاد العراق ودخلوا فى حروب مع الروم .

نجد فيها مدارس لتعليم اللغة اليونانية ودراسة العلوم البلاغية والفلسفية سواء أكان ذلك لأولاد الجالية الأغريقية نفسها أم لأولاد الطبقة الأرستوقراطيه من السكان الأصليين ، وأغلب الظن أن مناهج الدرس كانت وفق النظم التعليمية المتبعة فى معاهد العلم من بلاد الأغريق . وهذا يرينا إلى أى حد كانت كل مدينة أغريقية فى الشرق تصور الحياة الفكرية عند

الاغريق بجانب تصويرها للحياة الاجتماعيـــة ، وتساهم بنصيب فى تأسيس الحضارة اليونانية ونشرها والمحافظة عليها .

نجد كذلك مجموعة كبيرة من الكتب قد نسخت على الجلود التى كانت تصنع فى برجام أو على ورق البابيروس الذى كان يصنع فى مصر . وذلك يساعد على تصور مبلغ النشاط العلمى لا من ناحية الدراسة فقط ، ولكن من ناحية الانتاج أيضا .

ولحسن الحظ قد أبقى الزمن أثار كل ذلك حتى اكتشفها المنقبون فى هذا العصر الحـــديث . وقد قطع هذا سبيل الشك على الفكرة القائلة بأن الحضارة الاغريقية لم تعرف بشكل واسع فى بيئة العراق إلا فى العصور المسيحية الأولى وعلى أيدى السريان فقد أثبت هذا الكشف فساد هذه الفكرة ، بل رجح الفكرة المناقضة وهى أن هؤلاء السريان أو أجدادهم من الآراميين بالمعنى الدقيق قد عرفوا الحضارة الاغريقية ورأوا معالمها ودرسوا آثارها فى بيئة العراق قبل أن يعرفوها ويدرسوها فى بلاد الاغريق نفسها ، ثم إن اتصالهم بالاغريق فى آسيا الصغرى وعلى الخصوص فى وادى الرافدين كان آكد وأدوم من اتصالهم بالاغريق فى شبه جزيرتهم ، ومن المرجح أن اصطلاح السريان الذى اختاره الآراميون لأنفسهم بعد اعتناقهم للديانة المسيحية لكى يهجروا اصطلاح ـ آرامى ـ الذى يذكر بالديانة الوثنيـــة ، نقول إن اختيار الآراميين لهذا الاصطلاح ، وهو اصطلاح يونانى كان يطلقه الأغريق على الآراميين . لم يكن إلا عن طريق صلتهم بالأغريق فى الشرق . فى مدينـــة دورا ، التى نتحدث الآن عنها ، وفى كل المدن اليونانية فى وادى دجلة والفرات ، بل وفى المدن الهامة الأخرى كانت اللغة اليونانية هى لغة الحـــديث أيضا بجانب كونها لغة الكتابة والعلم

بين الطبقة الأرستقراطية كلها وبين كثير من عامة الشعب من غير اليونانيين ولذلك أثره فى حياة الناس الخاصة والعامة . فى كل هذه المدن كانت القوانين المستعملة هى القوانين اليونانية وليدة البيئة والفكر اليونانى . فى كل هذه المدن كانت المؤسسات العامة من وحى الفن اليونانى ، ومن عمل المهندسين اليونانيين . فى كل هذه المدن أخيرا كان الناس على علم بالآداب اليونانية ، والمعارف اليونانية ، وكانت الديانة اليونانية وما تحمل معها من أساطير وتعاليم منتشرة بشكل عظيم . من هذا نرى أن الأغريق فى بيئة العراق كانوا يعيشون عيشة لا تكاد تختلف عن حياتهم فى بيئتهم الأولى وأنهم لم يكونوا فى عزلة عن سكان البلاد الأصليين ، فمن طبيعتهم الاختلاط والاتصال ، ولم يكن اتصالهم قاصرا على الطبقة الارستوقراطية أو السادة ، كانوا يتصلون بكل طبقات الشعب فى معارفهم وفى معاملاتهم ، إذ أنهم لم يفدوا إلى هذه البلاد ليكونوا حكاما فقط باسم بلادهم وحكومتهم ، همهم جباية الضرائب ونقل الثروة إلى شبه جزيرتهم شأن غيرهم من المستعمرين وإنما وفدوا ليستقروا ويعيشوا ، وفى ذلك تصديق للفكرة القائلة بأن الأغريق فتحوا العالم وأعينهم فى السماء ، وقد جاء الروم من بعدهم فغزوه وأعينهم فى الأرض . وفى ذلك من غير شك تحقيق للرغبة التى كانت تخامر نفس الأسكندر الأكبر ، وتنفيذ لمشروعاته الثقافية العريضة . وبعد ذلك لا يجد الباحث عسرا فى تصور أثر المدن الأغريقية فى بيئة العراق ، ولا أثرهم فى سكان العراق الذين خالطوهم واتصلوا بهم عن طريق مباشر .

هذه الحالة التى وصفناها فى البلاد الآسيوية عامة وفى أرض النهرين خاصة لم تستمر وقتا طويلا بعد الفتح كى تصور مظاهر النهضة الاغريقية تصويرا شاملا صادقا ، وبقيت أرض النهرين تحت حكم ورثة الاسكندر

مستقلة أولا ، وتحت حكومة سوريا ثانيا ، وفى هذا النشاط العلمى حتى القرن الأول قبل الميلاد ، أى ما يقرب من ثلاثة قرون ، وهذه مدة كفيلة بتنشئة أربعة أجيال فى أحضان الثقافة اليونانية ، ولذلك فقد كان طابع تلك الثقافة فى آسيا قويا غير أنه ليس من السهل أن يتصورها من لم يدرس دراسة تحليلية تاريخ اليونان فى الشرق ويتتبع آثارهم العلمية ، والأدبية ، والفنية فى كل تلك البلاد المفتوحة منذ دخولهم فيها حتى تغلب الروم عليهم وحتى هؤلاء الروم لم يحاولوا استبدال الأغريق أو الأضعاف من شأنهم فى بلاد عرفوها وطبعوها بطابعهم الخاص من الناحية اللغوية والعقلية والعلمية ، وإنما أبقوا عليهم واستعانوا بهم واكتفوا لأنفسهم بأدارة الجهاز الحكومى وجمع الضرائب المختلفة بوسائلهم الشرهة المجحفة المعروفة .

صحيح أن بيئة العراق لم تستقر سياسيا خلال هذه القرون الثلاثة ، إذ أنها تعرضت فى بعض الفترات لنزاع من هذا النوع بين الحكام اليونانيين وشعب الفارثيين *Parthes* ، الذى كان يقيم فى منطقة خراسان واستقل فى حوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، ولكنها بالرغم من هذا النزاع السياسى قد بقيت محافظة على مظاهر الحياة الاجتماعية اليونانية ، وحريصة عل أبحاثها العلمية والادبية . وهذا يفسر لنا كيف كان السريان مقتفين آثار الثقافة اليونانية وحريصين على تراثها العلمى ، ويفسر لنا كذلك كيف وجدت فى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح مدارس فى أرض النهرين تعلم فيها العلوم باللغة اليونانية وتدرس فيها آثار الثقافة اليونانية . فقد يزول السلطان السياسى لشعب من الشعوب ، كما ذكرنا آنفا ولكن آثاره العقلية تبقى ماثلة من بعده قرونا طويلة . ومن هنا ندرك مرة أخرى الفرق بين مهمة المؤرخ السياسى ومؤرخ الحضارة ، الأول يذكر الأحداث السياسية

ويعللها ويقارنها ثم يسجل نتائجها القريبة والبعيدة ، أما الثانى فأنه ينفذ من خلال كل ذلك ولا يقف عنده إلا ريثما تتبين له الصلة بين السياسة والحضارة أو بمعنى آخر بين أنظمة الحكم وإنتاج العقل ، ثم هو يمضى بعد ذلك فى تعرف هذا الانتاج من حيث النشأة ، والمكانة الأدبية التى يمكن أن يكون قد وصل اليها إذا ما قورن بأنتاج غيره أو بمظاهر حضارة أخرى ومؤرخ الحضارة فى كل هذا ليس مقيدا بتواريخ معينة ولا بأزمنة محدودة وربما لا يتقيد كذلك بأمكنة خاصة ، فمؤرخ ظاهرة القانون فى حضارة من الحضارات مثلا ، أو مؤرخ ظاهرة الأدب النقدى على السنة الحيوانات والطير قد تضطره طبيعة البحث إلى أن يرجع الى الوراء أجيالا ، وأجيالا ويطوف ببيئات مختلفة وشعوب متباينة . مؤرخ هذه الظاهرة فى الحضارة الفرنسية لا يقف عند - لافونتين [1] - *Lafontaine* ، وإنما يذهب إلى روما القديمة حيث - فيدر - *Fedre* [2] ، وإلى أتينا حيث - ايزوب [3] *Esope* ، ثم

---

(١) لافونتين ، شاعر فرنسى ولد سنة ١٦٢١ وتوفى فى باريس سنة ١٦٩٥ ، وله مجموعة الأساطير المنظومة شعرا تحت عنوان - *Fables* ، وقد نظمها فى نحو خمسة عشر عاما وتقع فى أحد عشر كتابا .

(٢) فيدر *Fedre* ، شاعر لاتينى ولد سنة ٣٠ ق . م وتوفى سنة ٤٤ بعد الميلاد ، وقد حرره من الرق الامبراطور أغسطس وهو صاحب مجموعة الاساطير المنظومة على السنة الحيوانات ينتقد فيها المجتمع وما كان فيه من أسراف فى مختلف النواحى .

(٣) ايزوب *Esape* ، أحد الادباء اليونانيين المشكوك فى وجودهم بالرغم من أن المؤرخ اليونانى هيرودوت يتحدث عنه كشخصية معروفة مشهورة . والشهرة التى عرف بها هو أنه من رقيق الشرق الوافدين الى بلاد اليونان ثم حرر واشتهر بالمكر والدهاء وسبك الحيله . وأثر عنه كذلك أنه ألف مجموعة من الأساطير على السنة =

إلى بيئة الفرس ومنها إلى بيئة الهند أو بيئة سومر حيث تقف هذه الظاهرة الأدبية أو حيث يقف علمنا بها على الأقل ، وكذلك مؤرخ ظاهرة الشعر القصصى فى نفس الحضارة الفرنسية لا يقف عند فيكتور هوجو [1] ولا عند تورولدوس [2]

= الحيوانات ينتقد فيها المجتمع ومن يثبت وجوده يذكر أنه كان يعيش فى عهد كريزوس *Cresus* ، آخر ملك يونانى لمنطقة ليديا ، وقد عاش هذا الملك فى خلال القرن السادس قبل الميلاد . ومما ينبغى أن يعرف هنا أيضا هو أن الذى جمع ونظم مجموعة أساطير ايزوب إنما هو ديمتريوس الفاليرى - *Demetrius de phaler*e وذلك فى حوالى سنة ٣٢٠ قبل الميلاد . ثم أن هذه المجموعة من الأساطير قد نظمها شعرا شاعر يونانى اخر اسمه بابريوس *Babrius* فى خلال القرن الثالث الميلادى وقد بقى هذا النظم غير معروف حتى سنة ١٨٤٣ حيث اكتشفت فى أحد الأديرة فى جبل أثوس - *Athos* فى الجنوب من بلاد مقدونيا .

(١) فيكتور هوجو ، من رجال الادب البارزين فى فرنسا ولد سنة ١٨٠٢ وتوفى عام ١٨٨٥ م ، وله ضمن مؤلفاته العديدة ملحمة من نوع الشعر القصصى تسمى - أسطورة العصور *Legend des siecles* نظمها فيما بين سنتى ١٨٥٩ و١٨٨٣ م وهذه الملحمة تقع فى أربع مجلدات ، حاول الشاعر فيها أن يرسم صورة الحياة الانسانية فى أدوارها المختلفة ، منذ الظلام والخليقة الاولى حتى عصر النور بما فى ذلك من خرافات ، وتاريخ ، وفلسفة ، وعقيدة ، وعلم .

(٢) تورولدوس - *Turoldus* ، شاعر فرنسى من أقليم النورماندى وقد عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى ، والراجح أنه صاحب الملحمة المعروفة باسم اغنية رولاند - *Chanson de Roland* ، يتغنى الشاعر فى هذه الملحمة ببطولة أحد الفرسان الفرنسية الذين كانوا مع الملك شرلمان أثناء حروبه مع العرب فى أسبانيا : انتهت الحرب بهزيمة شرلمان فأخذ فى التقهقر إلى الشمال ، ولما كان فى بلاد الباسك هاجمه اهلها من أعلى الجبال وحاصروهم فأظهر الفارس البطل رولاند شجاعة وجرأة حمى بهما مؤخرة الجيش من الحصار .

وإنما يرجع إلى فيرجيـــل (٣) ولوكانوس (٤) فى الأدب اللاتينى ، ومنهـا يعود إلى هـومير فى الأدب اليـونانى (٥) ثم ينتقل الى المـــاضى

---

(٣) فيرجيل ، ابرز شاعر لاتينى دون شك ، نظم الشعر فى أهم أغراضه : الغنائى والتعليمى والقصصى ، وكانت عنايته بسلامة اللغة وصحة العبارة لا تقل عن عنـايته بقوة المعنى ، وأهم وسائله فى الوصول بالشعر الى أسمى مكانة هى الصـــبر وحسن الاختيار . وهو صـــاحب ملحمة مشهورة تسمى بالأينياده ، ومات قبل أن ينهيها ويهذبها للنشر ، وموضوع هذه الملحمه هو الحديث عن أصل الشعب اللاتينى والأدوار التى مرت به حتى تكون . وتقع هـذه الملحمـة فى اثنى عشر جزءا يتحدث فيها عن البطل الطروادى ـ أينيه ـ كـيف ترك طرواده واخـترق البحر الابيض المتوسط ، وكيف القت به السفينة فى شمال افريقيا ، وأخيرا كيف وصل الى ايطاليا واتصل عن طريق المصاهرة بأحد ملوكها ثم كيف تكون من سلالته الشعب اللاتينى :

(٤) لوكانوس *Lucanus* ، شاعر لاتينى من شعراء القرن الاول الميلادى ، وهو من أصل اسبانى ولد فى مدينة قرطبه سنة ٣٩ م ونشأ فى مدينة روما ولفت الأنظار بقوله الشعر الجيد وهو صغير فقربه الامبراطور نيرون إلى قصره وحينما وجد بينهما شىء من التنافس فى قول الشعر طرده الامبراطـور فغاظ ذلك لوكانوس فانضم إلى أعداء نيرون السياسيين وكان ضمن مؤامرة قد دبرت للأمبراطور ولما كشف أمر هذه المؤامرة حكم على لوكانوس بالأعدام على الطريقة الرومانية المعروفه ، ذلك أن يقطع بنفسه شرايين يده ويترك الدم ينزف حتى يموت ، وبهذه الطريقة مات لوكانوس فى روما سنة ٦٥م وهو صاحب ملحمة مشهورة باسم فارسال *Phrsale* ، وموضوع هذه الملحمـة هى الحرب بين قيصر وپومپي التى انتهت بانتصار قيصر ، وبانتهاء هـذه الحرب انتهى أيضا عهد الحـكم الجمهورى فى روما . وقد سميت الملحمة باسم المدينـة التى حصلت فيها الموقعة الفاصلة بين قيصر وپومپي سنة ٤٨ قبل الميلاد .

(٥) هومير شاعر يونانى مشكوك فى وجوده أيضا ، ولـكن المعروف أنه وجد فى القرن التاسع قبل الميلاد ، وتصوره الروايات شيخا أعمى هرما متنقلا من مدينـة إلى أخرى يقص على الناس أشعاره القصصية ، وينسب اليه أقدم ملحمتين فى الادب

البعيد فى بيئة البابليين والسومريين حيث ملحمة جلجميش [٦] . وهكذا داوليك فى سائر الظواهر الهامة الأخرى من علم وأدب وفن لا يتقيد مؤرخ الحضارة فيها بزمان ولا بمكان :

وإذن لم يكن ضياع سلطان اليونانيين من وادى دجله والفرات على يد القبائل المقيمة على حدود العراق من الشرق والشمال قاضيا على الثقافة اليونانية التى تمكنت أصولها من البيئة ، وانما استمرت تحافظ على كيانها وتستمد ما كانت فى حاجة اليه من مدينة برجام *Pergame* ، أهم مركز للثقافة اليونانية فى آسيا كلها . ولنلق الآن نظرة عاجلة أخيرة على مدينة دورا التى اتخذناها مثلا للمدن اليونانية الأخرى فى بيئة العراق ؛ زال سلطان الأغريق عن هذه المدينة ، ووقعت تحت حكم الفارتيين ، ولكنها استمرت يونانية فى لغتها وفى ثقافتها حتى بعد أن انتشرت الديانة المسيحية ، واعتنقها سكانها من اليونانيين وغيرهم . وفى خلال القرن الثالث الميلادى نجد هؤلاء السكان يقومون بعمل له دلالته البعيدة . ذلك أنهم ترجموا كتاب الدياطسرون ،

= اليونانى هما : الأليادة ، والاوديسا ، موضوع الاولى أبحار اليونانيين الى مدينة طرواده فى آسيا الصغرى ومحاربتهم لأهل طرواده لكى يستخلصوا سيدة يونانية اغتصبها ابن ملك طرواده ، وموضوع الثانيه هو أبحار - أوليس - أحد ملوك اليونانيين الذين اشتركوا فى حرب طرواده ، إلى شبه الجزيرة اليونانية ، وقد قامت عواصف شديدة فى البحر فضلت به السفينة الطريق ثم حدثت له فى رحلته أحداث ومفاجآت عجيبة وبقى فى ذلك التيه حتى وصل أخيرا إلى مملكته . ويقال أن هذه القصص كانت معروفه قبل هومير ولكنه هو الذى جمعها ونظمها ،

الذى تقدمت الاشارة إليه منذ قليل ، من السريانيه إلى اليونانيه ، لكى يكون مرجعهم الدينى ومرشدهم فى إقامة الشعائر الدينيه على اختلافها . وهذا يدل بوضوح على أن لغة سكان هذه المدينة فى القرن الثالث الميلادى كانت اليونانية وأن درايتهم بغيرها من اللغات كانت منعدمه أو على الأقل سطحية بسيطه . ولم يكن يعرف عن هذه الترجمة اليونانية شىء حتى سنة ١٩٣٢ م ، ولكن بعد هذا التاريخ مباشرة اكتشف المنقبون فى مدينة دورا أيضا ورقة من الرق تشتمل على أربعة عشر سطرا من الدياطسرون باللغة اليونانية فعرفت بذلك هذه الترجمه .

وبعد القرن الثالث الميلادى لم تطمس معالم الثقافة اليونانية من مدينة دورا ، بل استمرت فى وسط نشاط السريان وبين مدنهم العلمية تمثل مركزا هاما فى الشرق من المراكز التى تلتقى فيها الثقافة السريانيه والثقافية اليونانية [١] وشأن مدينة دورا فى بيئة العراق هو شأن غيرها من المدن الأغريقية فى طوال الوادى وعرضه ، بل إن التنافس بين هذه المدن فى الاحتفاظ بالثقافه الاغريقيه والعمل على نشرها قد تجاوزها ووصلت عدواه إلى المدن الاخرى التى كان سكانها من الفرس والساميين [٢] .

وهنا يجب ألا يغيب عنا أن الثقافة اليونانية فى الشرق قد أخذت صوراً عدة ، ومصدر ذلك البيئات المختلفة فهى فى الاسكندريه غيرها فى أنطاكية وهى فى برجام غيرها فى العراق أو فى بابيلونيا ، إذ كان وجود اليونانيين

---

(١) انظر تاريخ الأدب السريانى بقلم دكتور مراد كامل ، دكتور محمد اليكرى ص ٥٤ - ٥٥

(٢) انظر

Nouvelle Histoire grecque par Ropert Cohen page 371-372

حافزا على إحياء الثقافات القديمة فى هذه البيئات ، وذلك لسببين هامين : الأول رغبة الطبقة المستنيرة من الأغريق فى التعرف على هـذه الثقافات الشرقية وادراك كنهها ، الثانى نوع من التعصب والشعور بالقومية عند المثقفين من أهل البلاد وخصوصا طبقة رجال الدين ، وكان ذلك بمثابه رد فعل أحدثه نشاط الثقافة اليونانية فى هذه البلاد .

وما دامت العراق هى التى تهمنا فى هذا البحث دون سواها فجدير بنا أن نعرف أن بابيلونيا صارت فى وسط المدن اليونانية الجديدة بمثابة مركز هام للثقافات الشرقية القديمة ، التى هى تراث السومريين والأشوريين والفرس فكان فيها أكبر الآلهة ، ماردوك ، وظلت عقائده وأنظمة عبادته ، وأعياده معروفة ومعمولا بها طوال حكم اليونانيين ، وظلت فيهـا كذلك الأبحاث الرياضية والطبيعية والفلكية دون فتور . وهكذا كانت مدينة بابل فى وسط المدن اليونانية بالنسبة لمحافظتها على التراث الثقـافى القديم أشبه شىء بمدينة هيليوبوليس ، وممفيس ، وطيبة فى وادى النيل بجانب مدينة الاسكندرية التى كانت أهم مركز للثقافة الأغريقية .

ولم تكن هذه العوامل التى تعرضنا لذكرها حتى الآن هى وحدها التى مهدت السبيل لاستقرار الثقافه اليونانية وانتشارها فى بيئات الشرق ، ولكن هناك عاملا آخر أجل من كل ذلك شأنا وأعظم خطراً ، ذلك هو ماكانت تتسم به الثقافة اليونانية نفسها من سمات القوة والعظمة ، وماكان يملؤها من المبادىء الانسانية العامة ، ثم ماتشتمل عليـه من دواعى الأغراء ، سواء أكان ذلك فى مظاهر الفن أم فى معالم الأدب أم فى آفاق الفلسفة ، ولعل أهم تلك الدواعى هى التنوع والغزارة فى الانتاج العقلى والخيـالى والعاطفى ، ثم ماكان يتحلى به ذلك الانتـاج من حرية الفكر وصراحة

التعبير والبعد عن الملق السياسى والنفاق الاجتماعى ، وأخيرا ماوفق إليه ذلك الانتاج فى كثير من مظاهره إلى الوصول إلى المثل العليا التى كانت تطمح إليها البشرية فى العالم القديم والتى لاتزال حتى الآن تتخذ نبراسا يهتدى به رجال الفن والأدب والرياضة .

لقد وفدت هذه الثقافة إلى الشرق وهى فى أوج عظمتها فكانت بمثابة طور طبيعى ومرحلة نهائية لما كان يعرفه الشرق من علم وفن وأدب ؛ ولذا لم يجد أهل الشرق عناء فى أن يمارسوا هذه الثقافة ويحاكوا أهلها فى إنتاجهم ومعارفهم ، بل أقبلوا طواعية يدرسونها ويفهمونها ويندمجون فيها كأنما نبتت فى أرضهم أو تمت إليهم بسبب .

لقد جاءت الفلسفة اليونانية غنية بأفكارها ومعارفها إلى الشرق وفيها منهج البحث عن الحقيقة المجردة ناضجا واضحا ووسائل الوصول إلى تلك الحقيقة ممهده منضبطة ميسوره ، وجاءت الأبحاث اللغوية متعددة شاملة وقد خدمتها الحركة السوفسطائية أجل خدمة فوضعت الأسس الأولى لعلم النحو ووصلت بالعلوم البلاغية - بحث ومناظرة وبيان وبديع - إلى درجة الكمال ، وجاء الشعر اليونانى وهو يشتمل على كل الانواع الشعرية المعروفة إذ ذاك ، ليست على حالتها البسيطة كما رأيناها عند البابليين والأشوريين ولكنها غنية رائعة ، وجاء الفن الأغريقى بمظاهره العديده وفيه أكمل النماذج وأدق المقاييس للذوق والجمال وجاء النثر مليئا بالأبحاث ومشتملا على عنصريه الأساسيين : العنصر العلمى والعنصر الأدبى ، وهو ممثل على الخصوص فى أبحاث التاريخ والجغرافيا والطب . أما الفلسفة وأبحاثها ووسائلها فكانت ممثلة فيما خلفه فيثاغورس [1] .

---

(١) انظر ص ١٣٠ من كتابنا هذا - العراق وماتوالى عليه من حضارات .

[1] يعتبر أرسطو من أشهر فلاسفة الاغريق ومن أكثرهم أنتاجا من ناحية الكم ومن ناحية الكيف معا . ولد فى مدينة ستاجير من مقاطعة مقدونيا سنة ٣٨٤ق.م ونشأ فى وسط ارستقراطى إذ أن والده كان طبيبا خاصا لملك مقدونيا أمينتاس الثانى *Amyntas II* ، وفى سنة ٣٦٧ ق.م ذهب أرسطو إلى أتينا كى يتم تعليمه وكان سنه إذ ذاك سبعة عشر عاما ؛ وفى نفس السنة مات والده وترك له ثروة مالية كبيرة وهناك فى أتينا تتلمذ ارسطو على العالم البيانى والخطيب البليغ — إيزوقراط — *Isocrate* الذى فضل الموت جوعا على أن يعيش فى العبودية والذل تحت حكم الغاصب فيليب ، ملك مقدونيا ، الذى هزم الأتينيين فى سنة ٣٣٨ ق.م وضم عاصمتهم إلى ملكه ، بقى أرسطو تلميذاً لهذا الخطيب حتى رجع أفلاطون إلى أتينا من صقلية سنة ٣٦٥ ق.م ، ومنذ عودة أفلاطون أصبح أرسطو تلميذه المحبب إليه مدة ثمانية عشر عاما ، أى حتى وفاة أفلاطون سنة ٣٤٧ ق.م ، ومن هذا التاريخ حتى سنة ٣٤٢ ق.م اشتغل أرسطو بالأسفار وبعض الانتاج العلمى . وفى سنة ٣٤٢ ق.م يستدعيه فيليب . ملك مقدونيا ، ليكون استاذا خاصا لابنه الاسكندر الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، فيذهب أرسطو إلى مقدونيا ويستمر فى صحبة الاسكندر حتى يعد حملته لغزو الشرق فى سنة ٣٣٥ . وهنا يترك الاسكندر فى غزواته الحربية ويذهب هو إلى أتينا فينشىء مدرسة خاصة فى الفلسفة ويشتغل بالتعليم والانتاج ، وبعد موت الاسكندر فى الشرق يوجد رد فعل سياسى فى أثينا فيثور الأتينيون ضد الحكم المقدونى وضد من كان يناصر هذا الحكم ؛ وهنا يحدق الخطر بأرسطو ويخشى على حياته من الأتينيين ، إذ أنه كان مقدونى الأصل والنشأة وكان صديقا للملك فيليب وأستاذا لابنه الإسكندر ، ولقد كان أبوه الطبيب الخاص لجد الاسكندر ، الملك أمينتاس الثانى لهذه الأسباب يترك أرسطو أتينا سنة ٣٢٣ ق.م ويعتزل فى مدينة كالسيس *Chalcis* ، وفى السنة التالية ، سنة ٣٢٢ ق.م يصاب بمرض فيموت منه .

وكانت فلسفة أرسطو صدى لفلسفة أستاذه أفلاطون كما أن ثقافة الاسكندر =

=الاكبر صدى لثقافة أرسطو . ويمكن تلخيص فلسفة أرسطو فى البحث عن الحقيقة وطريقة البحث فى تلك الحقيقة تنحصر فى الفكرة العامة التى تجمع بين الأشياء المتشابهة . ولعل أهم شىء يفرق بين التلميذ وأستاذه هو أن أفلاطون يحاول أن يخضع كل الأفكار إلى الفكرة العليا ، فكرة الخير ، أما أرسطوفكان يتخذ له منهجا آخر فيرى الاستقلال التام بين الأفكار ففكرة الشر لاتخضع لفكرة الخير وإنما لكل منها حقيقة مستقلة يجب البحث عنها ومحاولة الوصول إليها .

وقد ترك أرسطو مجموعة عظيمة من الكتب ولكن بعضها لم ينشر إلا بعد موته بنحو ٢٥٠ سنة ؛ وقد تناولت مؤلفات أرسطو كثيراً من الموضوعات المختلفة فمنها ما هو خاص بالشعر ومنها ما هو خاص بالبيان ، ومنها ما هو خاص بالخطابة ومنها ما هو خاص بالفلسفة ، وليس من السهل هنا أن نتناول كل مؤلفاته بالتفصيل ولكننا نستطيع أن نجملها فى ست مجموعات : ١ - مجموعة شعره ، ٢ - خطبه ؛ ٣ - مجموعة خطاباته أو مراسلاته ؛ ٤ - مجموعة محاوراته ؛ ٥ - مجموعة كتبه العلمية ؛ ٦ - مجموعة كتبه الخاصة بالبحث عن العلم الحقيقى ، وأغلب هذه المؤلفات كانت معروفة للأجانب خارج أتينا ؛ بل أن بعضها قد عرف وحفظ فى خارج أتينا ، ثم اشترى ونسخ ليحفظ فى العاصمة الإغريقية ، مثل ما حدث فى مدينة من آسيا الصغرى تسمى تيوس *Teos* .

[1] يعتبر أفلاطون أكبرخليفة لسقراط وهو لا يزال حتى اليوم واحدا من أساتذة الفن والعقل الخالدين . فهو كفيلسوف المؤسس الحقيقى لمبدىء المثالية ، وككاتب أمهر مفنن فى النثر الإغريقى . ولد أفلاطون فى أتيناسنة ٤٢٨ ق.م من أسرة نبيلة وقد عرف من صغره بكثرة دراساته فى فنون المعرفة فتعلم الرياضة ، والموسيقى والرسم ، ثم أقبل على تعلم الأدب فكانت باكورة إنتاجه فى هذا نظمه مجموعات من الشعر الغنائى ثم مجموعات أخرى من الشعر المسرحى ، وبعد ذلك اتجه إلى دراسة صول المعرفة أى الدراسة الفلسفية ، وكل ذلك كان قبل أن يصل إلى سن العشرين=

=وحينما وصل إلى سن العشرين تلاقى مع سقراط للمرة الأولى ، ومنذذلك التاريخ ، أى حوالى سنة ٤٠٨ ق.م ، يستمر أفلاطون ملازما لسقراط حتى يقع هذا الأخير ضحية لغضب الأتينيين وثورتهم عليه ، ونحن نعلم ما كان من نهايته ، ولكن أفلاطون لم يستطع أن يكون بجانب أستاذه فى ساعة محنته كسائر التلاميذ ، إذ أنه كان مريضا . وبعد موت سقراط أصبحت الإقامة فى أتينا لاتطاق بالنسبة لأفلاطون إذ أن شرر الغضب فى أتينا لم يقتصر على قتل سقراط بل بدأ يتطاير فيدرك أتباعه ، ولهذا فقد رأى أفلاطون أنه لا بد من ترك أثينا فغادرها ومكث بعيداً عنها نحواً من اثنى عشر عاما قضاها ما بين ليبيا وإيطاليا ومصر . وفى خلال هذه الأسفار فى تلك الاقطار المختلفة اتصل أفلاطون بكثير من العلماء والادباء والفلاسفة ورجال الدين ، ولهذا فإن نتيجة هذه الاسفار كانت عظيمة الاثر على أفلاطون بالنسبة لافكاره ومعارفه وفلسفته . وبعد زمن قصير قضاه فى صقلية عاد أفلاطون إلى أتينا وكان سنه إذ ذاك نحواً من أربعين سنه . وهناك بدأ ينشر معارفه بين أتباعه وتلاميذه ويعلم فلسفته فى المعهد الاكاديمى ، إذ اعتاد الاساتذة أن يجتمعوا بتلاميذهم فى أوقات عديدة وفى حلقات حرة ، هى أبعد ما تكون عن النظام المدرسى المعروف ، فكان الاستاذ يجتمع بطلابه يتحدث إليهم ويتحدثون إليه ، يناقشهم ويناقشونه ويتبادلون الرأى فيما بينهم وربما أقيمت وليمة من وقت إلى آخر فكانت فرصة أخرى تجمع بين الاستاذ وطلابه على المائدة كما تجمع بينهم حلقة الدراسة . واستمر أفلاطون على هذا الحال فى أثينا لم يغادرها إلا فى فترتين قصيرتين ذهب فيهما إلى جزيرة صقلية الاولى فى سنة ٣٦٧ ، والثانية فى سنة ٣٦١ ق.م . وفى سنة ٣٤٧ ق م يموت أفلاطون ولم يكن قد تزوج فيترك ميراثه لاحد تلاميذه وهو ابن أخيه أو أخته ، ثم يؤول أمر تلك الثروة فيما بعد إلى تلاميذ ذلك الوارث ، أما بيت أفلاطون فأنه أصبح مدرسة تعلم فيها العلوم على اختلافها .

ويعتبر أفلاطون من أكبر المؤلفين الاغريق بالرغم من أسفاره الطويلة ومن حياته المضطربة فى كثير من الاحيان ، فقد وجد له نحو من اثنين وأربعين مؤلفا على شكل محاورات تبحث فى موضوعات مختلفة ، ونحو من ثلاثة عشر رسالة =

وأما الأبحاث اللغويه فكانت ممثلة فيما تركه أساتذة السوفسطائيين أمثال بروتاجوراس . (١)

= ومجموعة من التعاريف المتنوعة ، وهذا عدا مؤلفات أخرى أقل قيمة من ذلك ، وأغلب هذه المؤلفات كان معروفا عند القدماء فى الغرب وفى الشرق وبقى معروفا حتى الوقت الحاضر ، وأفلاطون من الاغريق القلائل الذين لم يذهب الزمن بآثارهم العقليـــة .

(١) كان مولد بروتاجوراس *Protagoras* فى مدينة « أبديرا » الواقعة شمال بلاد الاغريق على شواطىء بحر إيجه فى حوالى سنة ٤٨٥ ق.م ثم اشتغل فى سن مبكرة بدراسة الفلسفة ، وهو من المؤسسين لحركة السوفسطائيه عند الاغريق ، تلك الحركة التى ليست فى الواقع سوى رد فعل للدراسات الفلسفيه فى أثينا ، تلك الدراسات التى صرفت الناس عن الماديات والحياة الواقعيه وانطلقت بهم وبأفكارهم إلى ما وراء الطبيعه يبحثون عن الحقيقه المجردة وعن أصل الخليقه ، وعن المثل العليا . قام هذا الفيلسوف بمجهود كبير للقضاء على الفلسفه القديمه وبدأ ينشر ويؤسس مبادىء الحركه السوفسطائيه ، ومن مبادئه المشهورة : العالم الخارجى ليس إلا مجموعة أفكار يكونها الإنسان لنفسه عن هذا العالم أو بمعنى آخر أن الحقيقه فى حد ذاتها لا وجود لها وإنما هو الإنسان الذى يتصورها ويوجدها ، وإذن فالحقيقه أمر نسبى ، فما نراه نحن حقيقة قد لا يراه غيرنا ، وما كنا نراه بالامس حقيقه قد لا نراه اليوم . وكذلك كان يرى بروتاجوراس أن موضوع الكلام لا يمكن أن يكون فى حد ذاته حسنا أو قبيحا ، وإنما يأخذ حسنه أو قبحه من شخص المتكلم ومن قدرته على ابرازه فى الثوب الذى يحيكه من أجله . ولقد جاء هذا الفيلسوف إلى أثينا ينشر مبادئه الجديده التى وجدت رواجا عظيما بين الشبان الذين كانوا يطمعون فى الوصول الى المناصب الحكومية عن طريق الخطابة البليغه والتعبير الجميل والاقناع ولو عن طريق خديعة العقول . وفى سن السبعين أى حوالى سنة ٤١٥ ق.م وجهت اليه تهمة الخروج عن الدين وحكم عليه بالنفى من أثينا ، ولكنه لم يعش بعد هذا الحكم طويلا فمات غرقا . وقد ترك هذا =

=السوفسطائى جملة مؤلفات لم يبق منها سوى بعض فقرات لايمكن أن تعطى وحدها صورة واضحة عن مؤلفها . وأهم هذه المؤلفات كتاب سماه « الحقيقة » وكتاب آخر موضوعه « البحث والمناظرة » ولكن عنوانه لم يعرف بالدقه ، وبفضل رسالة من رسائل أفلاطون أمكننا أن نعرف الكثير عن بروتاجوراس وعن طريقته فى الدرس والاقناع . ورسالة أفلاطون مؤلفه على نظام الحوار ومسماه باسم السوفسطائى نفسه « بروتاجوراس » . وبالرغم من أن أفلاطون قد قصد من وراء رسالته التهكم على السوفسطائيين وهدم مبادئهم ونظرياتهم الا أننا نستطيع أن نستخلص منها أن بروتاجوراس فى طريقته التعليمية كان يقص على تلاميذه أولا قصة خرافية أو أسطورة رمزية ثم يلقى على هذه الأسطورة أو القصة محاضرة ويعقبها بشرح وتعليق مستشهدا بكثير من أبيات الشعر الجيد المشهور . وكان يتحرى إلقاء كل ذلك بأسلوب بليغ ، وعبارة سلسه ، وألفاظ منمقة مختارة ، وأطناب يدل على سعة فى المعارف ؛ ولكنه كان يتحاشى الدقة التى تدعو إليها الفلسفة . فكان حسن عباراته وجمال أسلوبه يغريان تلاميذه ويشوقانهم ؛ ولكنهم يخرجون من عنده وليس لديهم معارف جديدة ، إذ أن موضوع الدرس نفسه خرافة أو أسطورة ، والهدف منه إثارة الإعجاب والزيف على العقول .

[1] ولد جورجياس *Gorgias* فى جزيرة صقلية فى نفس التاريخ الذى ولد فيه بروتاجوراس أو قريبا منه اى حوالى سنة ٤٨٥ق.م ، وقد بدأ أيضاً بدراسة الفلسفة ثم نهج نهج الحركة السوفسطائية ونال من وراء ، ذلك شهرة واسعة فى كل صقلية . وفى حوالى سنة ٤٢٧ق.م بعثه مواطنوه مندوبا عنهم إلى أثينا يشكو إلى الحكومة مايلاقيه أهل الجزيرة من الحكام الأغريق فدخلها لأول مرة فى هذا التاريخ وهناك وجد الفرصة سانحه لكى ينشر تعاليمه ومبادئه ، إذ أن البيئة كانت خصبة ومهيأة من قبله . ومات هذا السوفسطائى بعد أن عاش نحوا من مائة سنه ، أى حوالى سنة ٣٨٥ ق.م وما عرف عن مؤلفاته أكثر مما عرف من مؤلفات سابقه بالرغم من ضياع الكثير

وبروديكوس [1] وكذلك فيما خلفه أرسطو فى هذا الميدان [2] وأما الشعر اليونانى فالقصصى منه ممثل فى أروع ما عرف منه حتى الآن ، الأليـاذه والأوديسا للشاعر هوميروس [3]

=منها . وكان هم جورجياس ، كسابقه ، موجها أولا إلى جمال التعبير وموسيقى الجمل فكان يبذل جهداً فى أن يكون تعبيره ذا وزن يكاد يشبه وزن الشعر ، وذا وقع موسيقى على السمع . وأهم وسيلة كان يستخدمها فى التعبير البيانى هى وسيلة التقابل أو التضاد بين الألفاظ والمعانى ، وكان مع حرصه على هذا التقابل يتخير الألفاظ التى تتعادل فى عدد المقاطع وفى نفس الصيغ الفعلية . وكان مع عنايته الشديدة وحرصه البالغ من ناحية الأسلوب وجماله وموسيقاه لا يهتم مطلقا بالمعنى ، فسواء لديه أكان فى هذه الجمل الرنانة فكرة أم لا . ومن مبادىء هذا السوفسطائى : الكائن المطلق لاوجود له . ولو كان موجودا فهو غير معروف . ولو كان معروفا فهو غير مدرك ولا يمكن شرح كنهه ، وبهذا كان من السهل اقناع الناس بألا جدوى من وراء البحث عن الحقيقة المطلقة ، وتوجيههم إلى فن القول بعنصريه : الجدل والبيان ؛ الأول لاقناع الخصم فى مناقشة فردية ، والثانى لاقناع الجمهور فى الخطب السياسية أو القضائية .

[1] ولد بروديكوس *Prodicos* ، فى جزيرة صغيرة من الجزر اليونانية حوالى سنة ٤٧٠ ق.م ، وهو ثالث المؤسسين للحركة السوفسطائية . وقد جاء بدوره إلى أتينا يساهم فى تأسيس هذه الحركة فاشتغل بالتعليم وكون له من وراء ذلك ثروة طائلة . وكان فوق شهرته بالسوفسطائية معروفا بالاستقامه الخلقية وبتحرى الدقة فى معانى الكلمات . ولذا فأن أرسطو كان يرسل إليه تلاميذه الذين لم يكونوا مستقيمين فى أخلاقهم العملية كى يقومهم بتعاليمه الأخلاقية .

[2] نقصد بذلك على الخصوص كتاب الشعر وكتاب البيان لأرسطو .

[3] هوميروس من أوائل شعراء اليونان ، عاش على حسب الروايات فى القرن التاسع قبل الميلاد . وانظر بعد هذا ص ٨٤ من هذا الكتاب : العراق .

والتعليمى منه ممثل فيما خلفه الشاعر اليونانى الكبير : هيزيود *Hesiode*،[1] والمسرحى منه ممثل أورع تمثيل فيما تركه أيشيل *Eeshyle* [2]

---

[1] انظر ص ٦٣ (هامش) ثم ص ٨٩ ، ٩٠ من كتابنا العراق .

[2] إن مكانة إيشيل *Eeshyle* فى الشعر المسرحى تشبه تماما مكانة هوميروس فى الشعر القصصى أو مكانة هيرودوت فى فن التاريخ فكما أن الأول قد سمى أبا الشعر القصصى ، والثانى أبا التاريخ فأن ايشيل قد سمى أبا التراجيدى فى الشعر المسرحى عند اليونان ، إذ أنه بفضل ما كان يعطيه من حيوية لموضوعاته ولأشخاص رواياته ولأسلوبه قد استكمل هذا الفن الشعرى كل صفاته ووصل إلى الدرجة التى كان ينتظرها له الاغريق ، ولهذا فأنه ، وهو لا يزال حيا ، قد غزت مؤلفاته مسارح التمثيل فى صقلية كما غزتها فى أتينا .

ولد هذا الشاعر من أسرة أرستقراطية فى بلدة صغيرة تقع فى الشمال الغربى لأتينا سنة ٥٢٥ أو سنة ٥٢٤ ق.م اسمها *Eleusie* وبالرغم من نشأته الارستقراطية فأنه لم يعارض - إذا اعتمدنا على مؤلفاته فى تحليل شخصيته - النزعة الديمقراطية التى كانت تسود الأغريق فى زمنه ، وكانت حياة هذا الشاعر كلها عمل جدى فى شبابه اشترك فعليا فى الحروب الميديه ، ثم لم تلبث حالة الهدوء أن تعود نوعا ما إلى أتيناحتى اشتغل بالأدب واتجه بصفة خاصة إلى الأدب المسرحى فأنتج فيه وصادف إنتاجه نجاحا فى أول الأمر ؛ حيث دخل فى مسابقة مسرحية فاكتسبها ، ومن ذلك الحين كان أيشيل لا يرى إلا مؤلفا أو ممثلا على المسرح ، أو منافسا فى تلك المسابقات المسرحية ، وبقى كذلك حتى توفى فى سنة ٤٥٦ ق.م ، ولعل أوضح دليل على ذلك هو ذلك العدد الضخم الذى ألفه من المسرحيات فقد عرف عنه أنه ألف سبعين تراجيديه وعشرين درامه هجائيه ، ولم يبق من هذا العدد الكبير سوى سبع مسرحيات هى : ١ - المستعطفات *Les suppliantes* ؛ ٢ - الفرس *Les perses* ٣ - الرؤساء السبعة أمام طيبه *Les sept chefs devant thébes* ، ٤ - بروميتيه فى الأغلال *Prométhée enchainé* ، ٥ - أغاممنون *Agamemnon* ، ٦ - الساقيات *Les choéphores* ، ٧ - الخيرات *Les Euménides* فى نخب الآلهة

سوفوكل Sophocle [1] والغنائى منه ممثل فيما تركه سيمونيد Simonide [2]

---

[1] ولد سوفوكل Sophocle سنة ٤٩٧ أو ٤٩٥ ق.م فى ضاحية من ضواحى أتينا اسمها Colone من أسرة ميسورة الحال لا تصل فى الجاه ولا فى المكانه الاجتماعية إلى أسرة إيشيل . ومنذ صغره اتجه إلى الدراسات الأدبية وخصوصا الأدب المسرحى وإلى الموسيقى، ولقد صادف فى شبابه فوزين : أحدهما حينما رأس فرقة موسيقية وهو لم يتجاوز خمسة عشر أو سبعة عشر عاما على الاكثر للاحتفال بالنصر فى موقعة سالامين Salamine والثانى حينما دخل فى مسابقة أدبية مسرحية مع أيشيل فانتصر عليه وهو فى سن التاسعه والعشرين بل ربما فى سن السابعة والعشرين . ومنذ ذلك التاريخ يمضى سوفوكل فى نفس المنهج المسرحى الذى رسمه من قبله أيشيل ونعنى بذلك الانتاج للمسرح التراجيدى ، ويبقى كذلك حتى يموت فى سنة ٤٠٥ ق.م ومما يدل على عظمة سوفوكل فى هذا الآنتاج أن الفوز لم يتخلف عنه فى كل المسابقات الأدبيه التى دخل فيها وهى عشرون مسابقه ، وأقل فوز أحرزه فى هذه المسابقات أنه كان الثانى بين المتسابقين ، ولم يعرف مثل هذا الشاعر آخر بين شعراء الاغريق المتسابقين . واذا كان سوفوكل قد أثبت تفوقه على ايشيل فى الكيف فأنه قد أثبت تفوقه عليه أيضا فى الكيف فقد ذكر مؤرخو الأدب الأغريقى انه ألف عددا من المسرحيات لا يقل عن ١١٥ مسرحيه فى فن التراجيدى وربما وصل هذا العدد الى ١٢٠ . من هذه المسرحيات :

[2] يعتبر سيمونيد Simonide أيضا من أعلام الشعر الغنائى بين الأغريق . ولد حوالى سنة ٥٥٦ ق م فى جزيرة صغيرة من جزر الأغريق اسمها Ceos . وفى سن الثلاثين جاء الى اثينا ليتصل بأدبائها وقد تم له ذلك غير أن أقامته فيها لم تدم طويلا فتركها الى تيساليا وبقى هناك حتى شبت الحرب الميديه فعاد ثانيه الى اثينا وهناك بدأت شهرته ترتفع على حساب الشعر الذى بدأ ينظمه فى رثاء القتلى من الأغريق فى موقعة - ماراتون - بل ان هذا الرثاء كان نفسه سببا لاتصاله بالرؤساء وبقى فى أتينا ينعم بتلك الصلة وبما كان يحظى به من شهرة أدبيه حتى بلغ الثمانين من عمره ، وحينئذ ترك أتينا وذهب الى صقليه وهناك اتصل بأكثر الشخصيات =

= حتى بملك سيراكوز وبقى هناك حتى مات حوالى سنة ٤٦٧ ق.م . وقد نظم سيمونيدعددا كبيرا من القصائد المتنوعة فى الشعر الغنـــائى : نظم فى الرثاء ، وفى الهجاء وفى الغزل ، وفى غير هذا وذاك كالمدح والوصف ، ولكن لم يوجد من كل شعره سوى بعض مقتطفات من قصائده .

(١) يعتبر بندار *Pindare* الشاعر الأول من بين أصحاب الشعر الغنائى عنـــد اليونانيين . ولد سنة ٥٢١ ق.م فى المنطقة الجبلية من مقاطعة ثيساليا الواقعة فى شمال بلاد الأغريق بالقرب من مدينـــة طيبه . وفى سن مبكرة قد اتجه إلى ممارسة الشعر الغنائى ، وهناك أسطورة تقول إن الآلهة قد منحته هذه الموهبه منـذ صغره ، إذ أن جماعة من النحل استقرت على شفتيـه وهو نائم وصنعت عليها شهداً . ولم يكتف بندار بالدراسات الأدبية فى مقاطعتـــه ، وإنما ذهب إلى أثينا ليتصل بأدبائها وعلى الخصوص بشعرائها ، وهناك تفتحت مواهبـه ولفت اليه الأنظار بسرعة فتقرب من الأمراء والحكام ليس فى شبه جزيرة اليونان فقط وإنما فى صقلية وفى شمال أفريقيا أيضاً . ولقد كان من نتيجة تلك المكانه الأدبيه التى اكتسبها بندار فى حياته واستمرت مقرونه باسمه بعد موته أن أمر الاسكندر الأكبر جيوشه أثناء حصاره لمدينـة طيبه بأن لا يمسوا بأذى منزل بندار ، وهكذا حفظ منزل الشاعر مما تعرضت له أحيـــاء طيبه وبيوتها أثناء الحصار وبعده .

ولقد خلف بندار ثروة هائلة من الشعر الغنائى يقـال أنها كانت تشتمل على ١٧ ديوانا كبيراً من الشعر ، ولسوء الحظ لم يبـق منها سوى أربعـة . وأهم الصفات التى يتحلى بها شعر بندار هى : الجرأة فى التفكير وفى اختراع الصور البيانيه فلم يكن عالة على السابقين ، والموسيقى الكاملة فى الجمل والسمو فى الأســـلوب ، ثم الخيال الواسع والاكثار من هذه الصور البيانيه ، وبقى بنـدار محتفجا بمكانته الأدبيـة بين معاصريه حتى مات فى سنة ٤٤١ ق.م .

وأما الفن فكان ممثلا فى صور عديده كلها تنشد الكمال . ولم يقف أمر هذا الفن ، وخصوصا ما كان منه فى ميدان النحت والتصوير ، على الدقة والأجادة فى تصوير الواقع المادى ، وأنما تجاوز ذلك إلى المعنويات وراح يتخيلها ويبرزها فى مثلها العليا كالمثل الأعلى للبطولة ، والمثل الأعلى للحكمة ، والمثل الاعلى لكمال الجسم الرياضى وهكذا دواليك بالنسبة لكثير من المعانى . وهناك قصة طريفه لا نرى بأسا من ذكرها هنا فهى تلقى بعض الضوء على قيمة الفن الاغريقى وعلى مبلغ ما وصل اليه من درجات الكمال : يروى لنا الكاتب اللاتينى - بلين القديم *Pline-L.* - خبر مباراة فنية أقيمت بين فنانى الاغريق والصورة التى يقدمها هذا الكاتب عن تلك المباراة ، إن هى إلا مثل من أمثلة عديدة لما كان يصنعه الاغريق قديما فكثيراً ما كانوا يقيمون هذه المباريات فى مواسم خاصة للنهوض بالانتاج الادبى والفنى ، وكثيراً ما كان الناس يأتون من بلاد بعيدة ويتحملون مشاق السفر أياما وليالى لحضور هذه المباريات والاحتفاء بمن يحرز فيها قصب السبق . وبالرغم من ضآلة القيمة المادية للمكافآت التى تمنح للفائزين إذ أنها كانت فى كثير من الاحيان غصنا من أشجار الزيتون أو تاجا من أوراقها ، نقول بالرغم من ضآلة القيمة المادية لمكافآت الفائزين فأن قيمتها الادبية كانت ذات جلال وعظمة بحيث تعد فخراً لاسرة الفائز أو لقبيلته وللمدينة أو المقاطعة التى نشأ فيها ، بل أن فخر هذه المكافأة كان يورث فيقال فلان ابن فلان المتوج فى مباراة كذا أو الفائز فى مسابقة كذا . وكان للاغريق قديما غرام شديد بهذه المسابقات وولع عظيم بأحراز النصر فيها ، وكانت لديهم بجانب المباريات الفنية مباريات فى الرياضة بأنواعها على نحو ما نجده الآن فى كثير من الدول ، ومباريات فى الشعر على

مثال ما عرفناه عند العرب قديماً من أمر المعلقات لا فى أجادة الشعر ونظام التحكيم فحسب بل وفى تسجيل القصائد وتخليدها بالكتابة على جدران المعابد .

يذكر الكاتب اللاتينى [1] أن تلك المباراة الفنية التى أقيمت بين رسامين أغريقيين هما : زيوكسيس *Zeuxis* وپاريزيوس *Paresius* وأعلن عن موعدها بين أفراد الشعب وجاء الناس من كل صوب لحضورها وأخذ المحكمون أمكنتهم الخاصة ، وبدأ أحد الفنانين يكشف عن أثره الفنى فأذا به عنقود من العنب بلغ من دقة الصنع وكمال الانسجام وقوة التعبير عن الواقع درجة جعلت العصافير تهوى إليه وتنقره بمناقيرها ظنا منها أنه عنقود حقيقى من العنب . ثم تقدم الفنان الثانى وكشف عن أثره الفنى ، فأذا به لوحة لامرأة تختفى وراء نقاب فطلب الفنان الأول من زميله أن يرفع النقاب عن التمثال حتى يراه المحكمون والنظاره ، فقال صاحب اللوحة لزميله : إذهب إليها بنفسك وارفع النقاب عنها ، فذهب وحاول رفع النقاب ولكن شد ما كانت دهشته حينما وجد أن النقاب ليس إلا جزءا من الصورة فأعلن فى صراحة فوز خصمه واستحقاقه للمكافأة قائلا : لقد استطعت بفنى أن أخدع العصافير أما أنت فقد استطعت أن تخدع فنانا مثلك .

ثم يستطرد الكاتب اللاتينى فيذكر أيضا بعد هذا مباشرة قصة أخرى عن الرسام زيوكسيس إذ يقول ان هذا الفنان قد رسم فى مرة أخرى لوحة

---

[1] انظر ص ٤٨٩ من المجلد الثانى ، الكتاب الخامس والثلاثين ، الفصل العاشر ، من كتابه التاريخ الطبيعى :

Page 489. volume II. livre 35. chapitre 10. Histoire naturelle; Collection Nisard

موضوعها غـــلام يمسك بيده عنقوداً من العنب ثم عرضه فجاءت العصافير تنقر فى حب العنب ، ولكنه تقدم بعد لحظة إلى لوحته غاضبا محنقاً لعدم إجادته اللوحة ، ولما سئل أجاب : أننى أجدت تصوير عنقود العنب ولكننى لم أجد تصوير الغلام ، فلو أن الغلام كان يحاكى الطبيعة كما حاكاها عنقود العنب لخشيته العصافير ولما جاءت تنقر حب العنب فى يده .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الآثار النثرية وجدناها ممثلة تمثيلا واضحاً فى التاريخ والجغرافيا والطب ، فقد جاء التاريخ :

وهو ، بدل أن يتناول ذكر ملوك بابل أو أشور فى صور أقرب إلى الجفاف والملل ، يشتمل على قصص طويل فيه تحليل وفن ، ويتناول شعوب العالم المعروف إذ ذاك ، والذى يمثل هذا الفن هو هيرودت *Hérodote* [1]

وجاءت الجغرافيا غزيرة المادة ، واسعة الأفق ، واضحة المنهج ، لا كما كانت عند البابليين والأشوريين قاصرة على وصف السماء وما فيها من كواكب وتخطيط لبعض المسالك التجارية بين آسيا الصغرى ووادى دجله والفرات ، وهى ممثلة فيما تركه هيكاتيه *Hecatée* [2]

وجاء الطب مع كثير غيره من المعارف اليونانية مستكمل البحث واسع التجارب .

وهكذا تبدو بلاد الإغريق كبوتقة تصهر فيها المعارف البدائية التى كان يحملها إليها اليونانيون الجوالون فى بلاد الشرق ثم تردها إلى الشرق بدورها سبائك متماسكة الأجزاء خلابة الرواء . ولعـــل أهم مظهر وأوضح خاصة

---

(١) انظر كتابنا عن العراق ص ٩٣ - ٩٤

(٢) انظر كتابنا عن العراق ص ٩٢ - ٩٣

للأغريق فى صهر هذه المعارف الأولية وتصويرها فى سبائك جديدة هو فلسفة تلك المعارف ، أى التعمق فى تحليلها والأمعان فى إبراز نتائجها ، ثم اخضاعها للبراهين الثابتة وذلك عن طريق المقاييس العقلية أو المنطقية . وهذه هى أصالتهم التى لا نستطيع أن نشك فى نسبتها إليهم . وهكذا لم تجد الثقافة الأغريقية عناء فى أن تعلن عن نفسها ، وتدعو الشعوب الأخرى إلى أن ينهجوا سبيلها ، ولم يجد الشرق كذلك عناء فى أن يتآلف معها ويتأثر بها ولقد ظهرت ثمار ذلك فى الشرق نفسه قبل الميلاد وبعد الميلاد وحتى فى أيام النهضة العلمية الاسلامية تحت حكم الدولة العباسية . وبعد فإن هذه البيئة العراقية التى كانت على مثل هذه الصلة من الثقافة الأغريقية لابد وأن يكون لها أثرها البعيد فى الحضارة الاسلامية .

وإذن فينبغى على الباحث فى فروع المعارف الاسلامية ألا يجد شيئا من الغرابة حينما يرى طابع العقلية الاغريقية رصدى مناهج البحث عند الاغريق فهو حين يرى ظهور العلوم العربية ناضجة فى فترة قصيرة من الزمن لا تتناسب مع ما ينبغى من الوقت لنشأة العلم ونموه يجب عليه أن يدرك فى نفس الوقت أن منهج البحث فى تلك العلوم كان معروفا فى بيئة العراق . وهو حين يرى مقاييس المنطق وفلسفة المعارف قد ظهرت مبكرة فى أوليات هذه العلوم العربية كالتعليلات فى علم النحو والجدل العقلى والبرهان المنطقى فى علم الكلام والقياس الفلسفى والافتراضات العقلية أو الوهمية فى علم الفقه يجب عليه أن يدرك فى نفس الوقت أن ذلك كله كان صدى للفلسفة الأغريقية التى كانت مدروسة ومعروفة فى بيئة العراق . ومن هنا نلمس مرة أخرى إحدى النتائج التى قصدنا إليها من وراء هذا البحث وهى الكشف عن جذور المعارف الأسلامية ، وفهم تلك المعارف ، ورد مايمكن رده منها إلى أصوله الأولى .

اللون الثالث هو لون الحضارة الرومانية :-

قد يبدو غريبا لأول وهلة أن نتحدث عن الحضارة الرومانية فى بيئة العراق ، إذ أن كتاب الشرق ومؤرخوه قد أهملوا ماكان هناك من صلات متبادلة بين الروم وسكان وادى الرافدين ، ولكننا حين ندرس هذه الصلات تحت ضوء عاملين هامين ، هما عامـــل السياسة ، وعامل الدين ، نجد أنه لا مفر من التعرف ، ولو قليلا ، على الخطوط الرئيسية للحضارة الرومانية ، ومن هذا ندرك كم كان لهذه الحضارة من أثر ، ولو من طريق غير مباشر فى بيئة العراق ، وبالتالى فى بعض نواحى الحضارة الاسلامية وفى العقلية العربية أو الاسلامية بوجه عام التى ساهمت بنصيب كبير فى نشأة تلك الحضارة ونموها . لقد قيل إن الفقه الاسلامى قد تأثر ، ضمن ماتأثر به ، بالقانون الرومانى وخصوصا مسائل الرقيق وما يتعلق بها من بيع وشراء وعتق ومكاتبة وولاء وأرث وارتكاب جرائم ، وقيل إن هذا الاثر واضح فيما اثر عن الأوزاعى من أحكام وآراء ، وعزى ذلك الاثر إلى البيئة التى نشأ فيها الاوزاعى . ونحن مع ترجيحنا لوجود هذا الأثر فى الفقه الاسلامى نقرر أننا قد استطعنا أن نلمس خلال اطلاعنا ودراستنا للحضارة الرومانية وما فيها من آثار علمية وأدبية وقانونية تشابها يلفت النظر بين هذه الحضارة وبعض الاتجاهات فى الحضارة الأسلامية وعلى الخصوص فى الميدان الأدبى والميدان الاجتماعى الذى يمس العقيدة . أما مايختص بالميدان الأدبى فقـــد لاحظنا تشابها واضحا بين شعـــر الغزل الذى يصور بيئة بغداد وحاناتها وملاهيها ومجتمعاتها وشعر الغزل فى بيئة روما ، وقد لاحظنا التشابه أوضح وفى محيط أضيق بين بشار وشاعر لاتينى اسمه أوفيديوس *Oviduis* من شعراء

القرن الأول الميلادى ؛ إذ أن شعر كل من الشاعرين فى الغزل وفى تصويره اللذة والمتعة وفى الدعاية لذلك وفى النتائج الاجتماعية المترتبة على هذا الشعر نقول أن شعر كل واحد من الشاعرين فى هذا الميدان يكاد يكون صادراً عن منبع واحد ومتجها إلى هدف واحد ؛ وتعالوا بنا نقرأ شعر بشار فى الغزل وتصويره للمرأة وتهالكه عليها ودعوته الشبان إلى تتبعها والإلحاح فى طلبها وعدم اليأس من رفضها ، ثم لننظر فى النتائج المترتبة على ذلك من سخط الطبقة المتدينه أو المحافظة فى البصرة وفى بغداد من ذلك الشاعر الماجن ومن شعره الخطر على الشبان وعلى النساء معاً ، ومن الجهر بالشكاية من ذلك والاستعانة بأولى الأمر والسلطان لكى يتخلص المجتمع من براثن ذلك الشر المؤكد ؛ ثم لنقرأ سويا هذين البيتين على الخصوص من شعر بشار

لا يؤيسنك من محجبة ∴ قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة ∴ والصعب يمكن بعد ما جمحا [1]

ولننتقل بعد ذلك سويا إلى ديوان صغير فى الشعر الغزلى نظمه أوفيديوس باللاتينية تحت عنوان « فن الحب » حيث يصور فيه المجون فى مدينة روما

---

[1] ويروى بهذه المناسبة أن أحد الشعراء قال : دخلت على بشار الأعمى وبين يديه مائتا دينار فقال لى : خذ منها ما شئت . أو تدرى ما سببها ؟ فقلت لا . قال جاءنى فتى فقال لى أنت بشار ؟ فقلت نعم . فقال إنى آليت أن أدفع إليك مائتى دينار وذلك أنى عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلى فهممت أن أتركها فذكرت قولك :

لا يؤيسنك من محجبة * قول تغلظه وان جرحا

عسر النساء إلى مياسرة * والصعب يمكن بعد ما جمحا

فعدت اليها فلازمتها حتى بلغت حاجتى .

ويحلل فيه طبيعة المرأة وتهالكها على المتع الرخيصة ويدعو الشبان إلى تتبعها والإلحاح فى طلبها وعدم اليأس منها إن هى أظهرت جفاء أو امتناعا فتلك صنعة حذقتها المرأة ويلذ لها أن تمارسها دائما ، ثم هو بعد ذلك يرسم للشبان الخطط للفوز بها والنيل منها فيدلهم على الأماكن التى تتردد إليها المرأة كالحدائق العامة والمعابد ، ويرشدهم إلى الوسائل الشيطانية للحديث معها ولأغرائها ثم لايقف عند هذا الحد بل يتتبعهم فى خلواتهم الأثيمة فيصف كل مايمكن أن يدور بين الرجل والمرأة فى تلك الخلوة وصفا ماديا دقيقا جريئا مكشوفا ولننظر فيما بعد فيما ترتب على نظم هذا الديوان من تفشى الفاحشة وسخط الطبقه المتدينة المحافظة واستغاثتها بالأمبراطور أوغسطس لكى ينقذ مجتمع روما من ذلك الفساد بنفى الشاعر أوفيديوس ، وقد فعل . ولنقرأ أخيرا هذه الأبيات من شعر هذا الشاعر فى ديوان « فن الحب »

« ولتكن متأكدا قبل كل شىء أن عسر النساء جميعا إلى مياسرة ؛ إن فى استطاعتك الفوز بهن ، فامدد فقط شباكك . . . وإذن فتقدم ولاتشك فى الفوز بهن ، ففى الألف منهن ربما لاتجد واحدة تستعصى عليك ، وسواء قبلن أم امتنعن فانهن يحببن دائما أن يغازلن ، وحتى لو نأت عنك ودفعتك فليس فى ذلك من خطر عليك ، وأما فيما يختص بالميدان الاجتماعى فقد لاحظنا كذلك تشابها بين طريقة استفتاء المسلمين لصحف القرآن وآياته وطريقة استفتاء المسيحيين بنصوص ديوان الشاعر اللاتينى ، فيرجيل ، وأشعاره [1] .

---

[1] كان المسيحيون حتى العصور الوسطى إذا شغلتهم فكرة أو أرادوا الأقدام على أمر ما لجؤا إلى ديوان فيرجيل أو ملحمته المعروفة بالأينياده ففتحوا هذه الملحمة عن طريق الصدفة وبدون تفكير ثم قرأوا أيضا ما تقع عليه أعينهم من الأبيات الشعرية دون بحث أو امعان نظر ، ومن معنى ما يقرأون من الشعر يأخذون =

وهذه أشارات بسيطة ولكن مغزاها بعيد . وقد يقال فى هذا الصدد بمناسبة وجود أوجه شبه بين بعض اتجاهات الحضارة الأسلامية والحضارة الرومانية : إن الأسباب المتشابهة تؤدى إلى نتائج متشابهة ، وهذا صحيح ، ولكن ينبغى أن نقرر أيضا أنه ليس من السهل أن ننفى من أول نظرة أثرا لأحدى هاتين الحضارتين فى الأخرى ، وخصوصا مع ماكان بين هاتين الحضارتين من صلات متبادلة كما سيتبين ذلك بعد قليل . ولقد تعجلنا ذكر هذه النتائج قبل أن نمهد لها ليطمئن القارىء أولا ، ولنزيل من فكره هذه الغرابة التى قد تظهر له بادىء بدء عندما يقرأ عنوان هذا البحث .

وقبل أن نبين العوامل التى كان من أجلها أن وصلت آثار الحضارة الرومانية إلى الشرق وعلى الخصوص إلى بيئة العراق نحب أن نوضح أولا

= فألهم أو يستفتحون على الأمر الذى يشغلهم . وهذا شبيه بما لانزال نراه حتى الآن بين بعض المسلمين بالنسبة للقرآن .

ولعل منشأ هذه العادة عند المسيحيين بالنسبة لفيرجيل هو ماكان يحاط به من هالة التقدير والاحترام بسبب سيرته الطيبه ،ومكانته الأدبية العالية فأصبح المسيحيون يضمونه إلى صفوفهم ، بالرغم من موته قبل مولد المسيح بتسعة عشر عاما ، ويعتبرونه ضمن من تنبأ بمولد المسيح وما ينشره على الأرض من سلام . ذلك أن فيرجيل فى قصيدته الرابعة من ديوانه الشعرى المسمى - بوكوليك - قد تحدث عن مولد طفل يضع حداً لهذه الحروب والآلام ، وينشر السلام على الأرض . ولقد أثارت هذه الفكرة الخيالية من فيرجيل كثيرا من الجدل عند رجال النقد الادبى قديما ورأى فيها كل فريق رأيا ، فرأى البعض أن هذه صورة رمزية لابن أوكتافيوس أو لابن أنطونيو وكليوباتره أما رجال الدين المسيحى فى القرون الوسطى فقد رأوها بنوءة بمولد المسيح ولا يزال فريق منهم حتى الآن يحاول أن يعقد صلة بين فكرة فيرجيل وماكان يجرى فى الشرق من نبوءات بمولد عيسى .

قيمة الفكرة الشائعة عند كثير من الناس ، وهى أن الحضارة اللاتينية أو الرومانية وليدة الحضارة الأغريقيه ، وأن روما مدينة إلى أثينا بكثير من علمها وفلسفتها وأدبها وفنها ومعارفها . هذه الفكرة صحيحة فى ظاهرها إلى حد بعيد إذا نظرنا إلى الثقافة اللاتينية من حيث النشأة ، فان إيطاليا كانت مستعمرة قبل أن تنهض روما سياسيا لكثير من الأغريق وقد استمروا فيها حتى بعد نهضتها ، وأن اللغة الأغريقية كانت منتشرة فى أجزاء عديدة منها وخصوصا فى الوسط وا نوب ، وأن أوائل المثقفين من رجال العلم والأدب فى روما كانوا إما من الأغريق أنفسهم وإما من تلاميذهم ، وأن أول الانتاج الأدبى فى روما كان صورة من الأدب الأغريقى ، إما ترجمة مباشرة وأما تقليدا دقيقا فى الموضوع وفى المغزى . ولكن هذا الحال لم يلبث أن يزول ، وسرعان مانجد روما تستقل ثقافيا كما استقلت سياسيا وتشق لنفسها طريقا فى الحضارة كما شقت لنفسها طريقا فى السياسة ، ونجد الرومانيين يأخذون فى الثقة بأنفسهم والاستقلال بأفكارهم والتغنى بآثارهم ويستقون موضوعاتهم الأدبية من بيئتهم ومن مجتمعهم ، ولايقفون عند هذا الحد فقط بل يقومون بالدعاية ضد الأغريق وأدب الأغريق وفلسفة الأغريق وعلماء الأغريق فى روما فيطردونهم منها ويحرمون دخولهم فيها . وهنا تبرز الشخصية الرومانية ، وتظهر العقلية الرومانية ، وتتكون الحضارة الرومانية المختلفة عن الحضارة الأغريقية فى كثير من المعانى والمعارف والاثار ، فالأدب اللاتينى يكاد يكون رومانيا خالصا يصدر فى روما ويستمد موضوعاته من مجتمعها أو من البيئات الايطالية ، ويتحدث إلى الرومانيين ، وتغلب عليه روح الجد ويتحكم فى كثير من صفاته التحفظ ، ولعل أوضح دليل على ذلك هو ما أحدثه ديوان الشاعر أوفيديوس ، الذى تحدثنا عنه منذ قليل ، من رد

فعل فى روما وفى المجتمع الرومانى ، هذا والآثار الأدبية بوجه عام لم تكن سوى صدى لتلك النزعة القومية الجادة ، وصورة لهذا الروح القوى الوثاب فهو أدب مادى واقعى يردد فى كثير من الأحيان رغبات الشعب الرومانى ويرسم فى جملته ميول ذلك الشعب وأهدافه التى يرمى إليها من سيادة روما سياسيا ودينيا وأدبيا .

وأما الفلسفة اللاتينية ، إن ساغ لنا الاعتراف بوجود فلسفة لهم فهى كذلك تصوير لذلك الروح العام عندهم . فلسفة واقعية مادية أيضا ، وهى وإن كانت فى جوهرها ترديد لما كان يصدر عن فلاسفة الأغريق من مذاهب ومبادىء وآراء إلا أنها اتسمت بطابع جديد يشبه نفس الطابع الذى اتسمت به دراسة الفلسفة فى جامعة الاسكندرية بالنسبة للفلسفة الأغريقية ، ونعنى بذلك الطابع هو مذهب الاختيار ، بمعنى أن تدرس المذاهب الفلسفية على اختلافها ثم يختار منها مايلائم العقل ويتمشى مع البيئة والمجتمع ، وذلك مثل مذهب أبيقور ، الذى كان يدعو إلى الاستمتاع بملاذ الحياة ومتعها ولكن عن طريق العقل المثقف المهذب ، ومذهب زينون ، الذى كان يدعو إلى التقشف فى الحياة والزهد فى ملاذها وتقوية سلطان العقل على أهواء العواطف ؛ فان المذهب الأول لم يصادف فى روما ما صادف المذهب الثانى من رواج اللهم إلا بين الطبقة الخليعة . وكذلك لم ترج فى أوساط روما مبادىء الفلسفة التى كانت تتصدى للبحث عن الحقيقة المجردة . وهذا هو ما يميز الفلسفة اللاتينية عن الفلسفة الأغريقية ، وهى بهذا الاعتبار عند الرومانيين كانت تهدف بدورها فى أغلب الاحيان إلى بناء المجتمع وتقويمه والعمل على نفعه المادى أولا وقبل كل شىء . ولذلك فان هذه الفلسفة اللاتينية قد تسربت إلى كثير من رجال الأدب اللاتينى وأشربت بها نفوسهم

لدرجة أن بعض آثارهم الأدبية قد اصطبغت بروحهـــا ومبادئها مثل آثار هوراسيوس *Horatius* [1] من الشعراء ،

---

[1] تعتبر حياة هوراسيوس *Horatius* صورة لما كان يحدث كثيراً بالنسبة لأعلام الأدب اللاتينى فأن الكثير منهم كان إما أجنبيا وإما من طبقة الشعب البسيطة ولكن بواسطة مجهودهم الخاص كانوا يصلون إلى مكانة اجتماعية مرموقة ، ولهذا كان التشابه واضحا تماما بين الحضارة الرومانية والحضارة الإسلامية أو بين بغداد وروما

ولد هوراسيوس سنة ٦٥ ق م فى مدينة صغيرة اسمها فينوز *Venous* بالقرب من المقاطعة الإيطالية المعروفة باسم - أبولى - من والدين متواضعين ؛ إذ كان أبوه رقيقا قد حرر ولكنه استطاع أن يكسب ثروة لا بأس بها من عمله ؛ فكان يعمل كمحصل فى بيوع « المزاد » . ولقد حاول جهده أن يخلق من ابنه شابا مثقفا فبعث به إلى روما وبعد دراستـــه الطويلة فيها أرسله إلى أتينـــا ليتوج دراساته شأن الارستقراطيين وأولاد الأثرياء من الروم ، وهناك ينضم إلى جيش قتـــلة قيصر المدافعين عن النظام الجمهورى فى روما ولكن هذا الجيش يهزم ويقضى عليه فيعود هوراسيوس إلى مدينته خائفاً يترقب الشر من وقت لآخر فيجد ثروته قد ضاعت . وبعد أن تهدأ الأمور يذهب إلى روما ليجد عمـــلا يعيش منه ، وهنـاك يعاونه أحد أصدقائه القدامى المخلصين فيحصل له على وظيفة بسيطة تكفى لضروریاته ، ولعل سوء الحال الذى وصل اليه أمره مع ما بذله من جهد فى التعليم والتثقيف قد جعله يتبرم بالحياة ويسخط على المجتمع . ومن هنا يجد هوراسيوس فى نفسه نزوعا إلى قول الشعر الهجائى فيطلق العنان للسانه ، ويشتهر به أمره ويكون ذلك سببا فى تعرفه بالشاعر فيرجيل الذى كان يومئذ على صلة بالامبراطور أوغسطس ؛ وحينئذ يتغير مجرى حياته : يتصل برجال الدولة الذين يحاولون أن يجعـــلوا منه قيثارة لسياستهم وأعمالهم كما صنعوا بفيرجيل من قبله ، ويخالط الندوات الأدبية فيتعرف بأكبر الشعراء والكتاب ، ويقيم فى « فيلا » خارج العاصمه ، شأن الأرستقراطيين من الروم ، قد منحه إياها مايسيناس *Maecenas* ، أحد رجال الدولة . غير أن هذه الحياة =

وسيسيرون [1] من الخطباء ،

= الاجتماعية الصاخبة لم تستهوه طويلا من الزمن ، فيتبرم بالمجتمع ، ويضيق حتى بالأصدقاء ، ويميل إلى العزلة بشكل عجيب ، وإذن فأننا نراه يذهب الى جنوب إيطاليا لقضاء فصل الشتاء ، ثم يعود إلى منزله القروى الهادىء ، وقلما يذهب إلى روما . ونتيجة ذلك أنه وجد فى الفلسفه خير صديق فانفرد به وأنس إليه حتى مات سنه ٨ ق.م

كانت الفلسفة كما ذكرنا رائدة هوراسيوس فى تفكيره وفى خياله فانصبغ بها شعره وظهر فيه طابعها ظهورا واضحا وهذه الفلسفة التى تملكت على مشاعره كانت الفلسفة الأبيقورية ، الفلسفة الداعية إلى المتعة على شرط ألا تجانب هذه المتعة طريق العقل وألا تنحرف بالأخلاق .

ولقد نظم هوراسيوس الشعر فى نوعين : الشعر الغنائى ، والشعر التعليمى ، فمن النوع الاول نجد له مجموعة من القصائد تسمى *Epodes* ، ومجموعة أخرى تسمى *Odes* وهاتان المجموعتان فى أربعة دواوين ؛ ثم نجد له ديوانا آخر تحت عنوان

Carmen - saeculare

وأما الشعر التعليمى فنجد له منه مجموعة من القصائد الهجائية تحت عنوان *Satirae* وهذه المجموعه فى ديوانين ومجموعة أخرى فى ديوانين أيضا تحت عنوان *Epitres* ، ثم ديوانا صغيراً يسمى الفن الشعرى *Ars poetica* وكل هذه الدواوين موجوده ومشروحه ومترجمه إلى أغلب اللغات الحية .

[1] يعتبر سيسيرون أعظم خطيب رومانى دون منازع ، ولا ينافسه فى هذه المكانة إلا خطيب يونانى اسمه ديموستين على أن سيسيرون يمتاز عليه كثيرا فى الكم وفى المواهب الطبيعية الجسمانية التى ينبغى أن تتوفر للخطيب . ولد سيسيرون فى مدينة صغيرة فى الجنوب من روما اسمها أربينوم *Arpinum* سنة ١٠٦ ق. م .

وكان أبوه من طبقة الفرسان ، وقد انتقل إلى روما ليشرف بنفسه على تعليم ولديه : ماركوس (سيسيرون) وكانتوس . ولم يترك سيسيرون فرعا من الدراسة إلا تمسك به وأخذ منه بنصيب : لغه ، قواعد ، بيان ، أدب ، علوم ، فلسفة ، قانون ،

= ثم انه ذهب فيما بعد إلى أتينا ليدرس الفلسفة الإغريقية فى منبتها ويتصل بأكبر الفلاسفة إذ ذاك . وقد رشحته هذه المعرفة الواسعة ، والاتصال المباشر بالبيئات العلمية الأجنبية لأن يكون أحد رجالات روما البارزين فى نحو نصف قرن تقريباً ، ولهذا فأنه من الصعب أن نترسم أطوار حياته ، إذ أن ذلك هو تاريخ حياة الدولة الرومانية نفسها وما تعرضت له من أكبر انقلاب سياسى ، ونعنى بذلك هو انتقالها من الحكم الجمهورى إلى الحكم الدكتاتورى أو الأمبراطورى . وقد تنقل سيسيرون فى مناصب الدولة حتى وصل إلى وظيفة قنصل . وقد بقى سيسيرون فى أغلب حياته من أكبر المدافعين عن النظام الجمهورى بالرغم مما جره عليه هذا الدفاع من أذى ؛ فقد اضطهد من أعداء هذا النظام ، ثم نفى . وأخيرا قتل فى سنة ٤٣ ق.م .

ومهما تكن أهمية الدور السياسى الذى لعبه سيسيرون فى روما فأن شهرته الحقه جاءته من مقدرته البيانية فى الخطابة سواء أكانت خطابة قضائية أم سياسية ، بل أننا نستطيع أن نقول أنه لم يكن موفقا فى سياسته إذ أنه ارتكب غلطة سياسية جرت عليه كثيرا من الضرر ، ذلك أنه ناصر قيصر فى سياسته الدكتاتورية على حساب الجمهوريين يوم كان قيصر الحاكم بأمره فى روما ، ثم أنه انقلب على سياسته بعد مقتله ؛ وسواء أكان ذلك لمجاراته لسياسة القوى أم لأن أخاه - كانتوس ، كان من أكبر الضباط فى جيش قيصر فأن هذا التحول قد كان نقطة ضعف عند سيسيرون لم يخفف منها سوى ما كان يمتاز به من وطنية وشهرة أدبية .

ويهمنا أن نعرف هنا أن دراسة سيسيرون للفلسفة وإنتاجه فيها صبغ آثاره صبغه قوية ، بل أنه كان من أصحاب المذاهب فيها ، إذ قد عرف عنه أنه من أصحاب مذهب الاختيار ، أى تخير ما يروق له وما يتفق مع طبيعته من المذاهب الفلسفية القديمة .

وقد بلغت مؤلفات سيسيرون نحو السبعين مؤلفا تناولت السياسة ، والبيان ، واللغة ، والدين .

وسينيكا *Seneca* [1] من الكتاب .

---

[1] إن حياة هذا الأديب الفيلسوف تصور لنا حلقة من سلسلة حياة القصور ، ونعنى بها قصور الأباطرة أوقصور الملوك .

ولد سينيكا *Seneca* فى مدينة قرطبة من أسبانيا فى سنة ٤ ق.م ، وجاء إلى روما ليدرس فيها الآداب والفلسفة والقانون ، وبعد أن اشتغل بالسياسة وبالمحاماه قليلا انصرف إلى الأدب فذاع اسمه ؛ وهنا نراه على صلة بقصر الامبراطور كلوديوس *Claudius* ؛ غير أن هذه الصلة لم تلبث طويلا حتى جنت عليه جناية أولى فنفته الإمبراطورة ميساليا *Meossalina* إلى جزيرة كورسيكا حيث قضى فيها ثمانية أعوام

وبعد عودته لم ينس حياة القصور فيتصل بالامبراطورة أجريبينا *Agrippina* الزوجة الثانية لكلوديوس التى تعهد اليه بتربية ابنها نيرون ، وهنا لا يقف سينيكا على دور المربى والمعلم لولى العهد فقط وإنما يتدخل شيئا فشيئا فى شئون الدولة ، وهكذا حتى أصبحت أمور الدولة كلها يسيرها سينيكا والامبراطوره أجريبينا وحتى بعد أن تولى نيرون الحكم كان سينيكا هو المنفذ الحقيقى لشئون الامبراطورية . ولكن نيرون عزم على التخلص من الأوصياء فقتل أمه أولا ثم بدأ يتربص بسينيكا . ولما أحس بالمؤامرات التى تحاك من حوله طلب أن يعفى من حياة القصر . غير أن نيرون كان يترقبه ، ولم يمض عليه فى هذه العزلة أكثر من ثلاثة أعوام حتى اتهمه الإمبراطور نيرون بالاشتراك فى تدبير مؤامرة ضده وقضى عليه بأن ينتحر على الطريقة الرومانية ، ذلك أن يقطع شرايينه بنفسه ويترك الدم ينزف منه حتى يموت ، وكان ذلك فى سنة ٦٥ بعد الميلاد . ولعل أهم فرع من فروع الدراسة التى أثرت على سينيكا تأثيرا عميقاً هى الفلسفة ، ولهذا فكان أكثر انتاجه فلسفيا ، ومن هنا كانت شهرته بالفيلسوف . ويمكن أن نعتبره تلميذا لفلسفة زينون *Zenon* تلك الفلسفة التى من أهم مبادئها الصبر والجلد وقوة الاحتمال وعدم المبالاة بالدنيا إن هى أقبلت أو أدبرت . وكل هذه الصفات قدانصبغت بها آثار سينيكا ودعت اليها فلسفته .

ويمكن تقسيم أثار سينيكا إلى مجموعتين : الأولى الآثار الفلسفية وتشتمل على =

وأما القانون الرومانى فانه ، بعد المراحل الأولى فى نشأته [1] ، يصدر بدوره عن الواقع الرومانى والعقلية الرومانية ، وهو كذلك يستلهم المجتمع الرومانى والبيئة الرومانية فى أبحاثه وموارده وتفصيلاته . ولعل خير ما يمثل للقارىء روح هذا القانون هو ما جرى على لسان سيسيرون حينما كان يتحدث عن القانون الرومانى مقارنا بينه وبين القانون عند الأغريق . يذكر سيسيرون أن سولون وهو أكبر مشرع عند الأغريق ، سئل يوما عن السبب الذى من أجله لم يوجد فى القانون الرومانى نص لعقوبة من يرتكب جريمة قتل أحد أبويه فأجاب سولون : لكيلا يفكر انسان فى ارتكابها ، ويعقب سيسيرون على ذلك بما يفيد أن هذا ليس سوى قصور فى نظر المشرعين الأغريق ، ثم يأخذ فى الأشادة بالقانون الرومانى وبما يمتاز به من واقعية وبعد نظر فى التشريعات وأخيرا يذكر نص القانون فى عقوبة كل من يرتكب هذه الجريمة الشنيعة . إن ما تقدم يوضح إلى حد ما الطابع العام للعقلية الرومانية ، وقد ظهر هذا الطابع جليا فيما أنتجه الفكر الرومانى من علم

= كثير من الكتب منها: ١ الله، أو الحكمة العليا التى تسير الكائنات جميعا *de providentia* ٢ قوة الاحتمال *Constantia* ، ٣ الغضب *de ira* ، ٤ السعادة *de vitabeata*

أما المجموعه الثانية فهى الآثار الادبية وتشتمل على قصيدة فى الهجاء وعلى عدد من المسرحيات من نوع التراجيدى : منها : هيركول غاضب ، نساء طرواده ، أوديب ، فيدر .

[1] لقد أثارت نشأة القانون الرومانى كثيرا من الجدل فبعض العلماء يرى أن القانون نشأ فى بيئة رومانية خالصة دون أن يكون له مدد أجنبى ؛ ويرى البعض الآخر أنه استمد أصوله الاولى من القانون اليونانى ؛ ولكن ليس هناك ما يمنع أن يكون قد اعتمد على الناحيتين معا .

وأدب وفن ، وقد قصدنا من هذه الملاحظات أن نلقى بعض الضوء على الحضارة الرومانية كى يستبين لنا بعض الفوارق الجوهرية بين الحضارة الرومانية والحضارة الأغريقية . ولنذكر الآن كيف وصلت آثار الحضارة اللاتينية أو الرومانية إلى بيئة العراق ؟

لم يكن غزو روما لبلاد الشرق فى خلال القرن الأول قبل الميلاد مؤذنا بنقل حضارتها وتأثر الشرق بها عقب الغزو مباشرة وذلك لأسباب واضحة معروفة ، منها أن الشرق لم يكن إذ ذاك فى حاجة إلى الحضارة الرومانية الحديثة العهد ، إذ أنه كان غنيا بحضاراته القديمة من ناحية ، وبالحضارة الأغريقية من ناحية أخرى ، تلك الحضارة التى استطاعت فى زمن مبكر أن بسط نفوذها على كل بلاد الشرق بواسطة مستعمرات الأغريق وما كانت تشتمل عليه من وسائل ممهدة للبحث والدرس ، ومن هذه الأسباب أيضا أن الدولة الرومانية لم يكن من طبعها الاهتمام بالناحية الثقافية كاهتمامها بالناحية المادية ، وكل الذى يعنيها من وراء غزوها وفتوحها هو أن تبسط نفوذها السياسى ، وتستغل موارد البلاد المالية وتنفذ كل مشروع من شأن تنمية الثروة الاقتصادية ، وما عدا ذلك فهو فى نظرها أمر ثانوى . ومن هذه الأسباب أيضا سياسة روما المركزية التى كانت تتبعها مع البلاد المفتوحة بمعنى أن روما يجب أن تكون المركز الأول للأمبراطورية الرومانية من ناحية الأدارة ومن ناحية السياسة ومن ناحية الحضارة ، فالرئيس الأعلى للدولة يجب أن يقيم فى روما والرؤساء الأداريون والعسكريون فى البلاد المفتوحة يجب أن يكونوا موظفين لروما ، وثمار البلاد الفنية والاقتصادية والفكرية يجب أن ترسل إلى روما فكم من كتب قد نسخت فى الاسكندرية وفى انطاكيه وفى برجام لتزيد من ثروة مكتبة روما العلمية ، وكم من آثار

وتحف قد نقلت لتزين مؤسسات روما وميادينها العامـــة ! وكم من علماء أخذوا كأسلاب من البلاد المغزوة ليثبتوا أسس الحضارة فى روما وليرفعوا من مجدها العلمى ؛ ولقد كانت هذه السياسة المركزية بداية لسياسة استعمارية هائلة ، تلك السياسة هى جلب أونياء العهود ورجال الحكم فى المستقبل إلى روما لتنشئتهم أو لأعدادهم سياسيـــا وفكريا لأدارة شعوبهم باسم روما ولمصلحتها هى دون مصلحة تلك الشعوب ؛ وقد لعبت هـذه السياسة دوراً خطيرا فى مستقبل هذه الشعوب ولاتزال هذه السياسة تلعب نفس الدور حتى الوقت الحاضر بالنسبة للمدن والمستعمرات الانجليزية فى مختلف القارات .

لكل هذه الأسباب قد أبقت الدولة الرومانيـة على الأنظمـة الإدارية الفرعية وعلى المعاهد العلمية المنتشرة فى أقطار الشرق دون أن تحاول إدخال شيء من التغيير عليها ؛ وإذن فلم تظهر الحضارة الرومانية فى الشرق إلا فى عصور متأخرة عن فتوحها ؛ وكان ذلك نتيجة لعاملين أساسيين أحدهما عامل سياسى ، والثانى عامل دينى . وسنحاول توضيح كل من العاملين على انفراد أما العامل السياسى فاننا نقصد منه تلك الحروب الطويلة والمتواصلة تقريبـا بين الجيوش الرومانية وبين الفرس ، حكام العراق ثم ماتنج عن هذه الحروب من صلات أدبية ومادية وفكرية وفنيـة . دامت هـذه الحروب بين هاتين الأمبراطوريتين العظيمتين ، المتنافستين على سيادة الشعوب نحوا من ٧٠٠ سنة من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادى ، وكان ميـــدان هذه الحروب فى أغلب الأحيان الأراضى التى تحف بنهر الفرات شرقا وغربا أتاحت هذه الحروب فرصة للرومان بتحصين مجموعة من المدن الهامة فى تلك المنطقة لتكون بمثابة معسكرات دائمة للجنود الرومانيين يعاشرون بواسطتها السكان الأصليين ويختلطون بهم ويتبادلون معهم الأفكار والمعارف ، وأهم

هذه المدن هى : مدينة دفنى فى الشمال الشرقى من أنطاكيه فى سوريا ، ومدينة حران أو الرها ، كما كان يسميها الروم أنفسهم ، الواقعة فى شمال العراق ومدينة آمد التى عرفت فيما بعد باسم « ديار بكر » ومدينة دارا ، ومدينه نصيبين ، ومدينة سنجار ، ومدينه ماردين ، وأغلب هذه المدن كما نرى يقع فى بيئة العراق نفسها . فى خلال هذه القرون السبعة كان الروم إما مستعمرين لهذه المدن ، وإما مستعدين لشن حملاتهم منهـا على الفرس فى الشرق وإما متأهبين لاستردادها بعد أن أجلاهم الفرس عنها . وإذن فمن الصعب أن يتصور المرء هذه الحال فى خلال تلك القرون الطويلة دون أن يتصور مع ذلك أثر الفكر الرومانى والحضارة الرومانية فى بيئة العراق .

ولعل أبرز أثر فى هـذا هو أثر الهندسة المعمارية أو فن البناء عند الروم ، فقد اكتشف العلماء الأركيولوجيون حديثا فى كل هذه المدن التى ذكرناها أو فى خرائبها معسكرات وحصونا ، وقلاعا ، وقصورا وأسوارا كلها قد بنيت على الطراز الرومانى [1].

بل إن هذا الأثر قد تعدى هذه المدن إلى مدن أخرى أبعد مسافة فى داخل بيئة العراق وليس بينها وبين المعسكرات الرومانية صلة ما ، وذلك كمدينة طيسفون (المدائن) العاصمة الفارسية الواقعة على شاطىء نهر دجله بالقرب من مدينة سلوقيه العاصمة الأغريقية ، والقريبة أيضا من موقع مدينة بغداد العاصمة العباسية . فى سنه ٣٦٣ ميلاديه وصل الأمبراطور الرومانى جوليانوس الذى حكم من سنة ٣٦١ إلى سنة ٣٦٣ م ، فى حروبه مع سابور الثانى ، ملك

---

(١) انظر ما كتبه الاستاذ سيتون لويد فى كتابه ـ الرافدان ـ ص ١٤٦ ـ ١٨٤ حيث هذه المدن وآثار الروم فيها .

الفرس إلى مدينة طيسفون مشتتا أمامه فلول الجيوش الفارسية ؛ وهناك يقول مؤرخ الحملة الرومانى أميانوس مارسيلانوس ، أنهم وجدوا فى هذه المدينة العظيمة ذات الطابع الشرقى قصراً قد بنى على الطراز الرومانى فهزت الجنود نشوة الفرح برؤيته ، ولهذا فقد تركوه دون أن يمسوه بأى ضرر . وكان هذا عكس ما صنعوه فى تلك الحملة الحربية من تخريب المدن وحرقها وقتل من فيها على طول الطريق .[1] ثم إن المنقبين قد اكتشفوا منذ قريب الجزء الذى لايزال باقيا من ايوان كسرى العظيم فى مدينة طيسفون ، وقد وجدوا أن هذا الجزء ليس إلا اقتباسا من الفن الرومانى .

وهناك أثر آخر عدا فن البناء وما يستتبعه ، يعتبر نتيجة لذلك العامل السياسى ، الذى نتحدث عنه الآن ، ومساهما بقـــدرما فى تعرف بيئة العراق بالحضارة الرومانية ؛ ذلك هو ماكانت تستلزمه تلك الحملات العسكرية الرومانية من شق الطرق وتعبيدها وحفر القنوات وتنظيفها . ولعل أهم شىء فى ذلك الميدان هو ما قام به نفس الامبراطور الرومانى جوليانوس فى أثنـاء حملتـه المتقدمة من حفر قناة عظيمة تصل نهر الفرات بنهر دجلة بالقرب من مدينة طيسفون وذلك لنقل أسطوله الضخم من الفرات إلى دجله فى أثناء مطاردته للفرس [2].

وينبغى أن نضيف إلى ماتقدم أيضا ماعرف عن أباطرة الروم وقوادهم من اصطحابهم للفلاسفة والعلماء أثنـاء فتوحهم وغزواتهم أسوة بمـا كان

---

(١) انظر ـ الرافدان ـ ص ١٦٩ - ١٧٠

(٢) يذكر سيتون لويد ص ١٦٩ أن هذا الاسطول كان مكونا من ١١٠٠ سفينة نهرية بينها ٥٠ سفينة كبيره مسلحة ، وفى ص ١٧٠ يشير إلى أن الذى حفر هذه القناة ربما كان الامبراطور الرومانى سيفيروس .

يصنعه الأسكندر الأكبر من قبل ، ولهذا أثره الذى ينبغى ألا يهمل بصدد ما نتحدث عنه ودليلنا على ذلك مايرويه المؤرخون من أن الأمبراطور الرومانى جوليانوس حينما أصيب بسهم من سهام الفرس على أثر خلعه لدرعه بالنسبة لشدة الحر - كانت اصابة السهم فى كبده - نقول ، حينما أصيب بهذا السهم ولزم سرير الموت قد ختم حياته بمناقشة فلسفية طويلة مع من كان يصحبه من الفلاسفة [1] .

ومن آثار نفس العامل السياسى أيضا ما صنعه كسرى ، ملك الفرس ، بعد أن أحرق جنده فى إحدى حملاته الحربية ضد الروم مدينة أنطاكيه وهذا الصنيع فى الواقع بعيد الدلالة بالنسبة لتأثر البيئة العراقية بالحضارة الرومانية ؛ ولعل دلالة هذا الصنيع أبلغ من كل ما تقدم : يحدثنا التاريخ أن كسرى قام بهذه الحملة غربا حتى وصل إلى أنطاكيه عل شاطىء البحر الأبيض ، وهناك حاصر المدينة أياما ، ولما امتنعت الحامية الرومانية من التسليم أشعل جنود كسرى النار فى المدينة التى كانت تمثل فى ذلك الوقت الحضارة الرومانية فى الشرق أوضح تمثيل من حيث السكان والآداب والفنون والحياة الاجتماعية ، ولقد حز فى نفس كسرى ما صنعه الجند وخصوصا حينما رأى مظاهر الحضارة الرومانية فى الجزء الباقى من المدينة المنكوبة وهذا جعله يصمم على أن يجمع من بقى من سكان المدينة ويصحبهم معه إلى العراق ويبنى لهم مدينة أخرى تمثل مدينتهم الأولى خير تمثيل ثم ينقل إليها كل

---

[1] يروى أن هذا الامبراطور نشأ فى أحضان الديانه المسيحية ، ولكنه أنكرها فيما بعد وارتد إلى الوثنية ، بل انه عمل على أحياء الوثنية من جديد . وحينما أحس بالموت أخذ قطرات من جرحه الدامى ثم قذف بها نحو السماء قائلا « لقد انتصرت أيها المسيح »

مظاهر الحياة الرومانية والحضارة الرومانية ، وقد فعل ، فأسس لهم مدينة جديدة بالقرب من طيسفون سماها - مدينة كسرى المفضلة على أنطاكيه ، وكان كسرى يقصد من وراء ذلك أن يبعث فى مملكة بابل القديمة مظاهر الحضارة الغربية [1]. وعلينا نحن الآن أن نتصور مدى تأثير هذه المدينه الأجنبية فى بيئة العراق .

وقبل أن نفرغ من الكلام على هذا العامل السياسى ونتائجه القريبة والبعيدة نحب أن نضع أمام القارىء صورة موجزه لهذه الصلات السياسية أو الحربية بين الروم والفرس أو بين الروم وبيئة العراق لكى يدرك فى يسر أن الاحتكاك بين الشعبين كان متواصلا تقريبا ، ومن ذلك يمكن استنتاج أن هذا الاحتكاك بالرغم من مظهره العدائى ، لا بد وأن يترك أثرا فى البيئة وفى الحياة الخاصة والعامه وفى المعرفة والتفكير ، بل ربما كان هذا المظهر العدائى بين الروم وسكان العراق أكثر مدعاة للفت النظر والعناية بكل ما يمكن أن يكون عليه الروم من ثقافة وحضارة : إن أول حرب بدأت بين هاتين الامبراطوريتين كانت حوالى سنة ٥٤ ق.م ، حيث قام جيش رومانى على رأسه كراسوس - *Crassus* ، ثالث الثلاثة الذين اقتسموا الحكم فى روما : أولهم قيصر وثانيهم يومبى . استمر هذا الجيش فى زحفه حتى عبر نهر الفرات ووصل إلى مدينة حران (الرها) ولكنه يغلب على أمره ويقتل قائده بأيدى الفارثيين أيام حكم أورود الأول ، الذى تولى الأمر فيما بين سنتى ٥٧ ، ٣٧ ق.م .

تصل أنباء هذه النكبة إلى قيصر ، وهو الرجل الذى أسس مجده على الحرب والانتصار ، فيحزن لها ويحس بالم عميق من جرائها ويأخذ على

---

[1] انظر الرافدان ص ١٧٨

نفسه الانتقام من الفارثيين ، فيبدأ فى أعداد حملة ، ولكنه قد اغتيل فى مجلس الشيوخ ١٥ مارس سنة ٤٤ ق.م قبل أن تبدأ الحملة سيرها. أما الفارثيون فكان الأمر لديهم غير ذلك ، فأن هذا النصر الذى أحرزوه ضد كراسوس ، وذلك الاضطراب السياسى الذى كان يسود روما قد أغرياهم بالتقدم نحو الغرب ومهاجمة ممتلكات روما ، وهكذا فعلوا حتى وصلوا إلى مدينة اورشليم فى فلسطين . وعندئذ يفزع انطونيوس فى مصر فيقوم من الاسكندرية على رأس جيش لايقاف زحف الفارثيين ، ويشتبك الفريقان ويكون النصر أولا حليف انطونيوس ، غير أنه لم يلبث أن يهزم فيتراجع بعد أن فقد معظم جيشه . وفى عهد الامبراطور أوغسطس نجده يتبع سياسة المهادنة فيعقد صلحا مع الفارثيين ويكتفى بالمحافظة على أملاك روما فى كل المناطق الواقعة غرب نهر الفرات . وهنا نجد روما تلجأ إلى سياستها الخطيرة التى استخدمتها من قبل مع البطالمة فى مصر ومع السلوقيين فى سوريا ، تلك السياسة التى تقوض أركان القومية فى الشرق وتهدم كيان شعوبه : جهدت روما فى وادى دجلة والفرات ، كما جهدت فى غيره من الأقطار سابقا ، فى أن تستحوذ على أولياء العهود أو على رجال آخرين تربيهم فى أوساطها وتنشئهم بين أبنائها حتى أذا ما حان وقت تتويجهم بعثت بهم إلى بلادهم ، وربما توجوا فى حضرة الامبراطور فى روما نفسها ثم عادوا إلى أوطانهم ليحكموا شعوبهم ، وهم فى الواقع ليسوا سوى صنائع الرومان وعملائهم . وها نحن أولاء لا نزال نرى صورة هذه السياسية الخطيرة ترسم وتطبق فى لندن . كان من نتيجة سياسة روما فى وادى دجلة والفرات أن خلقت أولا من قبائل الأرمن الذين كانوا يعيشون متفرقين وفى شبه عزلة سياسية واجتماعيه فى شمال ذلك الوادى وفى غربه ، نقول ، خلقت منهم دولة متماسكة حليفة لتكون شوكة فى جانب الفرثيين وتكأة لتنفيذ

مطامعها السياسية والاستعماريه ، ثم لجأت إلى أخ الملك الفارثى الذى كان يحكم على بيئة العراق انذاك واستدعته إليها وأعدته لتولى الملك فى أرمينية وكان اسمه تيريدات ، وفعلا توجته فى حضرة الأمبراطور نيرون وأعادته ليجلس على عرش أرمينية . والمتتبع لتاريخ روما فى الشرق يجد أن هذا العمل من جانبها كان بمثابة التمهيد لتنفيذ خطة مرسومة ذات مطامع سياسية واسعة ، وأهداف استعماريه بعيدة المدى . بدأت هذه المطامع تظهر جليا ، وتلك الخطة المرسومة تنفذ عمليا فى عهد الأمبراطور تراجانوس ، إذ قام هذا الأمبراطور على رأس جيوشه وتدفق بهم عبر نهر الفرات مطمئنا على مؤخرته ومكتسحا بهم جيوش الفارثيين فى بيئة العراق ، ومخترقا معهم نهر دجلة أيضا ومستوليا بواسطتهم على هذه المدن الآتيه : بابل ، طيسفون ، نينوى . اربل ، كوكميلة ، وكانت هذه هى أهم المدن فى حكومة الفرثيين ، بل كانت العواصم للأقطار المختلفة فى وادى الرافدين ، وبذلك أصبحت تلك الأقاليم مستعمرات رومانية من جديد ، وكان ذلك فى عهد الملك الفارثى خسرو ، الذى حكم من سنة ١٠٦ إلى سنه ١٢٩ م . يموت تراجانوس ويخلفه هادريانوس فيتبع فى بيئة العراق سياسة الامبراطور أوغسطس من قبله ، إذ يترك للفارثيين كل الاراضى الواقعة بين الرافدين ، ويكتفى بالمحافظة على الأملاك الرومانيه الواقعه غرب الفرات ، غير أن هذا الحال لا يدوم أكثر من خمسين سنه إذ تأتى جيوش روما مرة أخرى تحت إمرة القائد - كاسيوس وفى عهد الامبراطور - ماركوس أوريليوس - فتغزوا بيئة العراق ، وهكذا تستمر الحرب سجالا بين الروم والفارثيين فى وادى الرافدين طورا فى جانب هؤلاء وطورا فى جانب أولئك مدة حكم ماركوس أوريليوس ، سبتيموس سيفيرس حتى يتولى أمر الجيوش الرومانية - كاراكالا - بن سيفيروس فينهى

تلك الحروب المتواصلة بين الأمبراطوريتين بمجررة يرتكبها بواسطة خديعة دنيئة ينصب شراكها ضد الفارثيين [1] وبهذا تستمر بيئة العراق تحت حكم الروم مدة آخر ملوك الفارثيين وأوائل حكم الفرس الساسانيين . إن أول ملوك الفرس الساسانيين هو أردشير الأول الذى حكم من سنة ٢٢٤ حتى سنة ٢٤١ م ، وفى أثناء حكمه يدخل فى حرب مع الروم وينجح فى أجلائهم عن العراق الجنوبى والأوسط ، ثم يأتى ابنه سابور الأول من سنة ٢٤١ إلى سنة ٢٧٢ م . فيواصل الحرب على الروم فى شمال العراق وينجح فى اجلائهم أيضا عن بعض مقاطعاته ثم يتوج أعماله الحربية مع الروم بهزيمتهم فى موقعه أديسا (الرها) وأسره للأمبراطور الرومانى - فاليريانوس واستيلائه بعد ذلك على مدينة أنطاكيه وطرسوس وقيصريه ؛ وبذا أصبحت أملاكه تمتد داخل الأناضول . يبقى الأمر على هذا الحال ، بالرغم من المناوشات البسيطة المتكررة بين الطرفين حتى يتولى أمر الفرس نرسيس ، الذى حكم من سنة ٢٩٣ إلى سنة ٣٠٢ م ، فيتجدد النزاع بشكل جدى بين الفرس والروم وتنشب المعارك فى شمال وادى الرافدين بين هذا الملك الفارسى والقائد الرومانى - جاليريوس - فى منطقة حران يكون النصر حليف نرسيس أول الأمر ، ولكن الحرب تنتهى بنصر الجيش الرومانى .

وبعد عهد نرسيس تمضى فترة قصيرة من الهدوء النسبى هى مدة حكم

---

[1] تلخص هذه الخديعه فى أن كاراكالا تظاهر بالولاء للفارثيين ولكى يؤكد هذا الولاء طلب الزواج من ابنة الملك الفارثى ، وأقيمت معالم الزينة للاحتفال بهذا الزواج الملكى . وانتظر كاراكالا بجيوشه خارج مدينة طيسفون ، وعندما خرج من أسوار المدينه سكانها وجيوشها تزينهم حلل الأفراح لمشاهدة هذا الاحتفال أعمل فيهم كاراكالا وجيشه السيف ذبحا وتقتيلا حتى قضى على قوة الفارثين نهائيا .

هرمز الثانى الذى لم تدم إلا من سنة ٣٠٢ إلى سنة ٣١٠ م. ثم يجىء سابور الثانى الذى بقى فى الحكم ستين عاما من سنة ٣١٠ إلى سنة ٣٧٠ م. وبعد ثلاثين عاما من حكمه ، كان أهم ما يشغله خلالها إعداد العدة لمنازلة الروم ، يبدأ حروبه معهم فينتصر الروم فى مدينة سنجار ، ثم ينازلهم فى مدينة نصيبين وتنتهى هذه المعركة الأخيرة بهدنة لم تدم إلا ريثما يعد كل فريق عدته للحرب ثانية ، ويكون البادىء بها سابور الثانى ، فيتجه إلى الشمال ويمر بنصيبين ، التى كانت تضم حامية رومانية لم يسلم من أذاها ولكنه يتغلب عليها ويصل إلى مدينة آمد التى أوقفت زحفه لمدة سبعين يوما لأنه أراد أن يتخلص منها نهائيا ، وكانت كسابقاتها تضم حامية رومانية وعدداً كبيرا من أشراف الروم ، وأخيراً يصل إلى مدينة سنجار فيستولى عليها بعد هدم ما فيها من حصون ؛ وكل ذلك كان تمهيدا للوصول إلى أنطاكيه المركز الرئيسى لتجديد الحملات الرومانية نحو الشرق . ولكن قبل أن يصل إليها كان قد وصل إليها امبراطور رومانى جديد هو - جوليانوس ، الذى تولى أمر الدولة الرومانية من سنة ٣٦١ إلى سنة ٣٦٣ م. وهنا يتغير مجرى الحرب بين الفرس والروم حيث يبدأ هؤلاء بالهجوم تحت قيادة جوليانوس فيعبرون الفرات ويكتسحون الفرس أمامهم على طول الطريق شمالا وجنوبا وشرقا فمن حران إلى نصيبين ؛ ومن ذلك إلى تبساكوس المعروفة باسم - تفساح - ومنها إلى مقاطعة آشور ؛ ومن ذلك إلى مدينة طيسفون ، العاصمة المشهورة على شواطىء نهر دجله ، وهناك فى هذا الجزء الجنوبى من بيئة العراق تتزاحم الكوارث على جيوش الروم فيحرق الأسطول الضخم ، ويموت الامبراطور متأثراً بجرح أصابه من سهم فى كبده ، ويتجمع الفرس المشتتون ويعيدون الكرة على الروم ، الذين أخذوا فى التراجع سريعا إلى الشمال وإلى الغرب .

ثم يأتى الأمبراطور جوفيان ، الذى حكم من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٣٦٤ م فيتدارك الموقف ويمضى معاهدة مع سابور الثانى يتنازل بمقتضاها عن سنجار ونصيبين ، وأرمينية ، ويكتفى بأن يكون الفرات هو الحد الفاصل بين ممتلكات الدولة الرومانية والدولة الفارسية وتبقى الأمور على هذا الحال نحو قرن من الزمن حيث تقل جدا الاشتباكات الحربية ولكن تبقى باستمرار صلات الجوار . وفى عهد قباذ الأول ملك الفرس ، الذى تولى من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٣١ م . تتجدد الحروب مع الدولة الرومانية ، ولكن فى دائرة ضيقة وبنتائج حاسمة ، يلتزم قباذ فيها جانب الهجوم ويقف الجيش الرومانى منها موقف الدفاع ، وأخيرا يفضل قباذ سياسة المهادنة ، وقبل أن تصل المفاوضات بينه وبين الروم غايتها يموت ويترك الأمر لإبنه كسرى الأول أو كسرى أنوشروان ، الذى حكم من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م ، ويلتزم كسرى فى أول الأمر سياسة المصالحة ، التى اتبعها والده مع الروم فى أخريات عهده ، ولكن على أثر نزاع بين المنذر ، أمير الحيرة ، وسكان تدمر فى الجهة الأخرى من البادية بسبب حقوق الرعى يقوم كسرى على رأس جيوشه ويصعد مع الفرات ثم يتجه إلى أنطاكيه فيحاصرها ، ولما لم يرض الروم فى داخلها بالتسليم يشعل الفرس النار فى المدينة فتأتى عليها ، وكان ذلك فى عهد جوستينيان ، أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية ، الذى حكم من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ م . وفى هذه الأثناء تظهر على مسرح السياسة قوة جديدة فى الشرق ، وتحاول كل من الدولتين ، الرومانية والفارسية ، أن تخطب ودها ، وتتحالف معها ؛ تلك هى أمة الترك ولكن القسطنطينية التى ورثت مثل هذه السياسة عن روما ، تتغلب على الفرس ، وتتالف مع الترك على حساب الدولة الفارسية ، ولقد ظهر أثر هذا التحالف فى آخر

عهد كسرى حينما قام بحصار مدينة دارا فى شمال وادى الرافدين ، التى أصبحت أخطر مركز رومانى لتدريب الجيوش وإعداد الحملات الحربية ضد الفرس ، إذ أنه فوجىء بقوة هائلة من الترك والروم معا لم يستطع التغلب عليها . ويعقب موت كسرى فترة لا تكاد تتجاوز عشر سنوات يصح أن نسميها فترة ركود ، إذ أن الأمور تظل على ما كانت عليه تقريبا حتى يتولى الأمر كسرى الثانى من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٢٨ م . وقد كان كسرى أبعد نظرا وأواسع أفقا من كل من سبقه من ملوك الفرس ، ولذا فأنه اتبع سياسة مع الدولة الرومانيه أقل ما توصف به أنها سياسة عجيبة : رأى أن الشرق فى ذلك الوقت تتنازعه قوتان ، قوة مادية فى يد القسطنطينيين ، وقوة روحية فى يد المسيحيين ، ولكى يحقق مطامعه الواسعة عمد إلى ترضيه هاتين القوتين ، فعقد محالفة مع القسطنطينيين ، وتزوج من من مسيحية ، عكس ما كان مألوفا عند الفرس . ولقد جنى بسرعة ثمر ذلك ، فأن محالفته للقسطنطينيه قد جعله يكتشف نقط الضعف فى الدولة الرومانية فيعد عدته وينقض شروط المحالفة ويقوم بالهجوم المباغت على كل المراكز الرومانية فى الشرق ، وزواجه من المسيحية قد جعل المسيحيين فى الدولة الرومانية يتلقون أخبار هذا الهجوم بشىء من الفتور ولا يتحمسون للدفاع عن مصالح الروم ، ولذا فكان من اليسير على كسرى أن يستولى على كل الحصون الرومانيه واحدا بعد آخر . فأخذ الرها ، وسنجار ، ونصيبين ، ودارا ، وماردين ، وآمد وأنطاكية ، وفى هذه المدينة الأخيرة يقسم جيشه إلى قسمين : قسم يذهب إلى الشمال لمهاجمة آسيا الصغرى ، آخر معقل للرومانيين ، ويصل فى تقدمه إلى شواطىء البسفور ، ويذهب هو على رأس القسم الآخر نحو الجنوب فيأخذ طرابلس ، ودمشق ، وبيت

المقدس ، وهناك لا يقيم وزنا لشعور المسيحيين كما لم يقم وزنا من قبل لمحالفته مع القسطنطينيه فيترك جنده تشعل النار فى القدس وتنهب وتخرب كل ما تقع عليه أيديهم من مقدسات حتى إن مقابر الشهداء لم تسلم منهم . ثم يعود بما أحرزه من فوز وبما يحمله من كنوز ثملا بخمرة النصر ، وتاركا خلفه الروم والمسيحيين فى غيظ وأسى . ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى تستيقظ القسطنطينية ويبعث فيها الأمبراطور هرقل - من سنة ٦١٠ إلى سنة ٦٤١ م - روح القوة من جديد . وقبل أن يعد عدته المادية ليثأر من كسرى بدأ يمهد لذلك بأمرين : الأول ، تقربه من الترك ثم تجديد محالفته معهم حين بدء القتال ، والثانى ، تعبئة الشعور العام عند المسيحيين ضد كسرى بأثارة ما صنعه بمعتقداتهم ومقدساتهم . وحينما تهيأت له تلك الأسباب قام بحملة وقسم جيشه إلى عدة أقسام وأرسل كل قسم جهة خاصة حتى يرتبك أمر الجيش الفارسى وقد نجحت هذه الخطة نجاحا كبيراً فلم يستطع كسرى أن يلم شعث جنوده ويقاتل العدو فى جبهة واحدة . ولم يلبث هرقل ، بعد أن أحدث هذا الاضطراب فى ممتلكات كسرى وفى جيوشه أن سار بنفسه فى اتجاه دجله لكى ينهى الحرب بمعركة فاصلة ، وفى منطقة نينوى يلتقى بالجيش الفارسى فيهزمه . ولما سمع كسرى بخبر هذه الهزيمة ، وكان قد انتقل إلى - دستجرد - المدينة الجديده التى بناها لتكون عاصمة ملكه ، فر منها وعاد إلى طيسفون ، حيث تنازل عن العرش . ولن يحسم النزاع المتواصل المرير بين الطرفين نهائيا إلا قوة جديدة تظهر على مسرح السياسة فى هذه الأثناء ، تلك هى قوة العرب وما تحمله من دعوة إلى الجهاد فى سبيل نشر ألوية الإسلام . وإن المؤرخ ليدهش حقا حينما يفكر فى تلك النتائج الحاسمة التى وصلت إليها تلك القوة العربية

البسيطة [1] من قضائها على هاتين الدولتين العظيمتين ذواتى الحصون والقلاع

---

[1] يروى المؤرخ سيتون لويد فى كتابه ـ الرافدان ـ ص١٩٤ أن خالد بن الوليد فى غزوته الأولى للعراق لم يكن معه سوى ٥٠٠ رجل . ويذكر أيضا فى ص ١٩٧ أن عمرو بن العاص أقدم على فتح مصر وليس معه إلا ٤٠٠ رجل . ويروى لنا أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى فى كتابه ـ تاريخ الأمم والملوك ـ الجزء الرابع ـ ص ٢٨ ـ الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية ـ أن أول أمير عربى يصل الشام لمحاربة الروم كان يزيد بن أبى سفيان على رأس ٧٠٠٠ رجل فى سنة ١٣ هـ ثم يذكر بعد ذلك فى ص ٣٢ من نفس الجزء أن جيش الروم قبل أن يصل خالد بن الوليد بمدده كان ٢٨٠٠٠٠ رجل وكان المسلمون ٢٧٠٠٠ رجل ، وجاء خالد على رأس ٩٠٠٠ رجل وبذا كان المسلمون جميعا ٣٦٠٠٠ رجل .

ويروى ابن جرير الطبرى كذلك بمناسبة الحديث عن حرب الفرس وموقعة القادسية التى كانت بمثابة الحد الفاصل بين عهد الفرس فى العراق وعهد العرب أن سعد بن أبى وقاص حينما رأى رستم قائد الفرس على رأس ٦٠٠٠٠ رجل من الجيش المنظم ، وهذا عدا جيش آخر من الحاشية والرقيق والأتباع طلب مددا من عمر بن الخطاب فبعث اليه المغيرة بن شعبة الثقفى فى ٤٠٠ رجل من المدينة ، وكذلك أمده بقيس بن مكشوح المرادى فى ٧٠٠ رجل ، ثم كتب إلى أبى عبيدة أن أمد سعد بن أبى وقاص بألف رجل ففعل وأمر عليهم عياض بن غنم الفهرى ؛ وعلى هذا فكان مدد سعد كله ٢١٠٠ رجل .

هذا ولو رجعنا إلى الوراء قليلا ولاحظنا مبلغ الاستعدادات الحربية لما كان يدور من معارك بين الروم والفرس لظهر لنا الفرق الواضح بين جيوش العرب وجيوش هاتين الدولتين ؛ فى عهد سابور الثانى ، ملك الفرس ، يذكر سيتون لويد فى كتابه ـ الرافدان ـ ص ١٦٧ أن هذا الملك قد خسر فى معركة واحدة أثناء حصاره الروم فى مدينة آمد ٣٠٠٠٠ جندى ولم يؤثر ذلك كثيرا فى جيشه . وفى ص ١٦٨-١٦٩ يذكر أن جوليانوس ، امبراطور الروم ، كان يحارب الفرس ومعه ٦٥٠٠٠ جندى عدا أسطول ضخم يضم ١١٠٠ سفينة .

والأساطيل الضخمة ، والجيوش الجرارة المتمرنة مئات السنين على أساليب الحرب وخدعها والأعداد لها .

وبعد فلعل القارىء يستطيع أن يلمس من قراءته لهذا العرض السريع مبلغ الصلات بين الروم وبيئة العراق ويدرك مقدار ما يمكن أن يكون لهذه الصلات من أثر للفكر الرومانى والحضارة الرومانية فى هذه البيئة وفى حياتها وفى سكانها . ولننتقل الآن إلى العامل الأساسى الآخر ، ذلك هو : العامل الدينى .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أولا أن العامل السياسى ، الذى تقدم الحديث عنه ، قد مهد كثيرا للعامل الدينى ؛ ثم إن العاملين قد سارا معا جنبا إلى جنب يشد أحدهما إزر الآخر حتى استقل العامل الدينى آخر الأمر . لقد قامت الدعوة الدينية المسيحية أول ما قامت فى بيئة فلسطين أيام حياة المسيح وبعد أن انتهت حياته فى عهد الامبراطور طيبيريوس ، الذى حكم من سنة ١٤ إلى سنة ٣٧ م ، انتشر تلاميذ المسيح المخلصون فى أنحاء البلاد يبشرون بالدين الجديد وينشرون الدعوة إليه بين مختلف الشعوب ؛ وكانت السيادة السياسية إذ ذاك لروما ؛ فلم يكن هناك مناص لهؤلاء الدعاة من أن يتعلموا اللغة اللاتينية ويتفهموا حضارتها من أدب وعلم وفن لكى يسهل عليهم أداء الرسالة التى وقفوا أنفسهم من أجلها ؛ إذ كان من أهدافهم الأولى أن تعترف روما بهذا الدين الجديد فيصبح الدين الرسمى لكل الامبراطورية الرومانية وليس يعنينا هنا أن نتعرض لتاريخ هذه الدعوة ، ولا لما تحمله دعاتها فى خلال القرن الأول ، والثانى من أباطرة الروم من أنواع الاضطهاد والتعذيب والاستشهاد ، فلقد كان هؤلاء الأباطرة يرون أول الأمر أن من أهم مقومات الدولة الرومانية المحافظة على دين روما الوثنى ،

كما كانت حياة هؤلاء الدعاة للمسيحية صورة رائعة للجهاد ، إذ أن وسائل العنف التى لجأ اليها الأباطرة ضدهم كانت صورا رهيبة لأفظع ما عرفته الأنسانية من قسوة : فمن قتل إلى صلب ، ومن حرق إلى تشريد ومن تعذيب إلى الألقاء بهم أحياء إلى أفواه الوحوش الضارية تنهشهم أمام الجموع الغفيرة من النظارة . ولكن الذى يهمنا من كل ذلك هو أن نعلم أن هذه الدعوة الدينية الجديدة قد بدأت تنال شيئا من عطف سادة روما أيام حكم الأمبراطور هادريانوس ، الذى حكم من سنة ١١٧ إلى ١٣٨ م ، فقد منح هذا الأمبراطور حرية الدعوة للدين المسيحى ، وبذل لدعاتها الحماية من ظلم الحكام فى سائر الولايات الرومانية . ويستمر هؤلاء الدعاة فى أداء رسالتهم حتى تعترف روما بالدين المسيحى كدين رسمى للدولة ، وهنا يبدأ عهد جديد ، وتتغير نظرة المسيحيين لروما ولآثارها العلميه والأدبية والفنية تغيرا كاملا ، فتصبح اللغة اللاتينية لغة للدعوة المسيحية كما كانت من قبل اللغة اليونانية والسريانية ، وتصبح الثقافة اللاتينية مطمعا للمسيحيين وتنتشر بواسطة مجهوداتهم المتواصلة فى كل بلاد الشرق ، ثم يتركز لها نوع من النشاط فى وادى دجلة والفرات حيث البيئة ممهدة من قبل بما كان فيها من مدارس ومعاهد للعلم . ولعل أهم الطوائف التى عملت على نشر الثقافة اللاتينية فى هذه البيئة هى طائفة السريان الذين كانوا بمثابة حلقة اتصال مستمر بين بيت المقدس ، المركز الروحى لهذا الدين ، وبين الكنيسة المسيحية فى أرض النهرين . ولو أضفنا إلى ذلك ما هو معروف من أن الصلة كانت وثيقة جدا بين بيت المقدس وروما ، وأن التبادل الفكرى كان مستمراً بينها لما وجدنا عناء فى تعليل انتقال الآثار الأدبية والعقلية الرومانية إلى البيئات الدينية والعلمية فى أرض النهرين ، ولقد رأينا فيما مضى ، حينما كنا بصدد

الحديث عن نشاط السريان ، أن جانبا من مجهودهم قد اتجه إلى ترجمة بعض الآثار الثقافية من اللغة اللاتينية إلى اللغة السريانية . كما فعلوا مثل ذلك أيضا بالنسبة للآثار اليونانية ، وهناك مسألة هامة أخرى ينبغى ألا تغيب عنا ، ذلك أن المسيحيين الذين كانوا يقيمون فى أرض النهرين كانوا يشعرون برباط روحى متين يربطهم بروما وبالأباطرة من الرومانيين ، ولقد دفعهم هذا الرباط إلى أن يقفوا دائما فى صف الحامية العسكرية الرومانية حينما يهاجم الفرس حصون الروم ومدنهم فى بيئة العراق . وكثيرا ما استعان هؤلاء المسيحيون بأباطرة الروم ليخلصوهم من ظلم الفرس ، وقد كانوا هدفا له ما بين وقت وآخر . مثال ذلك ما حدث فى عهد يزدجرد الأول ملك الفرس ، إذ أن المسيحيين فى مملكة الفرس قد لاقوا الكثير من أنواع الاضطهاد فذهب ـ ماروثا ـ أسقف مدينة ـ ميفارقاط ـ أو ـ ميفارقين ـ أو مدينة الشهداء ، إلى القسطنطينية مستجيرا بالأمبراطور أركاديوس لكى يعمل من جانبه على تخفيف اضطهاد الفرس للمسيحيين ؛ وكذلك صنع هذا الأسقف مرة ثانية فى عهد الأمبراطور تيودوسيوس وفى كلتا الحالتين قد تدخل امبراطور الروم فى هذا الأمر وحاول جهده أن يرفع الظلم عن المسيحيين المضطهدين فى الدولة الفارسية . وما صنعه الفرس فى عهد يزدجرد الأول كان صورة لما صنعوه أيضا فى عهد يزدجرد الثانى وسابور الثانى ، وكسرى الأول ، وفيروز . فى كل هذه العهود ظهر تشيع المسيحيين للروم بشكل واضح ؛ ونتيجة ذلك أن يكون هؤلاء المسيحيون المنتشرون فى بيئة العراق على صلة بالحضارة الرومانية كما كانوا على صلة بالدولة الرومانية . بل إن من هؤلاء المسيحيين من ذهب إلى روما ودرس فيها واتصل بعلمائها وأدبائها مثل اسحاق الرهاوى ، الذى أقام فى روما قبيل سقوطها على يد

ألاريك . ويبدو أنه مكث بها حتى مجيء هذا القائد القوطى سنة ٤١٠ ، كما يبدو أيضا أن الأثر الروحى لعاصمة الروم كان عظيما فى نفس اسحاق الرهاوى ، إذ أنه نظم قصيدتين كلتاهما تشيد بروما وبمآثرها : موضوع الأولى الألعاب التى أقيمت فيها سنة ٤٠٤ للاحتفال بعيدها المئوى ، وموضوع القصيدة الثانية سقوط روما وتخريبها على يد ألاريك . ثم أنه بعد هذا التاريخ عاد إلى أرض النهرين مارا بالقسطنطينيه وعمل قسا فى مدينة آمد حيث بقى دون أن يفتر له نشاط فى البحث والتعليم حتى توفى حوالى سنة ٤٦٠ م [1]

ومن هؤلاء المسيحيين الذين ذهبوا إلى روما أيضا وكان حظهم من ثقافتها واسعا ، ذلك العالم الدينى الكبير - طاطيان . كان هذا العالم فى شبابه مغرما بالدراسة والأسفار فترك البيئة العراقية التى نشأ فيها وذهب إلى بلاد اليونان فدرس فيها الفلسفة ومظاهر الحضارة ثم انتقل إلى روما واتصل ببيئاتها العلمية وبقى يتردد على علمائها وأدبائها ورجال الدين فيها حتى اعتنق المسيحية ، ومنذ ذلك الوقت ينال قسطا من التقدير فيشتغل بالتدريس فى روما ويتخرج على يديه كثير من رجال الدين والعلم مثل رودون الآسيوى كليمانس الأسكندرى ، ونرسيس المقدسى ، وبعد مدة طويلة يقضيها فى روما يعود منها إلى الشرق أستاذا كبيرا فى سنة ١٧٢ م . وهناك فى بلاد آشور يكرس جهده وما بقى من حياته فى نشر معارفه وتأليف كتبه [2] .

وبعد فأن القارىء يستطيع أن يتبين من خلال هذين العاملين : العامل السياسى والعامل الدينى ، مبلغ الصلة بين روما وحضارتها وبين بيئة العراق

---

(١) تاريخ الأدب السريانى للدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدى البكرى ص ١١٠ - ١١١

(٢) نفس المجع ص ٥٣ - ٥٦

وسكانها ، غير أنه ربما يبدو له أن الأثر المادى لهذه الحضارة الرومانية ضئيل فى بيئة العراق ، وهذا صحيح إذا ما قورن بآثار الثقافة اليونانية ، فأن المترجمين لم يهتموا بالنصوص اللاتينية قدر اهتمامهم بالنصوص الأغريقية ، ولعل ذلك لسببين : الأول أن الحضارة الأغريقية أغنى فى مادتها وأسبق فى وجودها مع تعرف الشرقيين بها من الحضارة اللاتينية ، والثانى هو أن المترجمين والنقلة قد وجهوا همهم إلى الآثار العلمية ، لا الآثار الأدبية ، كالفلسفة والطب والفلك والرياضة ، وثراء الأغريق وأصالتهم فى هذه المواد أوضح بكثير من اصالة الرومانيين ، بل إن ما وجد عند الروم من هذه المواد إنما هو مقتبس مما كان عند الإغريق . ولكن ينبغى أن ننظر إلى هذه المسألة من جانب آخر ، إذ أن دعاة المسيحية الناشئين فى أحضان الثقافة اللاتينية قد قاموا مقام الأساتذة فى معاهد العلم ، ومقام الكتب المترجمة فى مختلف الأوساط ، فكانوا يدخلون بأفكارهم ومعارفهم فى بيئات لم يكن من السهل عليها أن تقف على ما يدرس فى المدارس أو يكتب فى الكتب المترجمة ، وليس من شك فى أن ما نراه الآن من أثر للأرساليات المسيحية فى أبسط البيئات وأبعدها يمثل لنا صورة ما كان يحدث فى أوائل عهد الناس بالدين المسيحى الجديد .

نستطيع إذن أن نخلص من هذا الفصل بأن الثقافة اللاتينية بما تضمنته من آداب ومعارف وقوانين لم تكن غريبة ولا مجهولة عن بيئة العراق بسبب ما كان هناك من صلات سياسية ، ودينية مستمرة ، ولقد أخذت معرفة سكان العراق بهذه الثقافة تزداد بازدياد هذه الصلات وعلى الخصوص بعد أن قامت الدولة الرومانية الشرقية فى القسطنطينية ، وأخذت تنافس روما فى عظمتها العلمية ، ومجدها السياسى . ولقد زاد أثر الثقافة اللاتينية

فى الشرق بعد ما سقطت روما نهائيـــا فى سنة ٤١٠ م ، وتحول السلطان الأدبى والسياسى من الغرب إلى الشرق .

اللون الرابع :

اللون الرابع من الحضارات الاجنبية فى بيئة العراق هو لون الحضـارة العبرية . ولعل هذا اللون هو أبسط الألوان جميعـــاً وأقلها أثراً فى وادى الرافدين ، غير أنه من الضرورى أن نترسمه ، ونتبين معالمه ، ونعرف إلى حد ما مبلغ ما كان لليهود من نشاط فكرى فى هذه البيئة . وفى الحق إن نشـاطهم كان ضئيـلا فى أول الأمر ، ثم لم يلبث أن ازداد نوعاً ما حينما بدأت بيئة الرافدين تتخلص من الديانة الوثنية وتتعرض لغزو دينى يفد اليها من الشرق ومن الغـرب ، ونعنى بذلك غزو الدين الزود شتى ، وغزو الدين المسيحى . فى هذه الاثناء ساهم اليهود بنصيب ، فقـــاموا يدعون لدينهم ، ويثبتون أسسه فى الجزء الجنوبى على الخصوص من بيئـة العـراق . وينبغى ألا يغيب عنا أن الدعوة للديانة اليهودية إنما هو التعريف بالحضارة العـبرية إذ أن النصوص المقدسة عندهم تعتبر جماع تراثهم العقلى والأدبى ففيها الشعر بأنواعه وفيها النثر وفيها الحـكم وفيها القانون وفيها الفلسفـة وفيها التاريخ .

وقد وأينا جانباً من هذا الصراع أو التنافس الدينى بين اليهودية والمسيحية حينما كنا نتحدث فيما مضى عن بداية الدعوة المسيحية وانتشارها فى بيئـــة العراق ، حيث ذكرنا أن ابن ملك حذيب اعتنق اليهودية بعد أن اقصاه والده على يد داعية يهودى ، وأنه حينما عاد إلى بلده وجد أمه الملكة أيضـاً اعتنقت نفس الدين على يد داعية آخر . غير أن الدعوة المسيحية قد استطاعت أن تطغى على كل دعوة دينية أخرى فأصبح رجال الديانات الأخرى فى موقف يشبه

موقف الدفاع ؛ كان همهم الأول هو المحافظة على ديانتهم وحماية المؤمنين بها من الارتداد ، أما مطمعهم فى احراز الغلبة لها على حساب الدعوة المسيحية الجديدة فكاد يتلاشى . ومع هذا فقد كان لليهود جالية لا يستهان بها فى بيئة العراق قد جاء بعض افرادها طوعاً وفى وقت مبكر لاستغلال مواهبهم والمساهمة بنصيب فى رقى الدولة البالية - الأشورية ، وجاء البعض الآخر اضطراراً بسبب ما أصابهم من سبي بنوخذ نصر ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت جاليتهم وزاد عددها مع مرور الزمن ؛ ومما ساعد على ذلك أيضا هو ما كانوا يتعرضون له من اضطهاد فى فلسطين من أباطرة الروم فكانت بيئة العراق بمثابة متنفس لهم يفدون إليها من وقت لآخر فرارا من ظلم الروم وطمعا فى حماية الفرس ، وهكذا تكونت جاليتهم وأصبح لها كيان فى بيئة العراق ، ولم يمض طويل زمن حتى أخذوا ينافسون الفرس والسريان فى الحركة العلمية الواسعة ، فكان منهم من يعرف الفارسية ومنهم من يعرف السريانية ومنهم من يعرف اليونانية . وبالنسبة لما كانت تعرف به الدولة الفارسية من التسامح وترك العناصر الأجنبية تمارس نشاطها العلمى والأدبى فقد استغل يهود العراق هذه الفرصة وانشؤا لهم مدارس على غرار ما كان يصنعه الفرس والسريان . وهكذا وجدت لهم حركة علمية واضحة ، ونشاط ثقافى ملحوظ ، وقد امتد هذا حتى الفتح الإسلامى لبيئة العراق . وحسبنا أن نعلم أن هؤلاء اليهود كانوا يمتلكون جامعتين عبريتين فى أرض العراق أثناء فتح العرب ، وأن أساتذة هاتين الجامعتين وطلابها قد تجمعوا وخرجوا لملاقاة على بن أبى طالب حينما وفد إلى العراق وأمضوا معه عهدا كفل لهم فيه حرية العقيدة وحسن المعاملة . وليس من شك فى أن هؤلاء اليهود قد قاموا بنصيب فى بناء النهضة العلمية الإسلامية فى عهد

الدولة الأموية والعباسية ، فكان منهم العلماء ، وكان منهم المترجمون إلى اللغة العربية .

كيف كانت بيئة العراق أثناء الفتح الاسلامى ؟

أظننا بعد هذه الفصول الطويلة ، والتفصيل الذى بلغ حد التكرار فى بعض الأحيان نستطيع أن نرسم للقارىء لوحة شاملة لهذه البيئة العراقية أثناء الفتح الإسلامى . لقد كان وادى الرافدين شبيها ببحيرة واسعة ، تهب عليها من حين إلى حين أعاصير ساخنة فتبخر جزءا غير يسير من مياهها ، ثم تحمله معها إلى أجواء أخرى نائية ، حيث ينقى هذا البخار مما علق به من شوائب ثم يتجمع ويتكاثف ، وأخيرا تسوقه الرياح أمامها إلى بيئات طيبة صالحة فيسقط أمطارا ، وحينئذ تتجمع هذه الأمطار مرة أخرى وتشق لها روافد لتصب فى نفس البحيرة التى بدأت منها لكيلا ينضب معينها . هكذا كانت بيئة العراق بالنسبة لحضاراتها الأولى من سومرية - أكادية إلى بابلية - أشورية ، ثم بالنسبة للحضارات الأخرى التى وفدت اليها فى ظروف متعددة وفى عصور مختلفة . رأينا أول الأمر كيف وجدت فى هذه البيئة مظاهر الحضارة منذ القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد ، ثم كيف زادت هذه المظاهر ووصلت إلى درجة كبيرة من النضوج حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ، وأخيرا كيف قامت مدينة أشور ، وعملت على نشر هذه الحضارة فأوصلتها إلى آسيا الصغرى وجزر اليونان فى البحر الأبيض المتوسط . ومنذ القرن السادس قبل الميلاد نرى آثار الحضارات الأجنبية ، التى استمدت كثيرا من عناصرها الأولى من وادى دجلة والفرات تفد إلى هذه البيئه فتواصل حلقات النشاط الفكرى ، وتربط القديم بالجديد .

استمرت إذن بيئة العراق مركزا هاما للعلوم والمعـــارف بالرغم من الاضطرابات السياسية العنيفة ، وفترات الركود ، التى كانت تنتابها من حين إلى حين ، حتى الفتح العربى . وأهم ما امتازت به هذه البيئة العراقية دون غيرها من البيئات الثقافية الأخرى هو حرص ملوكها منذ القدم على الرقى العلمى ، وبذلهم كل ما يمكن فى سبيل إيواء العلماء وإنشاء المكتبات ونقل الكتب والمحافظة عليها . وفى كل ما قرأناه متصلا بالحضارات القديمة من مصرية واغريقية ولاتينية نجد الدليل على أن هذه الميزة قد انفرد بها ملوك وادى الرافدين ، ثم سارت الدول والملوك على سننهم فيما بعد . ومن أجل هذا فقد رأينا أول مكتبة عرفها التاريخ تنشأ فى بيئـــة العراق - مكتبة شرجينا فى مدينة وركاء - [1] وأول تفكير فى استدعاء العلماء الأجانب والاستعانة بهم قد وجد لدى ملوك بابل - استدعوا فى أزمنة مبكرة العلماء من فلسطين ومن غيرها وسار على سنتهم ملوك آشور - [2] وأول عمل يتصل بنقل الكتب أو بنسخها والتعليق عليها قد تحقق فى بابل وفى آشور [2] . وقد وجد صدى ذلك واضحا عند ملوك الفرس والخلفاء العباسيين . ولو أضفنا إلى ما طبع عليه هؤلاء الملوك من العناية بالعلم ما عرفت به بيئـــة العراق نفسها من أيوائها الكثير من أفراد شعوب أجنبية ، ومن سماحها لهؤلاء الأجانب بالبقاء مع اعتناق العقيدة التى يريدون وممارسة العلوم التى يعرفون ما داموا يخضعون لسياسة البلاد العليا ، نقول لو أضفنا هذا إلى ما طبع عليه الملوك من العناية بالعلم لانكشف لنا جليا حقيقة الأمر بالنسبة

---

(1) ص ٥ - ٢٧ من كتابنا - العراق وما توالى عليه من حضارات

(2) ص ٥٤ من نفس المرجع

(2) ص ٥٥ من نفس المرجع

للعراق وما كان عليه من تقدم فى العلم والأدب والفن ، فكان هناك السريان واليهود ، وبقايا اليونان والفرس ، وسكان البلاد الأصليين ، وكان لكل فريق من هؤلاء مجتمعه وديانته ، ومعارفه ومعاهده ، وليس من شك فى أن هذه الظروف قد أوجدت بين المجتمعات المختلفة نوعا من التنافس العلمى والتسابق فى ميدان البحث والانتاج ، وبهذه الصورة وجد العرب بيئة العراق: وجدوا اليهود وهم على ما ذكرنا من المحافظة على تعاليمهم الدينية ، والعناية بالدرس والبحث فى جامعتيهم ، وحسبهم أن قدموا إلى العربية أمثال - ماسرجويه - الذى ترجم إلى العربية كتابا فى الطب يحتوى على ثلاثين فصلا وزاد عليه فصلين من عنده [1] ، وجدوا السريان منتشرين فى كل المدن العراقية وهم على ما وصفنا من النشاط العلمى ، والدراية الواسعة بالحضارتين اليونانية والرومانية ، والانتاج الضخم فى ميادين المعرفة المختلفة ، علماؤهم منبثون فى مختلف الأوساط ، ومدارسهم منتشرة فى المدن وفى القرى ، فكان لهم ما يزيد عن الخمسين مدرسة ، نذكر منها : مدرسة الرها . ومدرسة نصيبين اللاهوتية ، ومدرستها الأدبية ، ومدرسة إربل عاصمة حذيب ، ومدرسة سلوقيا ، ومدرسة الحيرة ، ومدرسة قنسرين ، ومدرسة الحزه ، ومدرسة عين الدالية ، ومدرسة دير كفر مارى ، ومدرسة بيت زبدى ، ومدرسة دير عيدا .

وكانت المدارس الرئيسية عند السريان تقوم بنفس الدور الذى تقوم به الأكاديميه الحديثة فى بعض الدول الغربية الان ، بمعنى أن تنشىء المدرسة الرئيسيه مدارس فرعيه أخرى فى المنطقة المحيطة بها ثم تشرف عليها من

---

[1] تاريخ الأدب السريانى ص ١٩١

ناحيه المدرسين وبرامج التعليم ، وأخيرا وجدوا الفرس وهم فى أزهى عصور نهضتهم من ناحية العلم والأدب والفن ، فأن ملوكهم بعد أن اتصلوا بالغرب ووقفوا على معالم حضارتهم أرادوا مجاراة اليونانيين والرومانيين فى حياة الترف المادى والعلمى وفى الثقافة الواسعة ففتحوا أبوابهم للفلاسفة والعلماء المضطهدين ، وأرسلوا بعوثهم إلى الهند لينقلوا ثمرة الآثار الأدبية عندهم ، واستعانوا بالمترجمين ليترجموا إلى الفارسية عيون الكتب الأغريقيه ، واستخدموا ثروتهم الطائلة فى توسيع المدن وتجميلها وإنشائها وفى بناء المدارس والانفاق عليها ، فأنشأ كسرى أنو شروا مدينة - دستجرد - لتكون عاصمة جديدة لملكه ، وأنشأ مدينة كسرى المفضلة على أنطاكيه بالقرب من طيسفون لتكون صورة للمدن الغربيه فى كل مظاهرها ، وأسس بالقرب من مدينة السوس مدرسة جامعة لتكون أهم مركز علمى فى الشرق وأخذت تظهر فى أيامه مدارس أخرى فى الشعر والفلسفة والبلاغة ، وبهذه النهضة وصلت الحضارة الفارسية إلى أوج عظمتها وبقيت كذلك حتى جاء العرب لفتح العراق ورأوا مظاهر تلك الحضارة فكانت موضع الدهشة والأعجاب . وهكذا انفتح للعرب بفتح العراق كنوز من المعارف الواسعة والكتب العديده ، والعقول المثقفه ، وتقدم اليهم جمع كبير من العلماء على استعداد واسع لأن يمدوا اللغة العربية وثقافتها المحدودة بما عرف فى الحضارات الأجنبية من فلسفة ، وطب ، وعلم ، وأدب ، وفن ، وهذه ثروة لم تتوفر فى أى بيئة أخرى من البيئات التى فتحها العرب ، ولم ير الأسلام فى أى بلد غير العراق هذا الخليط العجيب من الأمم ، ومن الحضارات ، ومن العلماء . ولقد عرف العرب كيف يستغلون هذه الثروة فوفدوا إلى العراق واتصلوا بعلمائه وفلاسفته وأدبائه واخذت تظهر ميكرة

بعض المدارس العربية وأولاها مدرسة اللغه ثم تلتها مدرسة الدين ، ومدرسة الفلسفة أو الكلام ، ومدرسة الأدب . ولو استعرضنا تاريخ هذه المدارس جميعا لوجدنا الكثرة من رجالها أجانب عن العرب ، إما فرس وإما سريان ، وإما روم . وإذن فأن هذه المدارس الأسلامية وما كان فيها من درس ، وبحث ، وجدل ، وإنتاج لم تكن سوى امتداد لما عرفته بيئة العراق من قبل . ولعل الجديد فى الأمر هو أن هؤلاء العلماء الأجانب المتباينون فى الجنس وفى اللغه وفى الدين قد وحدت فيما بينهم اللغة العربية وأصبحوا بمثابة روافد تصب فى بحيرة واحدة فيتكون من مجاريها المختلفة ما نسميه بالحضارة الأسلامية ومن هنا كان من العسير أن نفهم هذه الحضارة كما قلنا فى أول هذا الكتاب دون أن نسبر غور تلك البحيرة ونسير مع تلك الروافد التى أمدتها حتى نصل إلى منابعها الأول .

الأسكندرية ٣/٨/١٩٥٣ م

الساعه ٤ صباحا

الدكتور حسن عونه

فهرس لما يحتويه الكتاب

٣ مقدمة الطبعة الثانية .

٦ تمهيـــد

السبب فى دراسة بيئة العراق من ناحية الحضارة

٩ البيئة العراقية فى أول عهودها التاريخية

الشعب السومرى ١٠ ، أصله ومظاهر حضارته ١١ ، الفرق بين الحضارة السومرية والحضارة الفرعونية ١٢ ، عود إلى مظاهر الحضارة السومرية : الهندسة المعمارية والكتابة السومرية ١٣ ، وجه الشبه بين اللغه السومرية والهيروغليفيه ١٣ ، مظاهر حضارتهم من ناحية الدين ومن ناحية الفن ١٥ ،

١٦ الأكاديون : أصلهم وموطنهم

١٨ البابليون - الأشوريون : أصلهم ومن أين وفدوا ولماذا ؟ ٢٩ ، صفات الشخص السامى ٢١ ، ماذا وجد البابليون فى بلاد السومريين ٦٣ ، مظاهر الحضارة البابلية ٢٥ مكتبة وركاء ٢٦ ، قانون حمورابى ٢٧ ، مقارنته بقانون الأثنى عشر لوحا ٢٧ ، كيف اكتشف ؟ ومتى؟ ومواد هذا القانون ٢٨ ، مبدأ « النفس بالنفس » فى قانون حمورابى وفى التوراه وفى القرآن ٢٩ ، أثر قانون حمورابى فى البيئات الأجنبية ٣٠ ، قانون حمورابى فى بيئة الحجاز ٣٠

٣٢ عمالقة العراق :

مبدأ التحكيم الألهى عند البابليين ثم عند العرب ، وأشارة القرآن إليه ثم بقاء أثره حتى الوقت الحاضر ٣٢ ، قانون حمورابى عند العبريين ٣٣ ، الكاهن يثرو رعوئيل - قصة موسى وخروجه من مصر وصلته بهذا الكاهن ٣٣ ، تعاليم موسى وشريعته ٣٤ ، انتقال أثر قانون حمورابى إلى اليونان ٣٥ ، سولون أكبر مشرع عند اليونان ٣٦ ، ينبغى ألا نبالغ فى مدى أثر هذا القانون فى البيئات الأجنبية ٣٦ - ٣٧

٣٨ بعض العناصر الأساسية ؟ الحضارة البابلية : الناحية الدينية ٣٨ ، الناحية الأدبية ٣٩ ، أصل « كليله ودمنه » ٣٩ ، ظاهرة الأدب المروى على السنة الحيوانات

منشؤها ٣٩ ، انتقالها إلى اليونان ثم إلى الروم وأخيراً إلى الفرنسيين ٤٠ ، المسرحيات عند البابليين ووجه الشبه بينها وبين مسرحيات اليونان ٤٠ ، ملحمة جلجميش ووجه الشبه بينها وبين الشعر القصصى اليونانى واللاتينى ٤١ ، موضوع الملحمة وتحليلها ٤١ ، الناحية العلمية ٤٣ ، علم الطب ٤٤ ، علم الفلك ٤٥ ، نتائج أبحاثهم الفلكية ٤٦ ، أثر معارفهم الفلكية عند العرب ٤٧ ، ماذا آلت إليه حالة بابل ٤٩ .

٥٠ أثر الأشوريين الخاص : النباتات ٥١ ، أنساب الآلهة ٥٢ ، وجه الشبه بينهم وبين اليونان والروم ٥٣ ، آشور بانيبال ومجهوده العلمى والفنى ٥٤ ، أثر الأشوريين العلمى ٥٥ .

٥٨ وادى دجلة والفرات بعد البابليين والأشوريين ، ماذا أصاب الحضارة البابلية ـ الأشورية بعد فتح الفرس ٦٠ ، الفرق بين مؤرخ الحضارة والمؤرخ السياسى ٦١ ، لم يقض الفرس على الحضارة البابلية ـ الأشورية ٦٣ ، أثر الفرس فى الحضارة البابلية ـ الأشورية ٦٣ ، الأثر الدينى ٦٣ ، نشأة الدين الفارسى وتطوره ٦٤ ، رسول الفرس ، زرتشترا ٦٤ ، الوحدة فى الألوهية مظهر للنضوج العقلى ٦٥ ، غزو بيئة العراق بالدين الفارسى القديم ثم الحديث ٦٦ ، الأثر العلمى ويتمثل فى الكتابة تطور الخط المسمارى على أيديهم ٦٧ ، تعرض وادى دجلة والفرات إلى ألوان من الحضارات الأجنبية فى الفترة ما بين فتح الفرس وفتح العرب لبيئة العراق ٦٨ ، الأثر المتبادل بين الشرق والغرب فى ميدان الحضارة ٦٧ ، يخطىء كثير من الناس فى تصورهم أن الغرب قد أثر فى الشرق بحضارته ٦٩ ، كل آسيا الغربية كانت ميدانا للنشاط الحضارة البابلية ـ الأشورية ٧٠ ، كيف وصلت حضارة الشرق الأدنى إلى اليونانيين ؟ ٧٤ ، لم يكن البحر الأبيض حاجزا بين اليونان والشرق ٧٤ ، شهرة اليونان بالملاحه ٧٥ ، الفرق بين التجارة قديما وحديثا ٧٥ ، مسألة الحروب وأثرها فى نقل الحضارة ٧٨ ، الجواب عن السؤال الثانى وهو مدى تأثر اليونان بالحضارة الشرقية ٨١ ، أهم الآثار الفكرية عند اليونان ووجه الشبه بينها وبين الآثار الفكرية فى الحضارة البابلية ـ الأشورية ٨١ ، قصص الملاحم ٨٢ ، وجه الشبه بين ملحمة جلجميش وملحمتى هومير : الأليازه والأوديسا ٨٣ ، الاشعار الدينية عند اليونان وعند البابليين ٨٦ ، فن التاريخ عند اليونان وعند البابليين والاشوريين ٨٦ ، التشريع عند اليونان : سولون ونشأته وأثر الشرق فيه ٩٦ .

١٠٠ بيئة آسيا الصغرى وما جاورها من جزر بحر إيجه : كانت مأوى للأغريق منذ أزمنه بعيدة ـ الخلافات السياسيه بين القبائل فى شبه جزيرة اليونان ١٠١ ، ظهور قبيلتين من بين القبائل : الدوريان ، واليونان ١٠٢ ، هجره اليونان إلى آسيا الصغرى ١٠٢ ، الفرق بين كلمتى يونانى وأغريقى ١٠٣ ، تكوين نهضة علميه بين اليونان فى الفترة بين القرن ١٢ والقرن ٨ ق م ١٠٤ ، انتقال هذه النهضه إلى أثينا ١٠٤ ، كان اليونانيون تلامذة لأساتذة الشرق ـ الرد على صاحب قصة الحضارة ١٠٧ ، مالذى استفادته حضارة الاغريق من الشرق بعد فتح الاسكندر ؟ ١٠٨ ، عود إلى البيئة العراقية ١١٠ . ألوان الحضارات الاجنبيه فى بيئة العراق : الحضارة السريانية : أصل السريان ؟ ومن أين جاؤا ؟ وأين استقروا ؟ ١١١ ، حقيقة الكلدانيين ١١٣ ، قصة ابراهيم مع ابيه آزر تلقى ضوءا على الديانة فى وادى الرافدين ١١٤ ، عود إلى الاراميين ١١٥ ، انقسامهم إلى أراميين شرقيين وأراميين غربيين ١١٦ ، أهم مظهر لنشاط الآراميين هو اللغه : انتشارها فى آسيا وفى أفريقيا ١١٦ ، لماذا تغلبت اللغة الآرامية على اللغات الاخرى ١١٧ ، اعتناق الآراميين للدين المسيحى ١١٨ ، الآراميون فلسفوا الدين المسيحى ١١٨ ، حركة الاراميين العلمية كانت أثرا لعوامل عدة ١١٩ ، مقارنة بين الآراميين واليهود ١٢٠ ، تعدد اللهجات فى اللغة الآرامية ١٢٠ ، مبدأ تسمية الآراميين بالسريان ١٢١ ، تغلب اللهجة السريانية على اللهجات الاخرى ١٢١ ، الانقسام الدينى بسبب الخلاف فى فهم طبيعة المسيح بين نسطوريوس ويعقوب بارادوس ١٢٢ ، عدم تأثر نهضة السريان العلميه بالاحداث السياسيه ١٢٢ ، خطاب مارا بن سارابيون ١٢٣ ، موضوع الخطاب وهدفه ١٢٤ ، دارا ـ أخيل ـ أجاممنون ١٢٦ ، پرياموس ـ أرشميدس ١٢٧ ، سقراط ١٢٩ ، فيثاغورس ١٣٠ ، الآراميون يفرضون لغتهم على مساحة من الارض تبلغ ٦٠٠٠٠٠ ك.م مربعا ١٣١ ، النهضة المسيحية مدينة للآراميين ، كما أن الثقافة الآراميه مدينه للدين المسيحى ١٣٢ ، نشاط اليهود فى شبه الجزيرة العربية وفى وادى الرافدين ١٣٢ ، لم يستطع نشاط اليهود مقاومة التيار المسيحى ـ نقطتان هامتان . كيف نشأ الدين المسيحى وعلى أى أساس قام ؟ إلى أى حد يعتبر الدين المسيحى مدينا للسريان من ناحية وللفلسفة اليونانية من ناحية أخرى ؟ ١٣٤ ، نتيجة نشاط الآراميين العلمى : مؤلفات تشريعية ، مجموعة من كتب التاريخ ، النقل من اليونانيه ١٣٨ ، استمرار نشاط السريان حتى فتح العرب

للعراق - تسامح الاسلام معهم ١٤١ ، الفرق بين تسامح الاسلام وتسامح الفرس مع السريان ١٤٢ ، المدارس السريانيه فى بيئة العراق ١٤٣ ؛ أثر نشاط السريان فى الحركة العلميه الاولى عند المسلمين ١٤٤ ؛ إحدى نتائج دراستنا لبيئة العراق ١٤٥ ؛ نتائج دراستنا للسريان ١٤٦ ؛ أصالة الانتاج لدى السريان ١٤٨ .

١٤٨ اللون الثانى من الوان الحضارات الأجنبية فى بيئة العراق لون الحضاره اليونانيه . الحدث التاريخى لهذا اللون فى العراق : فتح الاسكندر ١٥٠ ، حملة الأسكندر إلى الشرق ١٥٢ ، مطامع الأسكندر ١٥٥ ، معاملة الأسكندر لشعوب الشرق ١٥٦ ، المدن الأغريقية فى الشرق وأثرها العلمى والادبى ١٥٧ ، التنافس العلمى بين هذه المدن ١٥٨ ، قواد الأسكندر يقتسمون ملكه ويسيرون على نهجه ١٦٠ ، أثر الأغريق فى بيئة العراق ١٦٢ ، مدينة دورا نموذج للمدن الأغريقيه فى وادى الرافدين ١٦٣ ، كيف كان يعيش الأغريق فى وادى الرافدين ١٦٥ ، الفرق بين مهمة المؤرخ السياسى ومؤرخ الحضارة ١٦٦ ، لافونتين *Lafontaine* ، فيدر *Phedre* أيزوب *Esope* ١٦٧ ، فيكتور هوجو - *V. Hugo* ، تورولدوس - *Turoldos* ١٦٨ ، فيرجيل ، لوكانوس - *Lucanus* ، هوميروس *Homerus* ١٦٩ ، لم يكن ضياع سلطان الأغريق فى بيئة العراق قاضيا على الثقافة الأغريقية فيها ١٧٠ ، الثقافة الأغريقية فى الشرق أخذت مظاهر عده ١٧١ ، الثقافة الأغريقيه فى بيئة العراق تعيش بجانب الثقافة البابليه فى مدينة بابيلونيا ١٧٢ ، العوامل التى ساعدت على نمو الحضارة الأغريقيه فى الشرق وتقبل الشرقيين لها ١٧٢ ، أرسطو ١٧٤ ، أفلاطون ١٧٥ ، بروتا جوراس ١٧٧ ، جورجياس ١٧٨ ، برودیکوس ١٧٩ ، أيشيل ١٨٠ ، سوفوكل - سيمونيد ١٨١ ، بندار ١٨٢ . الفن الأغريقى ١٨٣ ، المباريات الفنيه والأدبية عند الأغريق ١٨٣ ، بلاد الأغريق تبدو كبوتقه لصهر المعارف الأوليه وسبكها من جديد ١٨٥ ، صدى معارف الأغريق فى فروع المعارف الأسلامية ١٨٦ .

١٨٧ اللون الثالث هو لون الحضارة الرومانيه : الخطوط الرئيسيه للحضارة الرومانيه بعض أوجه الشبه بين الحضارة الرومانيه والحضارة الأسلامية ١٨٧ ، روما وبغداد أوفيديوس وبشار - المسيحيون مع فيرجيل والمسلمون مع القرآن ١٨٨ ، الصلة بين الحضاره الرومانيه والحضاره الأغريقيه ومناقشة ذلك ١٩١ ، هوراسيوس ١٩٣ ،

سيسيرون ١٩٤ ، سينيكا ١٩٦ ، القانون الرومانى ١٩٧ ، لماذا لم يتأثر الشرق سريعا بالحضارة الرومانيه ١٩٨ ، ظهور حضارة الروم فى الشرق كان نتيجة لعاملين: العامل السياسى ١٩٩ ، آثار هذا العامل ٢٠٠ ، صورة موجزة للصلات السياسية بين الروم والفرس ٢٠٣ العامل الدينى : بدء المسيحيه - سيادة رو ا السياسيه - أهداف دعاة المسيحية ٢١٢ ، مالاقاه دعاة المسيحية من أباطرة الروم ٢١٣ ، اعتراف روما بالدين المسيحى ٢١٣ ، تشيع المسيحيين للروم - ظلم الفرس للمسيحيين - سفر مسيحيوا العراق إلى روما ودراستهم فيها ٢١٤ ، ضآلة الأثر المادى للحضارة الرومانية فى بيئة العراق - ينبغى أن ننظر إلى المسألة من جانب آخر ٢١٦ .

٢١٧ اللون الرابع : لون الحضارة اليهودية - أساس حضارة اليهود الكتاب المقدس - الصراع الدينى بين اليهود والمسيحيين فى وادى الرافدين ٢١٧ ، جالية يهودية فى بيئة العراق ٢١٨ .

٢١٩ كيف كانت بيئة العراق اثناء الفتح الأسلامى : أهم ما امتازت به بيئة العراق دون غيرها ٢٢٠ ، اليهود وما كانو عليه - السريان ونشاطهم ومدارسهم ٢٢١ ، الفرس ونهضتهم وآثارهم العلمية والأدبية والفنيه - انفتح بفتح العراق للعرب كنوز من المعارف ٢٢٢ .

فهرس الأعلام

ا

أبجر ١٢٠
أبدير ١٧٧
إبراهيم ٣٠، ١١٤، ١١٥
ابن أبي أصيبعه ١٤٢
ابن آمون ١٥٦
ابن ديصان ١٢٣
ابن عباس ١٩
ابن النديم ٧، ٦٣، ١٤٢، ١٤٥
ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى ٢١١
ابو جعفر المنصور ١٦١
ابو عبيده ٢١١
أبولى ١٩٣
أبيقور ١٩٢
أبيس ١٥٦
أتينا ٩٨، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٨، ١٤٠، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٧، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٩١، ١٩٣، ١٩٥
الاتينيون ١٥٢، ١٥٩، ١٧٤، ١٧٦
اتورت ٥٧
الآثار، ١٣٣
أثوس *Athos* ١٦٨
أجا ممنون ١٢٦، ١٢٧
أجريبينا *Agrippina* ١٩٦
الأحباش ١٤، ١٨
أحمد تيمور ١٤٥
أحمد عبد الباقى ١١
الأخدود ١٣٣
الأخمينيين ١٢٦
أخيل (أشيل) ٨٤، ١٢٦، ٩٢٧
أدابا الحكيم ٥٧
إديسا (الرها) ١١٦، ١٢١، ٢٠٦
إربل ١٣٣، ٢٠٥، ٢٢١
أربينوم *Arpinum* ١٩٤
ارتحششتا ١٥١
أردشير ٢٠٦
أرشميدس (أرخميدس) ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩
أرسطو ٩٢، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩

أرض النهرين ١١٥، ١٣١، ١٤٦،
١٤٩، ١٥٣، ١٥٧، ١٦٠،
١٦١، ١٦٥، ١٦٦، ٢١٣،
٢١٤
الآراميون ١٤، ٤٨، ٦٨، ١١١
١١٣، ١١٥، ١١٦، ١١٧،
١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١،
١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠،
١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦،
١٣٧، ١٣٨، ١٤٤، ١٤٦،
١٤٨، ١٦٣، ١٦٤
الأرمن ٢٠٤
أرمينيا ٧٨، ٢٠٥، ٢٠٨
أرورو ٤٢
آزر ١١٤
أزمير ٨٤، ١٠٤
إزاك Isaac ١٥٩
أسبانيا ١٢٠، ١٩٦
اسبارطيون ١٥١
استرابون ٩٥
اسحاق الرهاوى ٢١٤، ٢١٥
أسد ١٩
أسطورة العصور :
Legende des siecles ١٦٨
الأسكندر ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٩٦، ١٠٧
١٠٨، ١٤١، ١٥٠، ١٥١،
١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥،
١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٥،
١٧٤، ١٨٢، ٢٠٢
الأسكندرونه ١٥٣
الأسكندرية ٢٦، ١٠٢، ١٠٨،
١٣٧، ١٤٠، ١٥٧، ١٥٨،
١٧١، ١٧٢، ١٩٢، ١٩٨،
٢٠٤، ١٢٣
الأسلام ٧، ٨، ١٩، ٦٥، ٨١،
١٢١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥،
٢١٠، ١٢٢
آسيا ١٠، ٢٣، ٣٦، ٥١، ٥٣،
٧١، ٧٥، ٧٨، ٨٤، ٨٥،
٩٠، ٩٢، ٩٧، ١٠٢،
١١٦، ١٢٦، ١٢٧، ١٤٩،
١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٦١،
١٦٦، ١٧٠
آسيا الاغريقية ١٥٧
آسيا الصغرى ٦٠، ٧١، ٧٣، ٧٤،
٧٨، ٨٤، ٨٥، ٩٠، ٩١،
٩٢، ٩٤، ٩٧، ١٠٠،
١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦،

١٠٧، ١٠٨، ١١٦، ١٣١،
١٣٢، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٣،
١٥٨، ١٦٤، ١٧٠، ١٧٥،
١٨٥، ٢٠٩، ٢١٩
آسيا الغربية ٧٠، ٩٠، ١١٥، ١٦١
الآسيويون ٧٣، ٧٥، ٩١، ١٢٦
اسوس ١٥٣
أسواق العرب ١٩
اشتار ٤٢
اشور ٢١، ٥٠، ٥٦، ٥٨، ٥٩
٦٠، ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٧١،
٨٨، ٩٤، ١٠٣، ١٠٦،
١٠٧، ١١٤، ١٣٣، ٢١٥،
٢١٩، ٢٢٠
اشور بانيبال ٥٤، ٥٥، ٥٦،
٥٧، ٨٣
الآشوريون ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣،
٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٥، ٧١،
٧٢، ٨٣، ٨٥، ٨٨، ١١١،
١١٢، ١١٩، ١٤٧، ١٦٣،
١٧٢، ١٧٣، ١٨٥
إشيل Eschyle ٧٦، ١٨٠، ١٨١،
الأغريق (الأغريقيون) انظر
ترتيبها فى صـ ١
اغسطس (اوكتافيوس) ١٦٧، ١٨٩،
١٩٠، ١٩٣، ٢٠٤،
٢٠٥
أغنية رونالد
Chanson de Roland ١٦٨
أفريقيا ١٠، ٢٢، ٣٥، ٥١، ٦١،
٩٢، ١٢٠، ١٣٢، ١٥٤،
١٥٩، ١٦٩، ١٨٢
افريم ١٤٥
افستا ١٤٨
أفغانستان ١٦٠
الأفغانى ١٩
أفلاطون ١٣٧، ١٧٤، ١٧٥،
١٧٦، ١٧٧، ١٧٨
أكاد ١٦، ٢٠
أكاديون ١٦، ١٧، ٢٠، ٢٣،
٤٨، ٥٠، ٥٩
اكبتانا ١٥٣
ألاريك ٦٢، ٢١٥
الفريد كروازيه Alfred Croiset
٥٣، ٩٩
اليشع بن قوزبايا ١٤٥
المانيا ٨١، ١٢٠، ١٤٨
المانيون (الألمان) ٣١، ٧٩،

أهورا - مزدا ٦٥
أوروبا ١٠، ٣٥، ٩٢، ١٢٠
الأوروبيين ١٣، ١٠٥
أوروك ١٤، ٤١، ٤٢، ٤٣
أور ١٥، ١١٤
أوديسا ٤١، ٨٣، ١٥٤، ١٧٠، ١٧٩
أورشليم ٧٩، ٨٠، ١٠٠، ٢٠٤
أوريبيد ٨٦
أوفيديوس Ovidius ١٣٠، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١
أورفه ١٢١
أورپوس Europos ١٦٢
أوليس ١٧٠
الأوزاعى ١٨٧
أورود ٢٠٣
أوكاديوس ٢١٤
ايزيس ٨٧
ايزيس وأوزوريس ٨٧
الأينياده ٤١، ١٦٩، ١٨٩
ايليوزى Eleusie ١٨٠
ايزوقراط ١٧٤
اينيه ١٦٩
ايران ١١
ايفيجينى ١٢٧
آمد (ديار بكر) ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١١
امفيبوليس ١٦٢
أمريكا ٢٢، ١٠٦، ١٢٠، ١٤٨
الأمريكيون ٧٩، ٨١، ١٠٥، ١٤٨
أميانوس مارسيلانوس ٢٠١
امينتاس ١٧٤
الأناضول ٢٠٦
انجيدو ٤٢، ٤٣
انجلترا ١٢٠
الأنجليز ٨١
الأندلس ٢٢
أنو ٤٢
اندروماك ١٢٧
الأنصار ١٣٥
أنطاكيه ١٠٨، ١٥٧، ١٥٨، ١٦١، ١٧١، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩
أنطيوخوس (أنطيوكوس) ١٦١
أنطونيو (أنطونيوس) ١٩٠، ٤٠٤
أهرمان ٦٥

ايساغوجى ١٤٠
ايونيا ١٠٦
ايبيمينيد ٩٩
ايروس ٨٩
الياذه ٤١، ٨٣، ١٢٦، ١٢٧،
١٥٤، ١٧٠، ١٧٩
ايطاليا ١٠٢، ١٤٧، ١٥٩؛ ١٦٩
١٧٧، ١٧٨
الايطاليين ١٥٣

ب

بابل ٢١، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٦،
٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٦، ٤٩،
٥٠، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٠،
٦٣، ٦٦، ٦٧، ٧١، ٧٤،
٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٨، ٩٤،
١٠٠، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦،
١٠٧، ١١٣، ١١٤، ١١٥،
١١٦، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤،
١٥٦، ١٦٠، ١٧٢، ١٨٥،
٢٠٣، ٢٠٥، ٢٢٠
البابليون ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٣،
٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠،
٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٧،
٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٥،
٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٩، ٧١،
٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧،
٨٨، ٨٩، ٩٤، ١١١، ١١٢،
١١٣، ١١٨، ١١٩، ١٢١،
١٤٧، ١٥٦، ١٦٣، ١٧٠،
١٧٣، ١٨٥
البابليون - الأشوريون ٩٦، ٩٧
بابيلونيا ٢٠، ١٧١، ١٧٢
بابيلون *Babylone* ١٦٠
البابيروس ١٥٨، ١٦٤
بابريوس *Babrius* ١٦٨
البحث والمناظرة ١٧٨
البحر الأبيض المتوسط ٣١، ٣٥،
٤٩، ٦١، ٧٠، ٧٢، ٧٤،
٧٥، ٧٦، ٧٧، ٩٤، ١٠٧،
١١٢، ١١٥، ١٥٨، ١٥٩،
١٦٩، ٢٠٢، ٢١٩
البحر الأسود ٧٠
البحر الأحمر ٧٦، ١٥٤
بحر ايجه ٧٢، ٨٥، ١٠٠، ١٠٢،
١٥٠، ١٧٧
بحر الشمال ٧٥
بدران ٤١
باريس ٥٨، ٥٨، ٨٧، ١٦٧
بروسس ٨٨

برجام ١٠٨، ١٥٨، ١٦٤، ١٧٠، ١٧١، ١٩٨
برسيبوليس ١٥٣
باريس ١٢٧
باريزيوس Paresius ١٨٤
بروتاجوراس Protagoras ١٧٧، ١٧٨
بريانوس (برياموس) ١٢٧
برودیکوس Prodicos ١٧٩
البسفور ٢٠٩
بشار بن برد ١٤٤، ١٨٧، ١٨٨
بشير فرنسيس ١٥١، ١٥٥
البصرة ١٣٣
بطليموس ٢٦، ١٥٨
البطالمه ١٥٨، ٢٠٤
بغداد ٢٦، ١٦١، ١٦٢، ١٨٧، ١٩٣، ٢٠٠
بندار Pindare ١٨٢
بلوخستان ١٦٠
بلوتارك Plutarque ٨٧
بلاد الغال ٩٦
بلاد الأناضول ١٥١
بلاد الرافدين ١١٠، ١١١
بلاد اليونان ١٠٧، ١٥٣، ٢١٥
بلادفارس (الفرس) ١١٥، ١٢١، ١٢٦، ١٣١، ١٦١
بليست ٥٦
بلين القديم Pline l'ancien ٥١، ١٨٣
بيرهوس Pyrrhus ١٢٧
پومپي ١٦٩، ٢٠٧
بوكوليك ١٩٠
بولس ١٣٩
البيان ١٧٩
بيت زبدى ٢٢١
بيت المقدس ٢٠٩، ٢١٣

ت

تابساك Thpsaque ١٦٢
تابساكوس (تفساح) ٢٠٧
تاريخ الأدب السريانى ٤٩، ١١٧، ١٢٤، ١٣٣، ١٤٥، ١٧١، ٢١٥، ٢٢١
تاريخ آداب اللغة العربية ٢٥، ٣٤
تاريخ الأدب اللاتينى ٣٦
تاريخ الأدب الأغريقى ٥٣، ٩٩
تاريخ الأمم والملوك ٢١١
تاريخ ديانة آلهة الاسكندرية ٨٧
التاريخ الطبيعى ٥١، ٥٢، ١٨٤
تبوك ١٣٢

تدمر ١٣١، ٢٠٨
التدمريون ١٤
تراجانوس ٢٠٥
الترك ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠
التركستان ١٢١
تل العبيد ١٥
تل العمارنه ٥٠
التوراه ٢٩، ٣٤، ١٣٩، ١٤٨
تونس ٧٥
تورولدوس ١٦٨
تيريدات ٢٠٥
تيساليا ١٨١، ١٨٢
تيسبيس ٤١
تيموتاوس ايلرروس ١٣٩
تيوجونى ٥٣، ٨٩
تيوس ١٧٥
تيودوسيوس ٢١٤

ج

جاك بيرين *J. pirenne* ٢٨
جاليريوس ٢٠٦
جان جاك روسو ١٣٠
الجزيرة العربية ٤٩، ١١١
جزيرة كريت ٧٣، ٧٤، ٩٩، ١٠٦
جزيرة الفيلة ٩٤، ١١٦
جزيرة صقلية ١٠٢، ١٢٨، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢
جزر بحر ايجه (الجزر اليونانية فى بحر ايجه) ١٠٤، ١٠٧، ١٥٠
جزر اليونان ٢١٩
الجزيرة العراقية ٢١، ١١٦
جزيرة كورسيكا ١٩٦
جزيرة خيوس ٨٤
جزر المحيط الهندى ٢٢
جلجميش ٤١، ٤٢، ٤٣، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ١٧٠
جمدت نصر ١٤
جنديسابور ٢٦، ١٢١
جورجياس ١٧٨، ١٧٩
جورجى زيدان ٢٥، ٣٤، ٤٨
جورج لافاى ٨٧
جوستينيان ٨١، ٢٠٨
جوفيان ٢٠٨
جوليانوس ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١١

ح

الحبشه ١٨، ٢٢

الحجاز ١٨، ٣٠، ٣٢، ٥٠
حذيب ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٩،
١٤٦، ١٤٧، ٢١٧، ٢٢١
حران ١١٥، ١١٦، ٢٠٦، ٢٠٧
الحزه ٢٢١
الحضارات القديمة:
Civilisatios antiques ٢٨
الحقيقه ١٧٨
حمورابى ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠،
٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧،
٤٤، ٤٩، ٥٤، ٥٩، ٧٢،
٩٧، ١٠٠، ١٠٦
حنانيا ١٣٣، ١٣٤
الحواريون ١٣٥
الحيثيين ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤،
٩١، ١١٢
الحيره ٢٢١

خ

خالد بن الوليد ٢١١
خسرو ٢٠٥
خراسان ١٦٦
الخليج الفارسى ١١٣، ١١٥

د

دارا ٩١، ١٢٦، ١٥١، ١٥٣، ٢٠٠،
٢٠٩
داود ١٥
الدجلة ١٠، ٧٢، ١٣٣، ١٦٠،
١٦٢، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٥،
٢٠٧، ٢١٠
دجله والفرات ٩٠، ٩١، ٢٠٠
دراسات جغرافية ٩٥
دراسات تاريخية (المكتبة التاريخية)
٩٥، ٩٦
الدردنيل ٧٢
دستجرد ٢١٠، ٢٢٢
دفنى ٢٠٠
الدلتا ٧٨
دمشق ٨، ٢٠٩
دورا ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٠،
١٧١
الدوريان ١٠٢
الدولة الأموية ٨، ٢١٩
الدولة البابلية ـ الأشورية ٢١٨
الدولة الرومانيـــة ١٩٨، ١٩٩،
٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٤
الدولة العباسية ١٨٦، ٢١٩
الدولة الفارسية ٢٠٨، ٢١٤، ٢١٨
الدياطسرون ١٣٨، ١٧٠، ١٧١

ديميتريوس الفاليرى
Demetrius de phalere ١٦٨
دير كفر مارى ٢٢١
دير عبدا ٢٢١
الديانات فى عهد الوثنية الرومانية
١٧
ديموستين ١٩٤
ديوان ايبود Epodes ١٩٤
« ايبيتر Epitres ٦٢ ، ١٩٤
« أود Odes ١٩٤
« Carmen saeculare ١٩٤
« الفن الشعرى Ars poetica
١٩٤
« ساتير Satirae ١٩٤
ديودور الصقلى ٩٥ ، ٩٦
ديوجين ١٥٩
ديونيزوس Dionysos ٤١

ر

الرافدان ١٥١ ، ١٥٥ ، ٢٠٠ ،
٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١١
الرباعى ١٣٨
رستم ٢١١
الرسول ١٣٣
الرشيد ٢٦ ، ١٤٢
الرقة ١٣٩
الرها (حران) ١١٦ ، ١١٩ ،
١٢١ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ،
١٤٦ ؛ ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ،
٢٢١
روبير كوهين Robere cohen ١٧١
رودس ٧٤
رودون الاسيوى ٢١٥
الروس ٨١ ، ١٤٨
روسيا ٣١ ، ١٢٠ ، ١٤٨
روما ٣١ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٧٦ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ،
١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ،
٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
٢١٧
الرومانيون (الروم) ٧ ، ٢٧ ، ٣٠ ،
٣٩ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٦١ ،
٦٢ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،
١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٢٥ ؛ ١٢٨ ؛ ١٢٩ ؛ ١٤٨ ؛
١٥٩ ، ١٦٠ ؛ ١٦١ ؛ ١٦٣ ؛ ١٦٥ ؛
١٦٦ ؛ ١٨٧ ؛ ١٩١ ؛ ١٩٢ ؛

١٩٣ ؛ ١٩٩ ، ٢٠٠ ؛ ٢٠١ ؛
٢٠٢ ، ٢٠٣ ؛ ٢٠٤ ؛ ٢٠٥ ؛
٢٠٦ ؛ ٢٠٧ ؛ ٢٠٨ ؛ ٢٠٩ ؛
٢١٠ ؛ ٢١١ ؛ ٢١٢ ؛ ٢١٤ ،
٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ،
٢٢٣

ز

زحـــل ٤٨
زرثسترا ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦
الزردشتيه ١١١
زرعه ١٣٣
زينون ١٢٥ ، ١٩٢ ، ١٩٦
زيوكسيس ١٨٤

س

سابـور ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
٢١١ ، ٢١٤
الساسانيين ١٢١
سارابيون ١٢٤
ساردیس ١٥١
سالامـين ١٨١
الساميـون ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ،
٢٢ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ،
٦٠ ، ٦٣ ، ١١٠ ، ١٦٣ ،
١٧١
سبتيموس سيفيروس ٢٠٥
ستاجير ١٧٤
سرجوس ٧٨
سرجيس الراعى عينى ١٤٠
السريان ٦٣ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
١٧١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ،
٢٢١ ، ٢٢٣
سعد بن أبى وقاص ٢١١
سقـــراط ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
١٧٥ ، ١٧٦
سلوقيـــة ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ،
١٦٢ ، ٢٠٠ ، ٢٢١
السلوقيون (السليوسيد) ١٦٠ ، ٢٠٤
سيليوقوس ١٦٠ ، ١٦١
سنجار ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
سورة الانعام ١١٤
سوريا ١٨ ، ٣٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٨ ،
١١٦ ، ١٣١ ، ١٥١ ، ١٥٣ ،
١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ،
٢٠٠ ، ٢٠٤
السوس ٢٨ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٢٢٢
سوفوكل ٨٦ ، ١٨١

سولون ٣٦، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٩٧
سومر ١٠، ٢٠، ٨٣، ١٦٨
السومريون ١٠، ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٣٧، ٣٨، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٥، ٥٩، ٦٠، ٦٧، ٨٢، ١١٢، ١٧٠، ١٧٢
السوفسطائيون ١٧٨
سومكا ١٣٣
سويروس الانطاكى ١٣٩
سيتون لويد ١٥١، ١٥٥، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١١
سيراكوز ١٢٨، ١٨٢
سيسيرون (ماركوس) ٢٧، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧
سيفيروس ٢٠١، ٢٠٥
سيلاكس ٩١
سيمونيد ١٨١، ١٨٢
سيناء ٧٠، ١٤٠
سينيكا ١٩٦

ش

شاب ـ آد ١٥
الشام ٨، ١٩، ٢٢، ٣٣، ٦٠، ٧١، ١٠٨
شبه الجزيرة العربية ١١، ١٨، ٢٠، ٣٠، ٧٦، ٧٧، ١١٣، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٤
شبه جزيرة ايطاليا ٧٨
شبه جزيرة اليونان ١٠١، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٨٢
شبه جزيرة سينا ١١٦، ١٣١
شرجال ٥٧
شرجينا ٢٦، ٢٢٠
الشرق الادنى ١٦، ٢٩، ٧٤
الشعر ١٧٩
شمش نيشتيم، ٤١، ٤٣

ص

الصـــائبة ١١١
صالح بن عبد القدوس ١٤٤
صبوره ٣٣
صور ١٥٣

ط

طاطيان ١٣٨، ٢١٥
طرابلس ٢٠٩
طرسوس ٢٠٦

طـــرواده ٩٦، ١٢٦، ١٢٧، ١٦٩، ١٧٠
طه باقر ١٥١، ١٥٥
طيبه ١٧٢، ١٨٢
طيبيريوس ٢١٢
طيسفوس (المدائن) ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٢٢

ع

العباسيون ١١٢
عبد مناف ١٩
عبد نرجل ١٣٣
عبد الوهاب عزام ٣٩
عبادة القمر عند العرب :
Die altarabische mondreligion ٣٤
العبرانيون ٧، ١٣، ١٤، ١٥، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٧١، ١١١، ١١٢
العرب ٧، ١٣، ١٨، ١٩، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٤٧، ٤٨، ٦٢، ٦٨، ٧٦، ٧٧، ١١٣، ١١٨، ١٢١، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣
العرب قبل الاسلام ٣٤
العراق ٣، ٤، ٥، ٦، ٨، ٩، ١٠، ٢١، ٢٢، ٢٦، ٣٧، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٦٢، ٦٣، ٦٨، ٧١، ١١٢، ١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٣١، ١٣٨، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٩، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣
العراق وما توالى عليه من حضارات ١٥٠، ١٧٣، ١٨٠، ١٨٥، ٢٢٠
العصر الوسيط (العصور الوسطى أو القرون الوسطى) ١٠٦، ١٢٠، ١٨٩، ١٩٠

على بن أبي طالب ٢١٨
على عبد الواحد وافى ١٣، ١٤، ١١٧
عمالقة العراق ٣٢، ٣٣
عمر بن الخطاب ٢١١
عمرو بن العاص ٢١١
عمرو بن عبيد ١٤٤
عياض بن غنم الفهرى ٢١١
عيسى ١٣٥، ١٣٦، ١٩٠
عيلام ٢٨
العيلاميون ٢٨
عين الداليه ٢٢١

غ

الغاليون ١٠٢

ف

الفارثيون ١٦٦، ١٧٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦
فارس ٣٩، ٦٦
فارسال ١٦٩
فاليريانوس ٢٠٦
الفرات ١٤٠، ١٤٣، ١٦٠، ١٦٢، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨
الفراعنه ١٢، ١٣
الفرس ٧، ٣٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧٩، ٨٠، ٩١، ٩٤، ٩٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٣١، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٨، ١٧١، ١٧٢، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣
فورفوريوس ١٤٠
فرنسا ١٤٨، ١٦٨
فرنسيون ١٤٨
الفريجيون ٧١، ٧٣، ٧٤، ٩١
فقه اللغه ١٣، ١٤، ١١٧
فلسطين ٣٤، ٦٢، ٧٨، ٨١، ١١٦، ١٣١، ١٥٣، ١٦٠، ١٦١، ٢٠٤، ٢١٢، ٢١٨، ٢٢٠
فن الحب ١٨٨، ١٨٩
الفهرست ٧، ٦٣، ١٤٥
فيتاغورس ١٣٠، ١٧٣

فيدر ٤٠، ١٦٧
فيروز ٢١٤
فيرجيل ٤١، ١٦٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣
فيكتور هوجو ١٦٨ -
فيليب ١٥٢، ١٧٤
فينيقيا ٣٤، ٧٨، ١١٦، ١٣١
الفينيقيون ١٤، ٣٥، ٣٦، ٥٤، ٦٧، ٧١، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٨٦، ٩٧، ١١١، ١١٢، ١٥٩
مجموعة الأساطير *Fables* ١٦٧

ق

القادسيه ٢١١
قانون البلاد ١٢٣
قباذ ٢٠٨
قبرص ٧٤، ٧٨
القدس ٢١٠
القرآن ١٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ١١٤، ١٣٣، ١٨٩، ١٩٠
قرطاجنه ٧٥
قرطبه ١٦٩، ١٩٦
قريش ١٩، ٧٧
القرشيون ١٣٣
القسطنطينية ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٤، ٢١٦
القسطنطينيون ٢٠٩
القصائد الهجائية ٦٢
قصة الحضارة ١٦، ٢٩، ٥٢، ٥٦، ٥٨، ٨٣، ١٠٥، ١٠٩
قنسرين ١٤٠، ١٤٣
قورش (كورش) ٦٠، ٦١، ١٥٠، ١٥١، ١٦٣
القوط ٦٢
قيس بن مكشوح المرادى ٢١١
قيصر ٩٦، ١٦٩، ١٩٣، ١٩٥، ٢٠٣
قيصرية ٢٠٦

ك

كاتون ١٥٩
كاراكالا ٢٠٥، ٢٠٦
كارنياد ١٥٩
كاساندر ١٢٧
كاسيوس ٢٠٥
الكاشيون ٤٩، ٥٩
كالسيس ١٧٤
كانتوس ١٩٤، ١٩٥
كاون ٤٨

الكتاب المقدس ١١٨
كتاب الله أو الحكمة العليا
de Providentia ١٩٧
كتاب قوة الاحتمال
de Constantia ١٩٧
كتاب الغضب de Ira ١٩٧
كتاب السعادة de vita beata ١٩٧
كراسوس ٢٠٣، ٢٠٤
كريتولاوس ١٥٩
كريزوس ١٦٨
كسرى ١٦، ٨١، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٤، ٢٢٢
كلد ١١٣
كلده ١٦، ٤٩
الكلدانيون ٤٨، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٤٧
كلوديوس ١٩٦
كليلة ودمنه ٣٩
كليمانس الاسكندرى ٢١٥
كليوباطره ١٩٠
الكنعانيون ١٨، ٣٠، ٣٥، ١١٢، ١١٥
كوكيله ١٥٣، ٢٠٥
كولون ١٨١
كومون Cumont ٨٧
كيرولوس الاسكندرى ١٣٩
كيش ١٤
كيوريتون ١٢٤
كيوس ١٨١

ل

اللاتينيون ١٤، ٣٩، ٤٥، ٥٣، ٦١، ٧٥، ٨٢
لاسيوم ٦٢
لاروس ١٠٣
لافونتين ٤٠، ١٦٧
اللغة والنحو ١١٨
لندن ١٦، ٥٨، ٢٠٤
اللوفر ٢٨
لوكانوس ١٦٩
ليبيا ١٧٦
ليديا ١٦٨
الليديون ٧٣، ٧٤، ٨٦، ٩١، ١١٢
ليونارد وولى ١١، ١٢، ١٤

م

مارا بن سارابيون ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧
مارانون ١٨١
ماردوك ١٧٢

ماردين ٢٠٠، ٢٠٩
ماركوس أويليوس ٢٠٥
ماروثا ٢١٤
ماسرجويه ٢٢١
مارسيالوس ١٢٨
المأمون ٢٦، ١٤٢
ماليه *Mallet* ١٥٩
مايسيناس ١٩٣
المتحف البريطانى ٢٦
متريدات ١٦٢
المجوس ٦٤، ٦٦
المجوسية ١١١
محمد بدران ١٦، ١٠٥
محمد حمدى البكرى ٤٩، ١١٧، ١٢٤، ١٣٣، ١٤٥، ١٧١، ٢١٥
المحيط الاطلنطى ٧٥
المحيط الهندى ٩١
مخزوم ١٩
المدينه ٨، ٢١١
مدينة كسرى المفضله على أنطاكيه ٢٠٣، ٢٢٢
مدين ٣٣
مراد كامل ٤٩، ١١٧، ١٢٤، ١٣٣، ١٤٥، ١٧١، ٢١٥
مرداخ ٤٨
مردك ٥٧
المريخ ٤٨
مرسيليا ١٠٢
مسرحية القدس ٤١
مسرحية ألعاب مأتم بيلياس ٤١
مسرحية الشبان ٤١
مسرحية المستعطفات ١٨٠
مسرحية الفرس ١٨٠
مسرحية الرؤساء السبعة أمام طيبة ١٨٠
مسرحية بروميتيه فى الأغلال ١٨٠
مسرحية أجا ممنون ١٨٠
مسرحية الساقيات فى نخب الآلهة ١٨٠
مسرحية الخيرات ١٨٠
مسرحية هيركول غاضب ١٩٧
مسرحية نساء طرواده ١٩٧
مسرحية أوديب ١٩٧
مسرحية فيدر ١٩٧
المسلمون ١٤١، ١٤٢، ١٨٩، ١٩٠، ٢١١
المسيح ١٢، ١١٨، ١١٩، ١٢٢، ١٣٠، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٤، ١٤٧، ١٦٦، ١٩٠، ٢٠٢، ٢١٢

المسيحيون ٤٤، ١١٩، ١٣٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥
مصر ١٢، ٣٣، ٤٥، ٥٠، ٥١، ٦٢، ٧٦، ٧٨، ٩٢، ٩٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٦، ١٣١، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٤، ١٧٦، ٢٠٤، ٢١١
المصريون ٢٢، ٢٤، ٣٣، ٣٩، ٤٥، ٤٦، ٨٧، ٩٤، ١٣١، ١٥٦
المعتزلة ١٤٤
معجم اللغة الفرنسية ١٠٣
معن ١٢٠
المعهد الأكاديمى ١٧٦
المغيره بن شعبه الثقفى ٢١١
مقدونيا ١٦٨، ١٧٤
المقدنيون ١٥٢، ١٥٥
مكه ٨، ١٣٣
ممفيس ١٥٦، ١٧٢
المندعيون ١٢٠
المنذر ٢٠٨
موريس كروزيه ٥٣، ٩٩
موسى ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ١٠٠
موسى الأجيلى ١٣٩
موسولينى ١٥٣
الموسيقا ١٣٠
مونوباز ١٣٣، ١٣٤
ميتا فيزيقا ١٣٠
الميديون ٥٩
ميزوبوتاميا ٦
ميسالينا ١٩٦
ميفارقات (ميفارقين أو مدينة الشهداء) ٢١٤
مينيلاس ١٢٧

ن

نابو ٥٧
النبط ١٤، ١٣١
نبو خد نصر ٧٩، ٨٠، ٢١٨
نجران ١٣٣
النسطوريون ١١١، ١٢٢، ١٣٧، ١٣٨.
نرسيس ٢٠٦
نرسيس المقدسى ٢١٥
النصارى ١٢١
نصيبين ١٤٣، ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٢١
نلسن ٣٤
نهر الأردن ١٢٠

نهر التيبر ١٠
نهر دجله والفرات ١٠
النورماندى ١٦٨
نسطوريوس ١٢٢، ١٢٧، ١٤٥
نيرون ١٦٩، ١٩٦، ٢٠٥
نيزار Nisard ١٨٤
النيل ١٠، ١٢، ١٥٤
نينوى ٢١، ٥٥، ٢٠٥، ٢١٠

هـ

هـادريانوس (ادريانوس) ١٢٠،
٢٠٥، ٢١٣
هاشم ١٩
هاليكارناس ٩٤
هرقل ٢١٠
الهكسوس ٥٠
هرمز ٢٠٧
الهند ٧، ١٠، ٣٩، ١٢١، ١٢٢،
١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٦٠،
١٦٨، ٢٢٢
الهنود ١٤، ٣٩
هوراسيوس ٦٢، ١٩٣، ١٩٤
هوميروس ٤١، ٨٤، ٨٩، ١٠٤،
١٢٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٩،
١٨٠
هومبير Humbere ١٠٩
هيرودوت ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥،
١٦٧، ١٨٠، ١٨٥
هـيزيود ٥٣، ٨٩، ٩٠، ٩١،
١٠٤، ١٨٠
هيكاتيه ٩٢، ١٨٥
هيكتور ١٢٦، ١٢٧
هيلانه ١٣٤
هيليوبوليس ١٧٢
هييرون Hieron ١٢٨

و

وائل ١٢٠
وادى دجله والفرات ١٧، ١٨،
٢١، ٢٢، ٣٠، ٤٩، ٥٠،
٥٣، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١،
٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨،
٧٠، ٧١، ٩٠، ١١٠، ١١١،
١١٢، ١١٣، ١١٦، ١٣٢،
١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٣،
١٤٦، ١٥٠، ١٥٣، ١٦١،
١٦٤، ١٧٠، ١٨٥، ٢٠٤،
٢١٣، ٢١٩
وادى الرافدين (أو النهرين) ١٠،
١٦، ١٠١، ١٠٤، ١١٠،

١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢١،
١٢٣، ١٢٢، ١٣٣، ١٣٤،
١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠،
١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١،
١٦١، ١٦٤، ١٨٧، ٢٠٥،
٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٧، ٢١٩،
٢٢٠
وادى الرافدين مهد الحضارة ١١، ١٢
وادى النطرون ١٤٠
وادى النيل ٩٤، ١٧٢
واصل بن عطاء ١٤٤، ١٤٥
وركاء ٢٦، ٢٧، ٢٢٠
الولايات المتحدة ٣١، ٨١
ول ديورانت ١٦، ١٠٥، ١٠٧

ى

يشرو رعوئيل ٣٣
يحيي النحوى الاسكولائى ١٣٩
يزد ١٣٣، ١٣٤
يزدجرد ٢١٤
يزيد بن أبى سفيان ٢١١
يعقوب بارادوس ١٢٢، ١٣٧
اليعقوبيون ١١١، ١٢٢، ١٣٧،
١٣٨
اليمن ١٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٥٠،
١٣٢، ١٣٣
اليمنيون ١٤، ١٨، ٣٣
يوحنا فيلبونس ١٢٩
يوسيفوس ١٣٣
يونانى ١٠٣
يونى ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤
يونيان ١٠٢
اليونانيون ٧، ٣٠، ٣١، ٣٥،
٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٥،
٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٦١،
٦٢، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١،
٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨،
٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤،
٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠،
٩١، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧،
٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤،
١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩،
١١٢، ١١٩، ١٢١، ١٢٢،
١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧،
١٢٩، ١٣٢، ١٤٠، ١٤١،
١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠،
١٥١، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠،
١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥،
١٦٦، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١،
١٧٢، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢،
١٨٥، ٢٢١، ٢٢٢
اليهود ٢٨، ٤٤، ٧٩، ٨٠، ٨١،
١٠٥، ١٠٦، ١٢٠، ١٢١،
١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥،
١٤٨، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢١

تصويب

ص	س	خطأ	صواب
١٤	٥	(١)	(٢)
١٤	٥	(٢)	(١)
٢١	٥	*Neniue*	*Nenive*
٢٤		وصولنا	وصولها
٢٦	١٧	البابليين ومن بعدهم الاشوريين	البابليين والاشوريين من بعدهم
٦٦	١	القرن التاسع عشر	القرن التاسع
٨٧	٥	*Histoire du lulte des diniqités*	*Histoire du elte des divinites*
٩٤	٣	أن نرى فيه	أن نرى فيها
٩٤	٥	غير أنا	غير أنه
١٠٦	٤	العباره	العمارة
١٢٥	١٤	ثم ما نره	ثم مانراه
١٣٥	٥	يتبع	يتتبع
١٦٢	١٦	فيما بعد مدينة امفيبوليس	فيما بعد شبيهة مدينة امفيبوليس
١٦٢	١٦	*Ampohpolis*	*Amphipolis*
١٦٧	١٢	*Fedre*	*Phedre*
١٧٣	٩	كانما	كانها
١٨١	١٥	فى الكيف	فى الكم
١٩٧	٧	القانون الرومانى	القانون اليونانى
١٩٨	١٠	أن بسط	أن تبسط
٢٠٦	١	بمجرره	بمجزره
٢١٧	١٦	وأينا	رأينا
٢٢٣	١١	الأول	الأولى

DATE DUE

DS
69.5
A85
1952

31 MAY 1987

DS
69.5
A85
1952